كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

بلزاك

أمير الرواية الفرنسية

أحمد الصاوى محمد



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣١٢ - ذو الحجة ١٣٩٦ - ديسمبر ١٩٧٦

No. 312 — December 1976

مركز الادارة

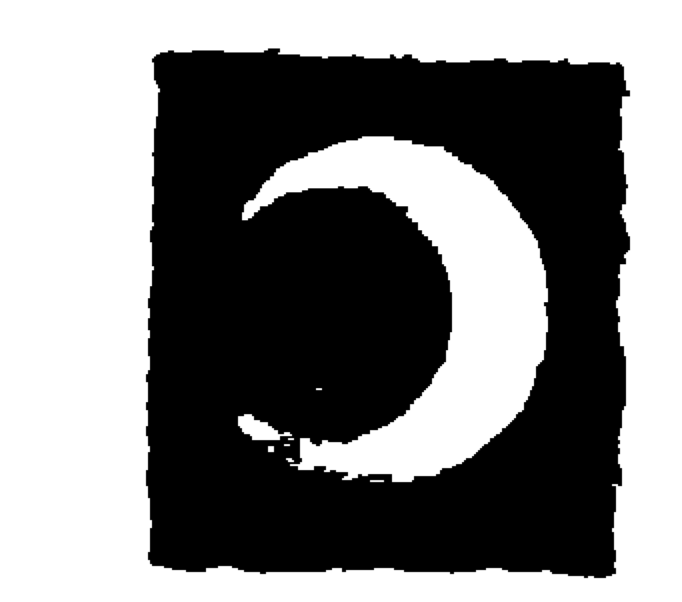
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية او ٢٫٥ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
جمـــــــال قطب

أحمد الصاوى محمد

بلزاك

أمير الرواية الفرنسية

دار الهلال

الجزء الاول :

النضال مع الحياة

- ١ -

هذه الحياة الفريدة ، حياة « اونوريه دى بلزاك » ، أقرب ما تسكون الى قلبى .. انى أحبه .. أحب قوته وضعفه .. أحب عبقريته الفذة ، وسذاجته النادرة .. أحبه : شابا فقيرا فى باريس ، يبحث عن خيالات وأشباح لقصصه ، وأبطال لرواياته .. أحبه : محبا ، مخلصا ، معذبا ، حائرا بين الفن والحب .. أحبه : متخبطا ، يبحث عن المال طابعا وناشرا ، فيخسر ، ويظل بقية عمره عبدا لخسارته ، يؤلف ليسدد ديونه .. وهيهات ..

ولقد اخترت لقرائى الاعزاء هذه الحياة العزيزة على .. سأشركهم فيها .. وكنت قد اتخذها لنفسى ، أرى خلالها ما لا تراه العيون .

وانى لأذكر ، فى كتاب وضعته « البرنسس ببسكو » ، انها عندما لقيت « مستر كارتر » ، مكتشف مقبرة « توت عنخ آمون » ، لم ترد ان تحدثه عن اكتشافه الذى يسأله عنه كل الناس ، وسألته عن حياته ، هو شخصيا ، فى الصحراء ، وهى الحياة التى لا يسأله عنها أحد .. فقال لها انه يعيش فى عشة « بنجالو » ، فى وادى الملوك ، قرب المقبرة . وفى خلال السنوات العشرين التى قضاها باحثا منقبا ، دون ان يقنط أو

يبأس ، كانت سلواه هى قراءة الكتاب المقدس وقصص « اونوريه دى بلزاك » .. فقالت الاميرة : « حقا ان بلزاك وحده هو الذى كان كفيلا بأن يعمر الصحراء .. » ! ..

***

النبوغ كالحب ، ما من أحد يتقبله فى أرضنا الغبية بصدر رحب ، فلا بد له من العنف ليفرض نفسه فرضا . ومن بواعث الاسى ففر الاسرة والمجتمع فقرا روحيا مدقعا ، يجعلهما عاجزين عن ادراك الساعات الاولى من صباح قدر جليل أو مصير عظيم .. فالآباء ، والمعاصرون ، يعيشون جميعا ، بلا تأثر ، أو مبالاة ، بمجد بازغ مولود ، فلا ينساله من دهره الا حسرة الافئدة ، بعد فوات الاوان ، عندما تتأمل جمال العبقرية المفقود ..

حقا ان سبق الشعور بعظمة الرجل الكامنة فى بساطة الطفل يتطلب معينا من الاقدام أو الموهبة الشاعرية ، وهو ما يعز عادة فى سواد الناس .. لماذا تبهر عيونهم ، من بين كل ما حولهم ، من أشياء خاملة ، فتميز علامات النبوة ؟ ! .. أترى هذه العيون فى السماء المشرقة اكثر من يوم صيف ؟ .. أليست القلوب التى تحس دنو العظمة نادرة ندرة القلوب التى تتأثر بوردها النورانى المتفتح ، عند ما تلمسه شمس الصباح الكريمة بشعاعها الدائم الاشراق ؟ ! ..

***

عندما كان « اونوريه دى بلزاك » ، فى يونيه ١٨١٣ ، فى الرابعة عشرة من عمره ، على شاطىء اللوار ، بمدينة تور ، يتنزه مع اخته ، بصحبة أمهما ، صاح على حين فجاة ، وهو يقفز ، كمن به مس :

ـ لور !.. أتعرفين ان أخاك سيصير رجلا عظيما !

فتضج الصغيرة الفريرة بالضحك ، وترد عليه أمه ، الحصيفة ، هازة كتفيها : « مالك ولكلمات تجهل معناها ؟ ! »

وكان النهار هادئا جميلا . وليس في نور السموات وطيب الارض ما يشعر نفسا غير ملهمة بأن تلك الصيحة الصبية هي بشير هاتف بمجد مؤثل للآداب الفرنسية.. لقد كان الفتى في السن الناعمة الصوت ، فكيف يحمل كلامه على محمل الجد ؟ .. ومع ذلك فتلك هي الساعة الخطيرة التي تتكون فيها الشخصية ، ساعة النبوغ ، الساعة الاولى المشهودة : يستيقظ الاسلاف ، ويتحدثون معا .. ومن خلال أصواتهم جميعا ، تحت قلنسوة الطالب ، نرى رجلا صغيرا يدخل الدنيا ، ويبحث عن توازنه فيها .. وبينا كان هذا الصبي يحلم في هذه الاشياء الكبيرة ، مشى في التراب ، فاحتد عليه صوت أمه :

ـ ها أنت ذا قد أتلفت جوربك وحذاءك !.. انت لا تلتفت الى شيء ، ولا تعنى بشيء ! .. يا للضنى منك ، ويا للعذاب !.. أتضحك ؟ ! أيها الولد الذى لا قلب له ! ..

فترد عليها العين الصافية ، والوجنة الوردية ، والفم الباسم ، والصوت الذى فيه رنة الفرح : « بالله « بالله لا تغضبي ، ياحبيبتي ، يا أماه !.. »

ويجرى ينهل من الهواء كما لو كان ماء ، ويحصى ما على سطح نهر اللوار من أشرعة بيضاء ، اذ ينفخ فيهما الريح مثلما تنفخ فيه أماني الحياة.. وبعينيه العسليتين، الظامئتين ، اللتين ابتدر فتأجج فيهما شعاع نفس من نار ، راح ينظر بشغف الى ذلك المحيط السعيد من

الحدائق والجنات ، والبيوت التى جمعت بين التواضع والانسجام. وكما يحدث الكائنات أحيانا بصوت عال، ويسأل النهر عن صحة أسماكه ، ويسأله ان يطمئنها على صحته ! .

وكانت لور تطرب ، والأم الشابة تتنهد ، أنيقة ، جميلة ، ذات سيادة وخشونة ، كما لو كانت ، تحت مظاهر النعمة والرغد ، تحمل هما خفيا .. ولكن من أين للصغار ان يدركوا هموم الكبار ؟ !.. ومروا أمام بائع صور يعرض صورة نابليون واقفا فوق خريطة جزيرة كورسيكا .. فقال اونوريه الماكر :

ـ أماه !.. يا ليتنى كنت قد ولدت فى كورسيكا !

ـ يالك من مخلوق مرذول ! ..

فيضج بالضحك .. واذا ببائع صحف ينادى بالنصر ، وفى يده ملحق حربى ، فيهرع الاطفال اليه :

ـ أماه ! أماه ! .. انتصار ! ..

فيقول بائع الصحف ، والعرق يتصبب منه :

ـ هاهوذا نصر جديد يتوج بالمجد هامة الامبراطور، وفرنسا .. ان الجيش الاعظم ، ايها المواطنون ، قد فاز فى معركة « بوتزن » !.. والخلفاء قد ذهبت ريحهم ، وتشتت جمعهم ، فولوا الادبار !..

وبينا كان الجمهور يهتف : « لتحى فرنسا !.. ليحى الامبراطور !.. » . كان اونوريه واجف القلب ، يتبع تقاطيع بائع الصحف ، وكان جنديا قديما ، مشوها ، مقطوع الساق .. فصار بلزاك الصغير ينظر، ويتعلم ، ويتهذب ، ويأخذ من مشهد هذا الشقاء الانسانى ، والحرمان النبيل ، درسا فى بسالة الرجولة ، التى تغفل شقاءها ، وتنسى حرمانها ، فى ضجيج انتصار الاوطان ..

لشد ما عاد اونوريه قرير العين ، يتفجر طموحا !..
ما اكثر ما فى الحياة من أشياء عظيمة وجميلة !

القت مدام بلزاك أمرا الى المربية ، المكلفة بالاطفال.. فأسرعت هذه اليهم ، لتبدل ملابسهم ، وتنزع ثياب النزهة الانيقة عنهم .. والحق أن اونوريه قد خلع سترته وبنطلونه الرمادى القاتم ، دون أن يفكر فيما يفعل .. فقد زعم نفسه عندئذ فى بروسيا ، يحمل علما مظفرا ، ويدخل بلدا على رأس الغزاة ، ويسمع ضرب الطبول ودوى الهتافات ..

واذ كان لايزال أمام موعد الطعام ساعة ، يأخذ اونوريه أخته لور الى الغرفة العليا من البيت ، حيث يشاهدان من نافذتها السحرية مدينة « تور » ، وجميع أسطحها ومداخنها ، وهالة الشفق التى تبسط على ما حولها صفاء وسلاما ..

ــ أتعرفين ، يا أخيتى ، ان من سعدنا أن ولدنا فى مدينة طيبة ؟ فقد كان من المحتمل ان نولد من المتوحشين !.. فما زالت فى الدنيا بلاد تغص بهم !.. وليس ثمة غير عيب واحد ، هو ان تور ليست قريبة من بروسيا . فلن يجىء الامبراطور الى تور . فما أشد شوقى الى رؤيته !. وهل قصت عليك « المدموازيل » (يقصد المربية) كيف كان الجنود ، أثناء التقهقر من روسيا ، يقضون نحبهم فى الجليد ، اذ كانت درجة الحرارة ثلاثين تحت الصفر ؟ أما هو فكان يروح ويجىء ، ويأمر ويقود ، ولا يشكو شيئا .. حتى لقد كان لا يحس البرد !.. لقد صدق أبى اذ قال عنه : « انه ليس رجلا من طينة البشر » !

ثم أضاف بحياء وبساطة :

ــ وانى ليسرنى شعورى بأننى ، انا أيضا ، لست

على غرار الناس .. فاذا سألتنى او لم أكن فى مدرسة فندوم مثلى مثل بقية الصبيان ، قلت لك اننى كنت أموت بينهم من السـآمة والضجر ، اذ أراهم يعملون جميعـا نفس الواجب ، فى نفس الساعة ، فى نفس القاعة ، فى كراريس متساوية شكلا ، وحجما ولونا !.. فهؤلاء « الآباء » (يقصد القسس المعلمين) ، لايريدون لنا فى رءوسنا الا أفـكاراً واحـدة ، ليست رفيعة ، وليست سامية !..

فتراجعت لور ، كما لو كان قد قال شيئا غير جائز، وقالت بصوت خافت :

ــ اتذكر الآباء الذين ضربوك بالمقرعة علىأصابعك ؟

ــ أوه المقـرعة !.. اننى ، وهم يضربون ، كنت افكر فى شىء آخر.. أما أحدهم وهو « الاب هوجول» ، فلا اغفر له ماحييت ، اذ أخذ منى كتابى !

ــ اى كتاب ؟

ــ لقد سبق ان حدثتك عنه ..

ــ اننى لم أتذكر !

ــ اعلمى اذن ياعزيزتى لور انه لا يقال : « اننى لم اتذكر » ، بل : « اننى لم أعد أذكر » !..

ــ ولـكن هذا طويل !

ــ نعم هو طويل ، ولـكن معرفة اللغة تتطلب وقتا اطول من جهلها . والجهل أطول وأصـعب ، والارادة تفرض الزمن ، الزمن الطويل .. والعناد يقضى بطول الصبر .. والأمل يتطلب طول البال .. وهـذا هو موضوع كتابى « فى الارادة » ..

ــ أكتبته بدل واجباتك ؟

ــ بالتأكيد !.. وكان فى درجى .. وكنت احبه !.. وكان قلبى يثب أثناء كتابته .. وكنت ياصغيرتى عند

وضعه فى سن « بسكال » الفيلسوف حينما اكتشف بمفرده الرياضيات كلها .. وفى اليوم الذى اخذ مني الأب هوجول كتابى فكرت فيك وفى أبى وأمى ، وقلت : « لن أراهم بعد الآن أبدا ! » ، فقد اردت ان اموت.. أم لما اشتد بى المرض ، وجاءت امى لتأخذنى ، ودعت جميع الآباء المعلمين ، ماخلاه ، فلم اقرئه السلام .. وعندما تكون فى الجنة ، ويكون هو فى النار ، سأطلب الى الله ، بعد ذلك ، لا قبل ذلك ، أن يغفر له ..

وهو يعد أخته الصغيرة ، لأنه يحبها ، بأن تكون فى الصف الاول ، يوم تكريمه حين يصير عظيما !..

وسمعا صوت المدموازيل يدعوهما الى العشاء . وكانت مدام بلزاك ، تنتظر ، بلا حراك ، فى صحن السلم . فنظرت الى اونوريه بعينها الزرقاء المثلجة . فلزم الصمت ، ودخل قاعة الطعام هادئا .. وكانت القاعة من طراز لويس الخامس عشر ، بوفيهاتها الغالية من خشب السنديان ، تعبر نقوشها عن يد صناع يحب الفن ، والنساء ، والدقة ، والصفاء .. وكانت تلمع كأرضية القاعة .. وكان كل ما فيها يفوح بعبق الطعام الشهى ، والحديث الشجى ..

ووجه الأب سؤالا :

ـ لماذا ترتدى هذه الطفلة دائما هذه القلنسوة العالية ؟

وكان السؤال مقصودا به لور ، فاحمرت.. وجازف اونوريه بقوله :

ـ انى أرى الصغيرة ظريفة بهذه الريشة المرفوعة فوق رأسها ..

فصاحت أمه : « صه ! »

وقالت جدته : « اننا لا نسألك رأيك ! »

وقرنت لومها بنظرة الاستياء ، ارضاء لبنتها . ثم قبلت اونوريه فجأة فى عنقه !

وجلسوا الى الطعام ، وكانت مدام بلزاك قد صففت شعرها بعناية فائقة ، وعقدت حول جيدها شريطا رفيعا من الحرير الاصفر ، تدلت ربطته فوق نحرها ، منسجمة مع حزامها . وكانت جميلة اليدين ، تشرب الحساء بحركة عصبية ، وتضع أنفها الدقيق فى صحنها .. وكان المسيو بلزاك يبسم كما لو كان يحلم ، ويأكل ببطء ، ثم يلتهم ، فجأة ، ما أمامه مغتبطا. وكان ينظر دائما نحو النافذة ، ولا ينظر قط نحو حماته . وكان شيخا مدهشا فى السابعة والستين ، يحكم من يراه بأنه لايزيد على الخمسين ، الى جانبه زوجته الشابة فى زهرة سنيها الثلاثين .. وكانت قوته موروثة عن أب فلاح صلب كخشب السنديان. وكانت للمسيو بلزاك متانة عضلاته ، ورخامة لهجته . وكان اذ يزعم ذووه انه يتعشى بينهم ، يكون فى الحقيقة قد سافر الى عوالم خياله ، يشيدها على أسس جديدة .

وصاحت الأم فى الولد :

ــ أفلا تكف يا اونوريه عن التدحرج تحت المائدة كالجحش فى البرية ؟.. ان رأيتك تكرر ذلك أبعدتك الى فراشك بالخبز القفار !

وهكذا أقسمت الأم التى لا تعرف كيف تخلق الهناء من حولها ، ولا ترى أن وجه صغيرها يشرق بطبيعة غنية حيوية . وكذلك الأب لم يكن يتبين ذلك . فهو بدل ان يلحظ عياله يضرب فى بيداء خياله. وكانت تتكرر هذه المشاحنات بين زوجين هما على طرفى نقيض .. عمرك الله كيف يلتقيان ؟ ! فلم يلحظا لا هى بلمسها الحقائق ، ولا هو من عالم الهواجس ــ انهما قد أنجبا

معا ولدا فنانا ، تدب قدماه فى الارض ويرتفع راسه نحو السماء . أنه ولدهما ، عقلهما ولحمهما .. ومع ذلك بدوا ثلاثتهم كما لو كانوا أبعد ما يكونون بعضهم عن بعض ، كما لو كان ثلاثتهم من الاجانب الغرباء .

وتخرج الأم من غرفتها حيث كانت تقرأ فلسفة « سويدنبورج » .. والأب فى مكتبه يدرس فى التوراة طول الحياة البشرية .. والجدة الشهمة تقضى ساعة فى المطبخ تعنف الطاهية المسكينة .. ولا يدور على المائدة حديث . فاذا قال الاطفال لأبيهم ان الناس فى الشوارع يعلنون نبأ انتصار حربى ، تنهدت مدام بلزاك قائلة ان هذا النبأ يدل على الوف الجنود القتلى !.. فيؤكد زوجها أن بين القتلى جرحى سوف يشفون !.. أما القتلى فسيورثون أحذيتهم للذين هم بلا أحذية .. ويضفون على العراة سترهم !.. فتتأفف الحماة من قول صهرها الذى يشبه ما يقوله القسس الحمقى : « أليس بعد هؤلاء القتلى سيكون الشهداء السعداء عند الله ؟ ! » فظل لا ينظر اليها ، ويبسم ، وينقر على المائدة ، وأبى ان يتناول اللحم ، قائلا : « ان أكله ليلا يسبب الارق ويسمم الانسجة » .. فتتمرمر زوجته قائلة :

ـ اسمعوا الخبر الاول من نوعه !.. انك كنت تقول بعكس ذلك تماما منذ شهرين .. لله ما أعجب نزواتك !

ـ ذلك لأننى قد تربيت على لبن الماعز !..

ويسمع نباح كلب . فتقول الصغيرة لورانس :

ـ انه الكلب الكبير الذى يثب دائما على !

فينذرها أبوها : « لقد حذرتك مئة مرة من الدنو من الكلاب !.. فالكلاب حيوانات خطرة لا يؤمن جانبها » .

فتسأل الجدة بنتها بلهجة المتهكم : « ترى كم نسخة بيعت من « تاريخ الكلب » الذى وضعه زوجك منذ ثلاث سنوات » !

فيقول مسيو بلزاك : « مليون ونصف مليون ! » ..

وينهض ضاحكا ، مما خيل معه لاونوريه انه يستطيع الاشتراك فى الضحك .. فتنهره جدته : « يا قليل الادب !.. اذهب الى فراشك »

ففكر اونوريه : « رباه !. رباه !.. أين من يحبنى ؟ ومن على ان أحب ؟ »

وشعر بحزن يشق عليه ، وانه بحاجة الى من يبثه ما فى نفسه !.. أب وأم !.. لقد طالما قرأ فى الكتب انه ليس فى هذه الدنيا أقدس من الوالدين. فلماذا اذن يخشى جانب تلك التى يدعوها « أماه » ؟ ولماذا تراه ، وأبوه على ما هو عليه من معرفة ، ومن احاطة ومن فصاحة ، وأبوه عنده أجل من عرف من الرجال ، لماذا لا يجرؤ على ان يروى له ما أصاب كتيبه « فى الارادة ؟.. ولماذا يارب فى بلاد يجرى فيها نهر عظيم ، وتقوم فيها كنيسة رائعة ، وفيها كل هذه الآيات والصور البينات ، ويحكمهاعاهل جليل القدر ، لماذا لا يسعد الناس جميعا ؟

ونادت « المدموازيل » الاطفال ، لتغسل لهم وجوههم وأيديهم .. وبعد الصلاة يدخل اونوريه غرفته ، وتلحق به أخته جريا ، فيتحدثان ، فتظهر أمهما على العتبة تنذر اونوريه بالضرب اذا ظل يتكلم .. ونفخت المربية الشمعة ، فساد الظلام ، وانصرفت .. وأونوريه لايأتيه النوم ، فهو : يتثاءب ، ويتضجر.. يريد : ان يجرى ، وان يعمل ، وان يقرأ ، وان يكتب ، وان يتشاجر، وان ينتصر ، وان يحب ، وان يبكى ، وان يفعل أشياء عدة

جليلة وجميلة ، كالابطال او القديسين .. ويظل يتقلب في فراشه ، ويتقلب .. وتقول لور :

ـ او .. نو .. ريه ! ..

ـ ماذا تريدين ؟

فتضحك الصغيرة ضحكا عاليا ، وتقول :

ـ أما زلت تطمح الى ان تكون عظيما

فيفتح البـاب كهبة الريح . وتبدو أمهما وفى يدها شمعة . وتسأل غاضبة :

ـ من الذى صاح ؟

فيجلس فى سريره ، وقد انتفش شعره كالادغال ، ويحدق فى لهب الشمعة بعينيه النجلاوين ، ويجيب : « أنا » !..

فتصفعه أمه صفعتين ، وتخرج .. فتتأثر لور ، وتكاد تبكى من أجله ، وتزفر .. وتعض غطاء فراشها تخلصا من نحيبها .. وتسأله :

ـ لماذا قلت ذلك ، مادمت .. ؟ .. وهل احسست بالم شديد ؟

فيرد عليها اونوريه مباهيا :

ـ لم أحس شيئا !

وعندئذ يمتلىء قلب الصغيرة : ألما ، واعجابا .. وتقول بصوت لا نظير له ، فى رجفة وحنان ، يتجلى فيهما كل نقاء سنيها الاحدى عشرة :

ـ اننى ، كذلك ، واثقة من أنك ستكون رجلا عظيما !

— ٢ —

بعـد عام مر بنا ، عين المسيو بلزاك بادارة المهمات الحربية فى باريس . وفى عشـية السفر راح اونوريه يمثل لاخوته ، بطريقته التى لاتجارى، مهزلة يستعرض فيها كل الوجوه التى عرفوها فى مدينة تور ، ويودعها وداعا ساخرا ..

وعرف الاولاد لذة الانتقال ، والسفر ، وسكنى بيت جديد فى تلك المدينة التى كانوا يجهلونها ، المدينة العظيمة ذات الاسم الرنان !.. وشعر اونوريه بالفخر والـكبرياء اذ أصبح من ساكنى تلك المدينة الساحرة ..

ومع ذلك كان الطريق لايزال أمامه طويلا حتى يصبح باريسيا عريقا . فأدخلته أمه ، غداة وصولهم ، مدرسة داخلية ، بشارع سان لويس . فظل ثمانية أيام عاجزا عن الاصغاء الى شىء غير مخيلته . وكان رأسه يشتعل شوقا لرؤية : نوتردام ، واللوفر ، والتويلرى ، وأين يسكن الامبراطور ؟ وأين فصلوا راس الملك على المقصلة (الجيوتين) ؟.. لقد بدأ عهدا جديدا ، كله : حماسة ، وثوران ، وكله : انجذاب ، وافتتان ..

الحلفاء فى العاصمة . عودة لويس الثالث عشر . المئة يوم . ووترلو . الردة .. يا لها من ساعات مثيرة ، تلك التى ستعيشها تلك النفس الفتية ، الباحثة عن معنى

الحياة ومصير الوطن ! عهد قلق وتزعزع ، ينشد فيه كل امرىء استعادة توازنه . فخطر لأونوريه ان لديهم فاتحا عظيما ، فلا بد لهم الآن من مفكرين عظام ، من عقول تعطي الشعب افكارا وقوانين .. وسلك نفسه فى عداد هؤلاء « الموعودين » !..

وكان اونوريه ملكيا ، على شاكلة ناظر مدرسته المسيو لبيتر . ولكنه كان يرى رأى أبيه القائل بأنه منذ الثورة يحق لكل انسان ان يطمح الى المجد ، بتكريس نفسه لخدمة بلاده ، مهما يكن وضيع المنبت ، رقيق الحال !.

وقضى عاما فى مدرسة المسيو لبيتر، وعاما مثله فى مدرسة أخرى، ثم عامين عجيبين، سريعين كأنهما ربيع، التحق فيهما بمدرسة الحقوق ، متظاهرا بأنه يعمل كاتبا فى مكتب الاستاذ « جيونيه دى برفيل » .. وكان يذرع فيهما باريس الشاسعة من أقصاها الىأقصاها ، وتعلم خلالهما الرقص ، وتابع بشغف دروس السوربون

هذا هو تاريخه حتى سن العشرين . وكان يتملكه ويسيطر عليه قلق ملح ، ورغبة جانحة : « حذار حذار أن نضيع الوقت ! »

وعندما زعموا انه يتنزه ، وانه يتجول، وانه يعبث ، وانه يحلم ، كان يؤدى ما ينبغى له : ينظر، ويدرك ، وينظم حياته . واذا كان يجلس ساهيا فى محاضرات الحقول : فذلك لتمييزه ما لاينفع قصده ، ويخدم غرضه ، الذى كان جليلا لا ضئيلا .. فلما كان يضرب فى أنحاء باريس ، مدفوعا باعجابه بما يراه ، كان يبحث عن الامس ، عن الماضى الغابر ، ويعجب به ، ويمجده ، ويحييه ، لانه هو الذى سيلهمه المجد فى المستقبل . ولكن ، هل كان يتثاءب فى الدرس ؟ هل كان يهرب

منه بلا عذر ؟ ذلك أن مهنة « كاتب محام » الصغيرة ، التى فيها ينسخ ، ويسجل ، ويرتب الملفات والاضابير، تقتل فيه ذلك الميل العظيم للخلق والابداع ! فهو يخشى على روحه التلف . وباريس هى مهبط الوحى ، ومصدر الالهام ، الحوادث فيها هى ذروة التاريخ ، وحاضرها هو أجمل ما فى الحضارة ، ونساؤها هن أجمل نساء الارض وأشدهن فتنة ، ورجالها هم أشهر الرجال ..
وكان اذا ما نظر بعين نهمة الى المركبات تمر فى الشانزليزيه ، حاملة اشتاتا من كل الطبقات ، ناقش احوال الحياة الاجتماعية ، وقارن أوضاعها واحكامها بعضها ببعض ، فيسأل الترف عن أسبابه : « هؤلاء النسوة الجميلات ، الشائقات ، الفاتنات كل هذه الفتنة، لمن هن ؟ من الذى يستحقهن ؟ » .. ولم تكن الافكار الخسيسة لتخطر له فى بال .. فكان اذا ما رأى نفسه، سلفا ، بعين الخيال ، فى احدى المركبات الى جانب واحدة من هؤلاء الحسان ، فذلك لن يكون ، أو يبذل جهدا نبيلا ، يهيىء له الشهرة ، ثم يتيح له الحب ، جزاء وفاقا ..
يا نساء باريس ، ما أشبهكن بالشهب فى العينين العاشقتين ، عينى هذا الريفى الصغير ، المهتز حرارة وحيوية !.. انه يعجب بكن اعجابا مقدسا . انكن تلهبنه بشعلة من الشعر . فلا يخاف ، ولا يحزن ، الا اذا ما عاد الى البيت أدراجه ، لانه لا يلبث ان يلقى اخواته الظريفات ، أولئك الريفيات اللواتى كن يمثلن عنده — منذ بضعة شهور سلفت — شباب الدنيا وجمالها ، وقد أصبحن ، الآن ، فى نظره غشيمات ، قليلات الخبرة بفن الطهى ، قديمات الزى ! فالقدم ، واليد ، والحركة والزينة فيهن ، لم يعد لها عند اونوريه تلك الحمية

الشعرية ، التى تحوط بالفتنة المرأة الباريسية الانيقة. الطليقة .. وهو قاس عندما تتهافت أخواته الصغيرات على رؤيته ، مبهورات ، اذ يلبسن جواربه الحريرية ، وينتعل حذاءه اللامع ، ليذهب ليرقص فى حفلة الاوديون .. فيقول :

— وربى انكن لم ترين من الحياة شيئا ، فقط

وكان من حسن طالعه انهن لم يرينه ، بعد ذلك بساعة، وهو يسقط أرضا ، مع راقصته ! فما كان ليغفر لهن قط رؤيته على تلك الحال .. ومع ذلك ، أتراهن كن يضحكن منه ذلك الضحك الخبيث الذى أرسلته الباريسيات الساخرات ؟ لقد أحس حمرة الخجل ، وحملته الانفة ، وازدهاه الكبر ، فأقسم لنفسه فى الطريق ، وهو يلوح لاعمدة التياترو بقبضته : « تالله لاسودن الدنيا بشىء آخر غير الرقص ! »

وفى اليوم التالى ، يقضى ثلاث ساعات على رصفة السين ، ورأسه فى صناديق الكتب المعروضة . لقد عاد فأصيب بسعار المطالعة . وبدت له الدنيا شريرة ، فى حين ان الكتب هى الخيرة الكريمة . فما ان يفتح كتابا قديما حتى يحن قلبه ، ولا يقفله حتى يحس انه أغنى مما كان ، ولا سيما على شاطىء السين ، أمام اللوفر ونوتردام !.. ويخفق فؤاده لهذه الصحبة !.. وعندما يكون الكتاب ضخم الحجم ، رخيص الثمن ، يشتريه .. وهكذا لم يعد فى غرفته موضع لقدم !.. ويئست أمه من تنظيفها . ولكنه لايستطيع دفع رغبته فى التعلم .. وكل ما يقرأه يثيره : التاريخ ، والآداب ، والعلوم . وكان مفتونا بمحاضرات السوربون ، يذهب اليها من تلقاء نفسه !.. فيا للساعات الشائقة ! انه يعجب ويغبط بمجامع قلبه أولئك الرجال الذين يلقون

فى قاعات دافئة بمن تغص بهم من نســاء وطـلاب ـ بأصوات ملهبة ، دروسا ممتعة فى العباقرة وأعمالهم .
وهاهو ذا يصغى الى الاستاذ « كوزان » اذ يتحدث الى طلاب الحى اللاتينى فى الحق ، وفى الجمال ، وفى الخير . .
ويفتن بسماع « فيلمان » ـ الذى أعطوه فى الثـامنة والعشرين كرسى الفصاحة الفرنسية ، فى السن التى تتدفق فيها الفصاحة . . وهو فخور، سعيد بكرسيه ، يرسم القرن الثامن عشر ـ واونوريه يصغى ، ويرى ، ويؤمن . . الى حد انه ، بعدما انتهى الدرس يوما ، ورن التصفيق ، خيل اليه انه المقصود بهذا التصفيق ! وتصور نفسه على مقعد التدريس ، وانه هو الذى خطب خطبة عصماء . . وبينا كان يصـفق كالآخرين لهـذا الاستاذ الساحر ، تابع حلمه ، وابتسم ، واحنى رأسه للحاضرين شاكرا ! . .
هذه التأثرات العميقة فى نفسه الصبية قد احتفظ بها سرا . . فلمن يفضى بها ؟ . . انه ساذج ، ولـكن ليس الى هذا الحد . . ولو فعل لـكان أبوه أول من يسخر منه ، وأمه تعده مجنونا ، واخواته لايفهمن ، وأخوه فى أذيال امه . . وليس غير الآنسة «دى رودجمون» العانس ، التى هى من طراز عتيق ، عتيق ، تلبس ما خلعه الناس من زمن ، وتستند الى « عصا ـ مظلة » مثل « مارى انطوانيت » فى قصر التريانون ، وتتنشق فى أنفها المدبب سعوطا من علبة ذهبية . . وكانت كثيرة التردد على مدام بلزاك ، فلا تكاد ترى أونوريه ، حتى تقول :
ـ آه ! . . انى أرى فى عينى هذا الفتى انه سيسألنى عما اذا كنت قد عرفت الـكاتب « بومارشـيه » . .
لقد عرفته قليلا . .

فيسألها اونوريه : « وهل كان وقحا مثل بطل قصته « فيجارو » ؟ »

ـ انه فيجارو نفسه !.. فقد رسم فى تلك القصة ذاته . ان الكاتب العظيم يرسم نفسه دائما !

ـ ما ادق ما تقولين ، أيتها الآنسة ، وما أرقه !..

فاحمر وجه الآنسة دى رودجمون سرورا بثناء اونوريه عليها .. وقالت :

ـ لا ادرى اذا ما كان فيما أقول دقة أو رقة ، وانما أدرى ان صنعة الكتابة تتطلب من صاحبها ان يكون أغنى من الآخرين .. لابد له من ان يطوى تحت جناحيه الآخرين جميعا ..

فهز راسه موافقا : « هذا حق .. هذا حق » .. وبصوت منخفض قال : « سأكون أغنى منهم » !

وكان من أشد المعجبين بالكاتب « بومارشيه » .. يا له من رجل!.. يلابس الشيطان! ويصنع كل شيء . حتى الروائع يكتبها وهو يمزح ، ويلقى بالكلمات كما تلقى السماء بالبرق .. وهو ساعاتى ، وموسيقار ، وبائع بنادق ، ومحام ، ومؤلف مسرحى !.. ذلك ان الفن التمثيلى هو من أشد ما يجذب فتى يريد أن يسود بالفكر . اى سلطان على الجماهير ، ذاك الذى يجعل القصة تضحكهم وتبكيهم ؟!

وكان كثير التردد على « التيـــــــاترو الفرنسى » (الكوميدى) . وهو المسرح الوحيد الذى يعرض آيات التمثيل . وليس وراءه وقت يضيعه فى سواه . فهو يقف فى الصف الطويل المنتظر أمام شباك التذاكر مصغيا الى أحاديث هواة « أعلى التياترو » ، فيتعلم ما يحبه الشعب فى بساطته واستقامته . ويعود دامع العينين . وأصوات الهتاف فى الصالة ما زالت تدوى

فى أذنيه . الحق انه ما من شىء يؤثر فيه مثل هـذا المجد المسرحى . فالثراء الذى يراه فى الشانزلبزيه ، ونبالة الـكتب التى تلهب رأسه بنار المعرفة ، عنـدما يأوى ليلا الى غرفته ، وبشعل سرا شمعته ، ودروس السوربون المتعة ، التى تغذيه وتطربه ، لا شىء من هذا كله يمنح روحه جناحين ، لا شىء فى باريس يجتـذبه ويغريه مثل فكرة التـأليف المسرحى . سوفوكليس ، شكسبير ، موليير ، الامجاد العظمى !..كورنيل ، سيد الـكتاب !.. وهو يضيف الى هذه الاسماء الـكبرى اسم : « اونوريه بلزاك » ، يراه يتبعها وبلاحقهـا ، مسجلا اسمه ورسمه على شرفات تيـاتروا باريس ، العاصمة ، أى : الرأس ، والفكر .. باريس التى تحدد رغباته ، وتعبر عنها ، وتصنع منه رجـلا معتزما ان يصبح مشرف أسرته .

وحملته هذه الفكرة الاخيرة على أجنحتها ، وحلقت به . وانتهز بقلق الظافرين فرصة سعيدة يفضى فيها لأبيه بقوله : « سأجعلك يا أبت العزيز عظيما ! » . ولـكن المسيو بلزاك كان فى الوقت نفسـه يعد لولده مركزا من طراز آخر ، مركزا حرا تكسب فيه اونوريه حيـاته كسبا مكفولا ، موفور الرزق . فان هذا الرجل الغريب الطباع . بعدما كان مستقل الرأى ، قد قضى ثلاثين عاما فى وظائف الحكومة ، فأحب التهـاون وعدم المبالاة اللذين تضيفهما الادارة على النفوس . فالموظف ، فى غير دائرة مكتبه ، يستطيع ان يفكر ويتأمل ويبتكر . ولـكن من سوء طالعه انه مضطر فى الصباح التالى الى العودة الى وظيفته ، أى الى « الروتين » والخضـوع لأشـخاص تافهين .. فرأى مسيو بلزاك « أن هـذا لايطاق ولا يحتمل » ، ومع ذلك تحمله دهرا طويلا ..

وهذا هو ما حمله على اعداد مكتب خاص لولده ، ليكون « مسجلا للعقود » ! فقد طالما أجب ذلك : ان يكون أستاذا ، سيد نفسه ، يقف كتبته بين يديه ، وبأيديهم الملفات ، يقرأون له ، ويكتبون باملائه . وقصارى القول انه يريد لولده المسرات التى حرم هو منها ، وتوقع من اونوريه ان يقر بهذا المشروع عينا ، ويعترف بجميل أبيه .

وهكذا نجد كلا منهما يعد من جانبه العدة لهناء الآخر ، وكلاهما يألم ان هذا الهناء ليس قاب قوسين أو أدنى .. ثم سنحت الفرصة فجأة ، ولم تكن منتظرة . فقد وجد مسيو بلزاك ولده يقرأ « رابليه » ، فقال له :

ـ ياله من عقل كبيرا ! أليس كذلك ؟ يالها من حرية عظيمة يا اونوريه !

كانت هذه الكلمات كافية لربط قلبيهما .. وأضاف أبوه :

ـ لا شيء أشهى من ذلك ..

ـ أليس كذلك يا أبت ؟..

ـ ولى فى هذا الشأن كلام معك .. فها انت ذا قد بلغت طور الرجال ..

وسمع اونوريه ما اعتزمه له أبوه ، كارها مستنكرا .. وبثه ما فى نفسه من رجاء فى الكتابة والشهرة عن طريق القلم .. فلما عارضه الشيخ غاضبا ، نطق اونوريه بهذه الكلمة السامية : « أتريدنى مسجلا للعقود ؟ !.. شيء لا أفهمه !.. اعرف انه فى الامكان ان يكون المرء قائدا عظيما ، أو شاعرا عظيما ، أو سياسيا عظيما .. وانى لراغب فى مثل هذه المهن .. ولكنى لا أرى مسجلين للعقود عظاما !.. أبدا !..

وانى لأحتقر صناعة لايمكن للمرء ان يكون فيها عظيما »

ـ آه !.. اذن فالسيد الشاب يريد أن يكون فولتير أو روسو ؟ !

ـ وهل كان ابواهما أوفر منك يا أبى ذكاء ؟ !

وسمع هنرى ، شقيق اونوريه ، هـــذا النقاش مصادفة ، فحمله الى أمه . فزادت هذه فيما بين الوالد وولده من الضيق والحرج . فهــل ينوى اونوريه ان يقتلها من الحزن ؟ أم تبادر هى فتقتله خشــبة الخيبة والفشل ؟ وحدث ، فى فورة من فورات غضبها ، أن وقعت ، واصيبت ركبتها ، فعاد الســلام المؤقت الى البيت ، واونوريه فى بحران من الصمت الاليم .

كثيرا ما تكون الأمهات على غير هدى . ولكنهن بهذا الضلال من تصـــورهن يؤثرن فى أولادهن وبنفعنهم . فقلوبهن لا تعرف السلام ولا عدم الاهتمام . وهن من شدة غيرتهن وهياجهن يزدن النار استعارا .. وهـذا الاستعار خير من جمود الصمت وجـدب الاصطبار . وسيحدث ان حياة بلزاك تتغير تغيرا تاما . فاذا كان الأب يتعجل اشتغال ولده الـكبير ، فذلك لانه لا يلبث ان يحال الى المعاش . وهـذه الاحالة معناها خسارة فادحة لدخل الأسرة ، اذ تنقص ميزانيتهـــا الوف الفرنكات . فضلا عن انه لابد من تزويج البنات ودفع مهورهن . وهو ما يقلب النفقات والعادات رأسا على عقب . واستطاع الأب ان يجد بيتا فى «فيلباريزيس» على بعد ستة فراسخ من باريس . والى هناك تنقل الأسرة أثاثها مستغنية عن خادم ، مقترة على نفسها فى الانفاق ، بعد ما كانت لا تحسب للبس والطعام حسابا .. فقد كانت الأم وبناتها ـ رغم رأى أونوريه ـ من المتأنقات المتحذلقات . وكان الأب من المشغوفين بألوان

النيئة الغنية بالفيتامينات والوان الطعام الناضجة .. وقد آن الوقت لاختزال هذا كله . ولن يشعر احد منهم بهذا كما شعر الولد ، أونوريه ، الذى هو عندهم متعصب ، عنيد ، راكب رأسه ! لأنه لن يرضخ للذهاب الى فيلباريزيس ، فيسبب بذلك خراب الأسرة .. اذ ماذا يفعل فى باريس غير انفاق المال ؟..

هذه هى أقوال الأم . اما الأب فلزم الصمت . فهو يحب الحرية ، بل ويحب الادب ، بحيث لن يقابل بالعنف رغبة ولده ، وان كان لا يخفى ضيقه منه ، وانصرافه عنه .. وظل يتحرى حلا حتى وجده على مضض ، وعهد به الى الأم الساخطة التى حملته الى اونوريه كعقاب له .. ولكن اونوريه بعيش ، كوالده ، بالمخيلة : غرفة سطح فى باريس ! الف وخمسمائة فرنك (٦٠ جنيها سنويا) للعيش !.. هذا هو الخلاص !.. هذا هو الهناء !.. ولو انه كان - عند والدته - هو الاستشهاد ، فأونوريه لايخشى الاستشهاد . فهو يكاد يحب البؤس ، ضريبة المجد .. فان للعظمة أيضا أتاوتها !.. فأجاب أمه بجفاء بأنه يقبل .. مع اعترافه بالجميل !.. والويل له اذا ندم على كلمته الأخيرة هذه .. فهو فى ذروة أحلامه !.. وهو يتعجل العيش وحده .. عشرون عاما ، سن القوة !.. حياته ككاتب : شجاعة ، وجرأة ، وعبقرية .. هذا ما ينبغى له . وفى باريس ، سيلقى هذا كله .

وكانت ساعة مشهودة ، من اغسطس ١٨١٩ ، فى حمارة القيظ ، تلك التى سكن فيها عشة سطح بشارع « لديجيير » ، على خطوتين من فوبورسانت انطوان ، بعد ما حملوا اليه ، على عربة يد ، أثاثا رخيصا ، وحقيبة ملابس ، ورزما من الورق والكتب .. وقد

عانقته أمه ، فى جو من التراب ، عناقا أخيرا ، قائلة له، وكأنما تتحداه : « ها أنت ذا ياصاحبى !.. فاكتب آيات بينات !.. ولا تنس انه فى هذه الصناعة لايوجد بين بين .. فاما ان تكون ملكا متوجا ، واما ان تكون صعلوكا ذليلا ! » ..

وبدا الاضطراب على لور ، فالتفت اونوريه نحوها ، وقال متبسطا :

— لا تضطربى ياحبيبتى لور .. سأكون ملكا !..

ثم غالب نفسه وسأل : « أين أبى ؟..».. اختفى.. لم يره أحد .. فمضى اونوريه لطيته .. كليم القلب. غير ان حركة المارة فى الشارع قد ألهته . فأحس بغتة بقوة الاسد الرئبال ، اذ دخل غرفته . وأعد بنفسه منضدته ، ليكتب علبها ، ويكون شهيرا واياها !.. وجعلها قبالة الكوة التى ينحدر منها شعاع الشمس الذهبى ، الشعاع النارى .. وخلع سترته ، والقاها ارضا ، وفتح قميصه ، وشمر عن ساعديه ، وضحك وهو يخبط على المنضدة :

— اليك !.. انت وأنا !.. والايام بينهم وبيننا!..

ويذكر فجأة ان هذه الجملة ، قد سبق له ان قالها وهو صبى فى مدرسة فندوم ، عندما سخر منه رفاقه. اذن فهو لم يتغير . وهى فكرة قديمة يحققها. فصدرت منه صيحات الفرح . ورآه الحمال هكذا ، فقال : «هاهو ذا فتى سعيد ! » .

— بل سعيد بجنون !.. ضع هذه الرزم هناك !.. موليير ، وكورنيل !.. حسنا !.. وهذه عدة القهوة !.. حسنا جدا !.. سنضع كل شىء مكانه . واكون مركز كل شىء ! .. أتفهم أنت معنى الأن نكون للناس بيوت فسيحة وقصور منيفة ؟ !. هنا كل شىء فى متناول

اليد : المائدة ، والسرير ، والكرسى ، ورف الكتب !..
حياة انسانية متراكمة ، مركزة ، مبسوطة الى الحد الواجب ، لا أكثر ولا أقل!.. وان « كوزان » ، مسيو كوزان ، الاستاذ بالسوربون ، سوف يدخل هنا ، ويرى ويقول : « انى أتنبأ بما سوف تتمخض عنه هذه الحجرة » !..

ووقف الحمال مبهوتا .. فصاح به اونوريه : « انزل ياصديقى واحضر الباقى ! » .

ورتب غرفته ، وهو يرقص ويغنى . وكانت غرفة حقيرة ، فى بيت عمال ، رآه فى الشمس ، فطاب له ، وصادف هوى من نفسه. وكانت الغرفة مجردة ، ضيقة ، معوجة . وها هو ذا فيها مع أوراقه وارادته . وبدت له الحياة جميلة .

وكان قد حمل كل ماسوده منذ طفولته من شعر ونثر . فأعاد قراءته ، وابتسم ، ورتبه . وعلق الصور على الحيطان ، وملأ دواته حبراً ، وأعد ريشتين جديدتين ، واحس انه يبدأ شيئا فريدا .

ترى ، أهناك شاب سواه قدر هكذا على ان يعتزل الدنيا بأفراحها ، وينقطع لعمل عظيم ؟ آه !.. انه يعرف الشبان !.. انهم جميعا عشاق مسرات وملذات .. وكأنى بهذه الشبيبة لبست الا رمادا تذروه الرياح بعد هذا العصر النارى الذى عاشوه .. الله له ! هو الذى يحس كل هذه الرغبات والأمانى !..

وبدأ يكتب خطابا الى اخته يعبر لها فيه عن أفراحه جميعا. ولم يكن يقدر انه قد بدأ نضالا عنيفا هو مأساة الشباب عندما يكونون مترفعين ، طموحين ، متعجلين..
وكان يتعجل اقامة الدليل لأسرته على كفايته . ولكن الشباب يريد ولا يقدر . يحس لنفسه جناحين ، ولكنهما

ليسا من القوة بحيث يطير بهما .. انه يحلق ، فيسقط. وها هو ذا اونوريه يعلن : « أريد ان أكتب ! » .. ويحتل غرفته .. ويزعم نفسه سعيدا .. ويمسك بريشته.. ولا يدرى ما يفعل بها .. ذلك ان الارادة وحدها ، فى سن العشرين ، تكون غنية ، والقلب وحده يفيض بدم كريم.. بيد ان العقل فقير ، أذ لايمكن ان تغنيه الا الحياة ، بما فيها من ثقافة ، وتجربة ، وخبرة ..

وعاد اونوريه فاستغرق فى المطالعة : بومارشيه ، موليير ، فولتير ، روسو .. فيا للأفكار التى تتطاير كالشرر فى راسه !.. لكن الشرر قصير العمر. فتوهم ان النار ناره . وكانت نار رجال عباقرة . فلم يستطع الاحتفاظ بها . ومع ذلك كهربته . فوضع فى ثلاثة أيام قصة عنوانها : « Coqsigrue » ، اوبرا كوميك شعرية فى فصل واحد .. ثم عاد فانطوى تحت كتبه . وعادت اليه الافكار خفافا سراعا ، قصيرة المدى دائما ، وان كانت دائما براقة .. وكذلك عاش بضعة أيام فى حميا الاوهام ..

وكان قد انتهى من قراءة مجلدين بقلم فيلمان عن « كرومويل » ، فأوحيا اليه كتابة درامة نبيلة ، اى شعرية ، ورآها بعين خياله وآماله تمثل على مسرح الكوميدى فرانسيز .. وظل يضع لها تصميما بعد تصميم.. مصغيا الى لغط البيت ، والى ضجيج المدينة البعيد .. كيف كان كرومويل ؟ أو شارلَ الاول ؟ كيف كان يفكر هؤلاء الرجال ؟ وكيف كانوا يعملون ؟.. لقد اغمض اونوريه عينيه ، وراح ينادى أرواح أبطاله . ثم لما شعر بأن فى رأسه دخانا كثيرا ، ولهبا قليلا ، كتب الى اخته لور خطابا فياضا بالحياة ، والفكر ، والطيبة ، وكلَّ تلك المواهب التي تكفلَ كتابة آية من الروائع ،

والتى مع ذلك نهرب منـــه ، كما يهرب المـــاء من بين الاصابع ، كلما أراد ان يسخرها فى كتابة مأساته الشعرية

وضاق ذرعا بفصته التى لا تـكتب على مكتبه . لقد كان بحاجة الى تحليل الألم . فأين يدرسه ؟ قال لنفسه: « سأجد ذلك فى مقبرة بيرلاشيز ! » .. وحمل قبعته. وهرب من حجـــرته . وخـــرج على أمل.. وعاد على مضض . فما أكثر مارأى فى تلك المقبرة الباريسيـــة من مهازل ! لشد ما يفسد الناس انبل ما فى الحياة ، وهو جلال الموت ! « اذا نحن صدقنا الاحجار ، وشــــــواهد القبور ، كانت كل النساء مخلصات ، وكل الأمهـــــات معبودات ، وكل الابناء أولادا حلالا !.. ثم لا يكون هناك الا قصابون أمناء ، ومحامون شرفاء ، وجنود بسلاء !».

وعاد الى غرفته . وعاد الى « كرومويل » . وعادت باريس تجتذبه اليها . فهل كان على حق فى اختيار درامة تجرى فى انجلترا ، فى القرن السابع عشر ؟ أليس آمن له ان يروى قصة باريسية ؟ !.. لا !.. فلا بد له أولا من ان يدهش العائلة .. ثم ينسج على منوال كورنيـــــل وراسين ، ويسير على دربهما عن قرب.. ففتح قصصهما ليجد نموذجا روحيا . وترنم بأشعاره وهو يتمشى فى بولفار « التامبل » .. ورأى أهل الاناقة ، من كل زوجين اثنين ، يدخلون مطعم « الـكادران بلو » ، الذى لا يقل مايتكلفه الفرد فيه عن جنيهين فى وجبة العشاء !. فقارن جهده بهذا البـــذخ ، وقاس ما يلزمه من أعمال مهولة ليحصل من شق قلمه على مركز أجتماعى يمكنه من مثل هذا الترف الذى لا تستغنى عن ألوانه نفس تريد ان تلحظ وأن تعرف ..

ولما عاد وجد بيته بشعا ، وغرفته مثلجة ، وسريره قذرا .. فالتمس الرقاد ، وعلى لسانه طعم الرماد. ولما

استيقظ قرأ ماكتبه . وكان بدنه هادئا ، وكان روحه باردا . فأدرك انه ، بدلا من تقليد راسين ، كتب مسخا ممجوجا .. فأحس ، مع الشتاء ، بأن نوعا من اليأس الثابت قد حل فيه ، وليس لديه سلاح للمقاومة غير ارادته . وما دام قد اعتزم كتابة « كروموبل » رغم كل شيء ، فسيكتب « كروموبل » غير انه لم يعد يحس انه ملهم .. كان قد انصرف الوحي وانقضى الالهام .. وبقى لعزاء نفسه شعوره بأن النبوغ قد يكون هو الصبر الجميل . فوصف تقاعسه بالجبن . فهل هو هنا فى باريس لينفق مال أبيه ولا يبدع شيئا ؟.. ان كل بداية صعبة ، ولكن لابد من البداية ، وليس حتما عليه أن يبلغ شأو راسين من القصة الاولى . ان أول قصة لراسين ليست بذات شأن يذكر ، وهى مع ذلك لم تحرق ، ولم تذر فى الهواء حروفا !.. وقال لنفسه : « ان المأساة لن تقتلنى ، بل أنا الذى سيأخذ بتلابيبها ويخنقها » !..

وظل على ذلك نحو الشهرين بلا حراك تقريبا . وكاد البرد يجمد أطرافه من قلة الحركة والخروج . وظل صامدا خامدا أمام قصته ، لايكاد يمر من كرسيه الى سريره ، الذى حدث ان قضى فيه أياما برمتها ، ينظم فيه الشعر ، ملقيا بالحبر على أغطيته . ولا يكاد يختم مشهدا حتى يتنفس الصعداء ، ويفرك يديه ، ويضرب كتفيه ، ليجرى الدم فى عروقه ، وليعبر عن رضاه ..

وكان يشكو من البرد الذى سبب له الورم و« القشف » كما فى أيام المدرسة ، ثم من ألم شديد فى أسنانه. ولكنه بلع كل هذه الآلام ، وظل ينظم شعرا !.. فأكسبه التقشف صلابة ، وبرد منه القلب ، وغلظ العقل . وفقد فى وحدته عادة الكلام .. وهو يجر بلا انقطاع أذيال أفكاره الصادفة

والزائفة ، نائها ، كما لو كان فى صحراء ، وسط باريس هذه الغاصة بالناس ، فأصبح « فولتيريا » جافا ، فريشة النظريات الانانية ، التى تحرقه بنارها ، دون ان تدفئه بحرارتها .. وتجعله يسخط علىالمجتمع وعلى الدين.. أفلا يعرف سادتنا القسس معنى النضال من أجل الخير العام ؟ أفلم يروا اذن باريس ، هذه المدينة التنيعة ، حيث الشقاء والترف ، يتحدى أحدهما الآخر ويتصادمان ؟.. لقد تزعزع ايمان اونوريه ، وكان قبل ذلك وطيدا .. ذلك انه قد ساء غذاؤه ، واتسخت ثيابه وكان غنيا بالمطالعة ، فقيرا بالتجاريب ، متمسكا فىأعز معتقداته وأمانيه !..

وظلت غرفته ، خلال شهور، هدفا للشمس والتراب، فأفسدا كل ما فيها ، فاسودت الحيطان ، واصفرت الكتب، وأوحلت الارضية، ولطخت المنضدة ، وانتثرت بقع الحبر فى كل مكان ، وامتلأت أدراجه بقمصان و فانلات ، تكدست فى انتظار غسالة لم تحضر قط ، واختلطت عشرة أزواج من الجوارب وامتلأت بالخروق، وتكورت مناديلهكما لوكان قد مسح بها سقفا . وأخيرا ، لم يعد غير الليل يلقى سدوله فيخفى بؤس هذا الحجر. ولكن اونوريه كان شقيا بائسا كجحره . وكان روحه مظلما كسلم البيت .. وربما كان يكفى لاضاءته ان يعلم بزيارة أبيه لبواب البيت .. ولكنه لم يعلم .. فمنذ وقت الفرقة بينهما حرم المسيو بلزاك على نفسه وعلى أهله ذكر اونوريه . وكان قلبه يفيض حنانا على ولده الغائب ، ولكن كبرياءه كانت تحول بينه وبين اظهار هذا الضعف . فحدث يوما ، اذ مر بباريس ، ان جاء شارع « لديجيير » ، كما لو كان غريبا ، بسأل البواب وزوجه ، فوجد الرجل أبله أبكم ، ووجد زوجته نرثارة :

« آه ياسيدى !.. انه ولد مستقيم ، أشبه بالبنت ! فهو خجول ، لا يفكر فى غير ان يختبىء ويكتب !.. يكتب ماذا ؟ الله أعلم !.. ولا نعرف عن أسرته شيئا ، ولكن عندى ان أباه رجل معتوه ، بلا شك » .. فقال : «ولماذا تحكمين على أبيه بالعته ؟ » قالت : « ذلك انه يترك ولده هكذا فى سجنه الاختيارى ، ولا يسأل عنه !.. ان هناك قتلة ليسوا أشد منه حبسا ! »

وعاد المسيو بلزاك يفكر فى ولده ، ويقول : « ان هذا الصغير ، وقد حكم على نفسه بحياة موحشة كهذه ، خاضع ، بغير شك ، لاستعداد شديد القوى . فلماذا لا أتغلب على نزعة الكرامة المزعومة ، وأصعد الطبقات الست لأعانق صغيرى ؟ »

وجاءته لور بعد العشاء فى ذلك اليوم نفسه تبشره بأن اونوريه قد أنبأها فى رسالة منه بأنه أتم مأساة تمثيلية شعرية .. فتهلل الأب لهذا النبأ .. وطلب لبنته ان تدعوه ليجىء فيقرأ لهم روايته . فبعثت اليه فى الصباح التالى رسالة حارة هاتفة ، لا يقدر على كتابتها الا الاخت الحنون . فاغرورقت عيناه لدى قراءتها ، وأجاب : « انى قادم ! » وبعد خمسة عشر يوما ، وصل ، يوم أحد ، الى فيلباريزيس . وكان منفعلا ، ولم يك سعيدا

آخر ابريل ١٨٢٠ . ريح شمالية ، عاتية ، تهز أشجار الفاكهة المزدهرة ، وما يزال الريف كئيبا ، رغم تلك الزينة البيضاء الوردية .. حزينة ، تلك الطرق الواسعة المرصوفة ، المغروسة بالاشجار القاتمة .. حزينة ، تلك البرية المصبوغة بلون الطين .. حزينة ، تلك القرية ، بمبانيها الكبيرة ، المسطحة ، المصفوفة .. حزينة ، دار بلزاك ، بين حوش لا معنى له ، وبستان لا طابع له .. وحزين ، ولا ريب ، ذلك الاستقبال المعد له ؟.. لا ،

لقد كان الاستقبال حارا ، كريما ، مؤثرا .. قبلته لور، ولورانس .. وربتنا عليه ، وعانقناه .. وقالت الاولى منهما :

ـ انني أدخر لك مفاجأة لم أرد أن أكتب اليك بها.. ذلك انني يا أخي الكبير مخطوبة !..

وتقدمت اليه أمه ، وقبل ان تضع على خده قبلتين صاحت : « أواه ياولدى!.. لشد ما نحفت وذبلت!.. ولابد من ان نعيد بناءك !.. صباح الخير يا اونوريه!.» وها هو ذا مسيو بلزاك يسأله : « ما وراءك من أخبار السياسة ؟. ماذا يقولون في باريس؟.. وهل هم مرتاحون الى الدوق دى ريشليو ؟ » .

ويدخل المسيو سرفيل ، خطيب لور ، وهو مهندس بالطرق والكبارى ، فيقدمان لبعضهما . ويعم الفرح. ويجلس الجميع الى المائدة .. الغداء شهى : بط وحشى، ونبيذ فوفراى الابيض ، لم يكد يشرب منه اونوريه ثلاث كؤوس حتى دفىء قلبه ، وطاب حديثه .. واخواته شائقات .. وخيل لأونوريه ان أباه قد صب لحماته نبيذا قبل ان تسأل شرابا !..

وطلعت الشمس ، وشربوا القهوة ، ودقوا ثلاث دقات، كعلامة المسرح ، منصتين الى « كرومويل.. بقلم اونوريه بلزاك » !.. وبدأ فنانا يقرأ .. ولكن الثمار الموعودة ، ويا للأسف ، لم تكن بعد قد نضجت ، حتى جو المحبة ، والمرح ، والطعام اللذيذ ، والشراب الزكى ، والرضا ، والصفاء الشامل ، حتى هذا كله لم يحل دون فتور الجو من حول اونوريه ، وسقوط ملحمته عند بيتها الثلاثين. واضطرب لدى ذلك صوته وانخفض .. فلماذا ؟.. انه هو نفسه قد فقد فجأة ايمانه !.. انها اذن قصة رديئة ، ولا ريب !.. فشعر بجناحه يهاض ، وانقطعت أنفاسه ،

واحمر وجهه !. وقال غاصـا بريقه : « انها لم تخلق للقراءة .. بل للتمثيل » .

ثم بعد صفحتين قال : « لعلى أحسن صنعا باعطائكم اياها لتقرأوها على مهل » .

ثم بعد صفحة أخرى : « انى لا أريد ان أحول بينكم وبين التنزه ».

وساد الجميع الخجل . وأرادت أخته لور أن تحمله على المضى فى القراءة ، ورجاه خطيبها ، فأبى .. وأصر على الخروج .. فخرجوا .. وكان بلزاك وزوجـه لايستطيعان الحكم صراحة على القصة ، فاكتفى الأب بأن قال ممتعضا : « هل الملحمة كلها من قافية واحدة ؟».. فأجابه اونوريه محزونا : « نعم يا أبت ! »

ولما خرجوا الى الحديقة ، كان صوت خفى لا ينفك يقول لأونوريه : « أسأت .. أسأت ياصديقى.. أسأت حقا » ..

وطفقت البنات يتكلمن فى الزواج القادم : ثيـاب وحلوى ، وأكاليل كنسية .. وكان اونوريه يصغى ، ولا يسمع . وأصبح « كرومويل » نسيا منسيا .

رباه !.. انأحدا فى الاسرة لن يعود فيذكر ذلك قط!. ورأى اليوم الذى كان يحلم به منذ خمسة عشر شـهرا ينهار !.. وانه لانهيار مروع .. ولو كان فى مكانه شخص آخر لبحث عن أسباب للحقد والاتهام. أما هو فانخيبته قد جعلته يشعر بالحقيقة الجارحة ، ويتقبلها .. وكان من الامانة بحيث لا يتهم سوى نفسه .. وعلى ذلك ، بينما كانوا يجتازون حديقة القسيس الصغيرة ، تحت شمس الربيع الباكرة ، ظل هو فى المؤخرة ، شـاعرا بالضعة ، معترفا لنفسه ، فى شجاعة ، بأنه قد أراد أن يعمل عملا عظيما ، فخاب فأله ، وطاش سهمه ..

- ٣ -

تزوجت لور ورحلت ، وحل الهدوء محل الضجيج. واعتكف اونوريه فى غرفته يستعرض ماله وما عليه . فرأى مما له : حسن استقبال أسرته الذى لاينكر، وعطف المسيو سرفيل ، زوج أخته ، الذى حمل « مأساة كرومويل » الى أحد أساتذته الجامعيين ، وأن كان الحكم عليها قد جاء قاسيا. وجعلت الأم تقضى ثلاث ساعات فى اليوم فى نسخ الدرامة ، لتحمل صورة منها الى صديق للأسرة له علاقات وثيقة بالكوميدى فرانسيز.. زد على هذا رغد الحياة المادية فى فيلباريزيس : فالفراش وثير ، والطعام شهى ، والثياب نظيفة . وكذلك انتفع اونوريه بجو الربيع ، وتفتح الزهر ، وتغريد الطير.. هذا من ناحية الارباح .. أما من ناحية الخسائر ، فقد رأى مما عليه : اضطراره الى البعد عن باريس منذ ثلاثة أسابيع . ولم يكن بأسف على غرفة السطح ، ذلك القبر الجوى ، وانما على الشوارع ، لاسيما فى المساء ، عندما يضفى عليها الظلام سره ، ويصطبغ المارة ، أغنياء كانوا أم فقراء ، بألوان الشعر والخيال .. وخيل اليه انه كان سيجنى من ملاحظتهم معلومات مجدية . ثم مقبرة بيرلاشيز ! ان ما هو مكتوب على أضرحتها أشد حزنا من الموت .. بيد انها جميلة ، تلك المقبرة ، التى يشرف منها

المرء على المدينة ، فيحس برغبة غريبة ، وقد وضع قدميه على رفات الموتى ، وأطل على مساكن نمانمئة الف من الاحيـاء ، يحس بأنه لايريد أن يموت قبل ان يحيا حياة أجدى وأمجد من حياة الآخرين .. أما في ضـــاحية فيلباريزيس ، فالحيـاة خامدة خاملة ، والارض تخرج ثمراتها فى بطء ، حتى الحيوانات اذا كانت جميلة تكون حزينة !

ماذا فى طوقه الآن ؟ انه أمام أمرين لا ثالث لهما : اما ان يكتب أيضا للـكتابة ، واما أن ينتظر حتى يعيش .. ولـكن يعيش .. كيف ؟. أنه لم يعد يستطيع العيش بغير كتابة . ولقد قال للدكتور « ناكار » ، طبيب الأسرة المـكلف من أهله بأن يجد « شيئا ما لأونوريه » :

— يا دكتور ، انني لن أقبل شيئا ! أقسم لك على ذلك برأسك ، ورأسي ، وبالعلم ، وبالادب !.. انني لاأريد ، بأى ثمن كان ، ذلك الشيء الممقوت الذى يسمونه «وظيفة» انني لست ، ولن أكون أبدا ، حصانا يعلق فى عربة !.

وهكذا حكم على نفسه بنفسه بأن يستأنف امتشاق القلم . فكل الناس فى البلد يعملون . وما دام هو لايريد ان يربى الدجاج ، ولا ان يفلح الارض ، فلا مندوحة له عن الانكباب على مؤلف جديد .. وخطرت له القصة ، فالقصص الآن ذائعة يتداولها الناس ، ولاسيما ترجمة روايات ولترسكوت .. وقد حاول ان يحمـل أباه على قراءة ما يكتب ، من دون طائل ، لأن المسيو بلزاك قال له :

— ان القصة هى أفيون شعوب الغرب .

وقال له فيما بينه وبينه :

— ان القصص تطيب للنساء .. اللواتى ربما كن فى حاجة اليها !.. أما انني لو كنت مكانك لوضعت كتابا عن الزواج ، ، قصة ، بل كتاب تجربة !..

ـ ولـكن يا أبت ليست لى فى هذا تجارب !
ـ أحقا ؟.. وهل ليست لأجدادك تجارب تنفعك ؟..
وماذا فعلت اذن بالورانة ؟.. اسـتمع اليهم .. الى أسلافك !.. لو انك أرهفت أذنك اليهم ليلا لسمعتهم يخاطبونك فى صميمك قائلين : أن المرأة أشبه بالبرغوث، تقفز ولا تستقر على قرار.. ولا سبيل الى فهمها أو ادراكها ، فلا بد من أحد أمرين : اما أن ندوسها ، أو ندعها تلتهمنا !..

ثم ضحك من قلب خلى .. ففكر اونوريه فى شذوذ حياة أهله ، من أمه المتمرمرة الىجدته الترسة ، الى أبيه البطاش .. ذلك الأب الذى فاجأه اونوريه يوما وهو يطـارد صبية من صـبايا الحقل .. ثم فى تلك النظرية الـكبرى ، نظرية المرأة التى يقف أمامها الرجالعاجزين، وهم يزعمون أنفسهم أقوياء قادرين ..

خليلة ؟ ! يا للـكلمة الاخاذة !.. أتكون له يوما ما خليلة ؟ أيستحق يوما امرأة جميلة جديرة بأن يعبـدها قلبه الـكريم ؟ : « أواه !.. أليست فى هذه الدنيا كلها امرأة لى ؟ » . وتذكر وجوها جميلة ، قد أحبهـا فى فصول السوربون ، وقامات رشيقة ، فىالمسارح، لفتته، وفتنته ، واستهوته .. باريس ، باريس دائما !.. انها باريس التى يرجو ان يقدر له الحب فيهـا ، ما دامت تنضم على كل ما هو جميل ، وخليق بالحب !.. ولكن الايام تمضى ، ويكتمل عام ، لم يعد خلاله الى مدينـة أحلامه ، الا لماما ، ليبتاع كتبا ، وليجدد صلاته بشبان التحقوا بالصحف ، وعاد منها حاملا الرجاء فى الحب ، دون الحب .

ثم حدث فى أوائل يونية ١٨٢١ أن تعرفت مدام بلزاك بسيدة من جـيرانها تدعى : « مدام لوردى برنى » ،

وأعلنت انها دعتها هى وزوجها وبنتيها الكبيرتين وفتاتين فاتنتين ، لتناول الشاى يوم الاحد القادم .. فتضايق اونوريه ، بلا موجب ، اذ زعم ان أمه أرادت لفت نظره الى « فتنة » تلك الفتاتين ، ونوه بأنه : فى اليوم الموعود سيذهب ليتنزه ، وانه لا يحب الفتيات ، فكلهن تافهات — (فقالت أخته لورانس : « شكرا » !..) — فضلا عن انهما كريمتا قاض ، وهو لايطيق الموظفين — (فقال أبوه : « شكرا » !..) — وقالت أمه : « ولكن هناك الأم ، وهى جد شائقة ! » .. فسألها اونوريه : « وما عمرها ؟ » . فقالت : « انها تكبرنى بثلاث سنوات » .. فقال اونوريه : « أذن أى حديث تريدين أن يجرى بينى وبينها ؟ » .. فقالت أمه : « شكرا ! » ..

وفى الساعة الثانية من مساء ١١ يونية ، كان اونوريه يتثاءب فى الصالون ، بين أهله ، فى انتظار أسرة برنى ، اختيارا لا اضطرارا .. فان أحدا لم يرغمه على البقاء ، ولكنه بقى ، متظاهرا بعدم الاكتراث .. معتزما الا يتحدث الى الرجال الا قليلا ، مهملا النساء ، لأنهن اما فوق السن التى تروق له ، أو دونها .. ناشئات فى جو ضاحية فيلباريزيس ، الذى لا يطيب له .. على انه لم يلبث ان رأى فجأة ثلاثة أثواب بيضاء ، نقية ، ناصعة ، جميلة ، ساحرة ، مثيرة .. ورأى الاعين الصافية ، والثغور النضرة .. ورأى الأم ، التى كانت أسمن قليلا من بنتيها ، تبدو كأخت لهما .. وكانت بسيطة ، طيبة ، لطيفة ، تفيض مشاعرها رقة واحساسا !.. وكم كانت شديدة التأثر وهى تعلن للحاضرين نبأ مؤلما عرفه زوجها : « ان الامبراطور قد مات منذ شهر فى جزيرة سانت هيلانة ! » .

مات !. نابليون !. أعظم العظماء ؟ !. يا الهى !.. متى ؟.. كيف ؟..

واقترب اونوريه منها ، وبادرها بعشرين سؤالا.. ثم ها هو ذا قد أحس بقلبـه يشقى ، ويهنأ ، لأنه اكتشف امرأة بدت له رائعة الحسن ، وانه من فمها الفباض بالطيبة والرحمة قد عرف الخاتمة القاسية للرجل الذى يحوز من دون الرجال جميعا ، على مدى العصـور ، أشد اعجابه .

ــ آه ياسـيدتى !.. انت أيضـا تحبينه .. أليس كذلك ؟

ــ من ذا الفرنسى الصميم باسيدى الذى لا يحبه ؟

ما أحسن نطقها بهذا القول الجميل !.. وما أجمـل ثغرها اذ يبتدر منه اللفظ كأنه شهد ، وكله حنان ، وكله شفقة !. وما اثبت نظرتها المطمئنة !. وما أبدع خصرها فى ذلك الحزام الحريرى المنسـجمة زرقتـه مع زرقة عينيها !..

ــ سـيدتى .. قولى لنا كل التفاصيل التى وقفت عليها .. أأوصى بأن يدفن على ضفاف السين !.. وهل كان برتران ومونتلون معه ؟ وماذا قال وهو يقضى نحبه؟

ونسى اونوريه الزوج ، والفتاتين ، وأهله .. وحاصرها ، وجعلها تتكلم ، وراح ينظر اليها ، ويصغى.. وراح هو نفسه يتكلم ، والنار تتلظى فى فؤاده ، ويتطاير شررها ! ان روحه قد أصبحت قبسا من نور ، أو شعلة من نار!. فكان مدهشا !.. لقد أدهشها !.. فراحت تصـغى اليه ، وتحلم ، بغتة ، ازاء هذا الفتى الذى فى العشرين ، الذى يحب ، بكل هذه الحرارة ، وكل هـذا الشوق ، عظماء الرجال .. والنساء بلا شـك !.. فأخـذت ، واضطربت .. ولـكنها كانت أشد منه حيطة ، فالتفتت

نحو مدام بلزاك تروى ذكرياتها عن موت لويس السادس عشر ، مليكها المعزز ، ورقصت متأثرة، وقصت متأثرة : كيف ان جلاده كان يضع قبعته على رأسه وهو يعدم الملك ، ثم ألقى بسترته الجميلة الى الشعب ، فمزقتها الوف الايدى !.. وكان هذا يكفى اونوريه بلزاك ليدرك: أية امرأة هى ، فهى نبيلة . وتاريخها مجيد ، مادامت اعظم الاسماء قد امتزجت بحياتها . وهى تمثل عهد الملكية العاثرة الخلبقة بالاشفاق . دع أنها تسكن ، فى أقصى الضاحية ، قصرا يمثل خير ما فى العهد القديم . أو ليست هى نفسها ، بما طبعت عليه من رقة ودماثة ، قديرة على ان تحيى آية الشعر فى موات القلوب ؟.. ولقد يبدو انها تعذبت . انها لاريب غير سعيدة . ولايلوح على زوجها التألق.. فلعلها لم تحب قط .. أتراها تنتظر الحب ؟ !

وما كاد يتساءل عن هذا ، حتى غمره الخجل ، وتباعد ، وتحدث الى الفتاتين .. ولكنه لم يكد يبعد عنها ، حتى استرد ارادته ، وبعث اليها من روحه ، ووجه لأول مرة فى حياته قوى الجاذبية التى كان يؤمن منذ صباه بأنها فيه .. آه ! لقد نظرت اليه !.. ثم نظرت !.. فلم يعد يتمالك . فاتجه اليها : يحدثها ، وينصت اليها ، ويحكم من كل كلمة تفوه بها بأنها امرأة شائقة ، لا تنطق الا عن النبالة .. وها هو ذا يحس ان القدر يقوده ، بله العناية .. أجل . انها ارادة الله تهيمن علينا ، وتنظم حياتنا ، وتهيىء لكل امرىء سبيله ، وليس لنا ازاءها من حيلة !.

واذا كان اونوريه يفنى منذ عام فى فيلباريزيس ، فليس ذلك ليخمد ، وينام ، وينتهى .. وانما ليحب !.. وها هى ذى امرأة احلامه ، فى ريعان الشباب ، رغم عمرها .

ما عمرها ؟. انه الآن يسخر من السن ! فهى موهوبة من كل جانب : من الطبيعة ، ومن المجتمع . انها هى التى يبحث عنها ، وهى التى سيكرس لها حياته ، حياة فروسية ، ملؤها : الشجاعة ، والاقدام !

ولم يكن لديه أية حجة اطلاقا للذهاب فى اليوم التالى الى بيتها ، ومع ذلك ذهب . قال انه كان يتنزه ، فمر صدفة بالبيت .. فدخل !.. فصاحت :

ــ أوه !.. ان زوجى سيأسف .. لأنه فى باريس .

فانتعش وأشرق . ثم دخل ثلاثة أطفال ، فعبس .. ثم جلس .. وقال متنهدا :

ــ آه !.. ياسيدتى لاشك فى أن زوجك وبناتك يحبونك الحب كله !

لقد بدأ عهد التنهدات .

وكانت مدام دى برنى ، بادىء ذى بدء ، دمثة ، متلطفة ، ولكن شديدة الاعتزاز بالكرامة ، متحفظة ، متظاهرة بعدم ادراك مابه !.. وبدلا من ان تتصابى ابتدرته بالحديث عن أولادها الكبار ، وعن بنتها المتزوجة ، وعن زوج بنتها .. وخاطبت اونوريه بلهجة أموية .. وكان لذلك خطره !.. فان اونوريه لم يحس قط عطف أمه عليه ، وكان يختنق بالحاجة الى من يبثه نجواه . فحدثها بصوت متهدج عن الشباب الممتلىء بالرغبات ، عن الحياة المفتقرة الى الحرارة ، عن المجتمع الذى ينكر قواه الفياضة . وبدا تأثره لاصغائها اليه . وكان قبل قدومه قد أعد جملا وعبارات : « ان كل ما تفوهين به ياسيدتى له عندى وزنه !.. أن أصغر لفظ منك له رنينه فى قلبى ! » .. ولكنه اضطرب ، وارتج عليه ، ولاحظ فى خدها ، ونحرها ، تلك البشرة الحريرية الناعمة . وكانت فى ثوب من الكشمير الابيض ، ذى رسوم

فارسية ، ود لو لمسه بأصبعه ، أو ربت عليه بيده .. وكانت فيه رائعة فنانة ، تتلألأ بهجة وهناء ..

ثم مضى وهو أشقى ما يكون بالعود الى بيته .

وبعد أربع وعشرين ساعة حمل اليها كتبا . ثم عاد بعد ذلك ليسترد الكتب. واقترح ان يعطى دروسا لأصغر أبنائها . وكان يجيء غالبا فى الصباح ، ماشيا فى ندى المروج . فيفاجئها فى غرفتها ، وقد وضعت على رأسها قلنسوة (بونية) من الموسلين ذات خلايا ، زادتها « غندرة » ودلالا ..

وبدأ الخدم يتهامسون.. وكانوا يرونه فى المساء قادما بخطوته السريعة المضطربة ، فى الساعة التى تشتد فيها بالمرضى الحمى ، وتبدأ فيها قلوب العاشقين بالخفقان وتضليل العقول .. وكان قد أتم قراءة « روسو » . فتأجج حيوية وحرارة واندفاعا ..

واضطرت أخيرا الى ان تقول له بصوت مرتجف متأثر:

ـ ياصديقى ، رجاء !.. أتقدر الأمر ؟ !

ـ أمر ماذا .. يا الهى ؟

ـ لم يعد فى وسعى ، بعد ، ان أدعك تجيء هكذا ..

ـ أنا ؟.. وماذا فعلت ؟

ـ أيها الطفل !.. سبحان الله !.. انني امرأة .. وانت رجل ..

فلشد ما ألهبته هذه الكلمات ! وكأنها قد اختارتها اختيارا .. والحق انه ليس غير الله تعالى يرى مايجرى فى قلوب البشر ، حينما تطلق عليها الحب سحنه ، وتقلب فيها كل شيء رأسا على عقب !.. لعلها كانت تفكر مخلصة فى الذود عن نفسها ، ولكنها انقادت الى حنانها ، ازاء هذا الطبع الصريح الكريم المستسلم .. فأرادت انتحذره ، فكشفت عن سر اضطرابها ، واعترفت

بذات ضعفها .. وان مجرد لفتها نظره الى الخطر لكفيل بأن يجعله يتذوقه ويتمناه ..

ثم .. يالعينى هذه المرأة !.. عينان شاحبنان ، لايلبث انفعالها ان يصبغهما بالذهب !.. وهـذا الصوت !.. ان انفاس روحها تمر فيه !.. ثم ما السبب ؟.. نعم ما السبب فى انها ، عندما اراد فى ذلك اليوم الانصراف ، قد أخذت يده لتضعها على قلبها ؟ ! بالله !.. لقد أحس بحنان صدرها !.. وخرج كالنار الآكلة ، لا تسعه الدنيا .. وتسعه الكائنات من أعشاب وأحجار يردد : « انت !.. انت !.. ياحبيبتى !.. »

ومن ذلك الحين اراد ان تشغل كل حياته . فسألها لقاء فى الحقول والغابات .. وتحدث بحرارة واصرار عن الصداقة ، الصداقة النقية ، البريئة ، الطاهرة ، وعن تآلف الارواح .. وكان ذلك لديها برهان وجوب التسليم .

وفى الواقع انهما ، كليهما ، كانا لايدريان الى أين المسير ، أو المصير ..

ولما أرهقته الى حد اليأس برفض معقول ، صاح :

ـ حسنا !.. اذن لم يبق أمامى الا الرحيل الى الهند أو امريكا !..

ولكنه ببقائه كان يجهل ما سوف يحصل . وكان ذلك أشد ما أثر فيهما . ولم يكن لديه عن النساء أية فكرة . ولم يكن واثقا مطلقا من انها ستصير له خليلة ، وكان أشد ما يكون شوقا الى ذلك . بيد انه لم يكن يظن ان هذا يتوقف عليه وحده . فقد كانت لها حقوقها على نفسها ، وكانت لها الكلمة الاخيرة ، فاذا لم تكن الكلمة كما يشتهى ، انه اذن سيمضى على رأسه ضالا يائسا . وكان شبابه الباكر لايحمله على اقناعها ، بقدر

ما كان يجعله يتأوه أمامها ، ويتألم : « انى أسألك ان ترحمى قليلا وتتبسطى .. بعض الابانة عن السرائر!.. فانى أقول لك كل شيء .. أنا .. فقولى لى شيئا .. انت !» لم يفاجئها : « أعلم جيدا بأنك لستسعيدة.. فاسمعى !.. انى أمقت زوجك ! » .. ولم تكن ترد عليه قط ردا مباشرا .. كانت تهدئه : « مادمت تظهر نحوى كل هذا الود ، فاعمل من أجلى .. اكتب لى كتابا جميلا ! »

وفى اليوم التالى بعث اليها بخطاب ، سوده وبيضه عشر مرات ، وضمنه أشعارا ساذجة .. يحن لها فؤادها ..

وكان أحيانا يدخل عندها وقد تكبر وتجبر :

ـ سلاما سيدتى !.. انه الشاعر الفرنسى، والكاتب الشعبى « اونوريه بلزاك » ! وكانت مرغمة على ان تلقى ماء على ناره ، وتحتاط من سعاره :

ـ أتعرف انى أصبحت اخشى بناتى ؟.. اظن انهن يرتبن فى شيء ..

ـ فيم الارتياب أذن ؟ ياله من خبر!.. اذن فهناك شيء بيننا ؟ !.. بالله قولى .. أى شيء هو ؟ !

وبعدها زمجر هكذا ظل مكتئبا .. فحاولت ان تغير مجرى الحديث ، وان كانت تعلم استحالة الكلام بعد ذلك فى شيء ما .. فعرضت لزواج أخته الصغرى لورانس ، وانها رأت أم خطيبها : امرأة نارية !.. فبدلا من ان تضحك اونوريه سخط قائلا :

ـ الزواج له ما له وعليه ما عليه .. وليس الذين يلتقون فيه دائما بالذين كان ينبغى ان يلتقوا.. خذينا نحن مثلا .. أفلم يكن ..

فتأخذ بيده قائلة : « أيها المجنون الكبير ! » ..

فيتضايق ، ويشتد ، وينفعل : « آه لو كنت امرأة! ولو كنت ادعى لور !.». فتقول : « ارجوك ان تدعونى باسمى ! »

ـ هذا ما أفعله !. لور.. لور دى برنى.. اذن لكان مسلكى يكون شيئا آخر.. والآن وداعا . هذه آخر مرة أراك فيها ، لانى أموت من رؤينك .. لم اعد أستطيع أن أراك.. اننى لاأكاد أتمالك من ان اقول لك أشياء جنونية !.. وان أخاطبك بلا كلفة .. أواه منك!

ـ اونوريه .. اليك عنى .. ابتعد !.

ـ كلا ! انى باق !.. وانى سأعود !.. انك أنت حياتى ! وانى لاحس القدرة على عمل أشياء عظيمة من أجلك .. يالور !

ـ اجلس بربك !

ـ لله ما أروع محاسنك ! ثلاثون عاما ، لا اكثر ! كيف بالله يمكنك ان ترفضى قطف التفاحة التى اضاعت أبويك الاولين (١) !..

ـ أانت مخبول ! ماذا تقول !.. اذهب عنى !. انك تخجلنى !.. يا للجرأة !.. انك لم تحدثنى قط هكذا ! انى لا أريد ان تأتى بعد الآن .. أسامع أنت.. ولا تأت غدا على أى حال ، فلن أستقبلك غدا !

ـ غدا سأذهب الى باريس .. فتأتين اليها !

ـ كلا !

ـ سأنتظرك عند التياترو الفرنسى !

ـ كلا ، مطلقا ! أنك تميتنى من الخوف .. ان زوجى لايلبث ان يدخل !

---

(١) نقصد آدم وحواء وخروجهما من الجنة بعد اكل التفاحة المحرمة !

ـ ياحبـذا !.. انى أكرهه ! وسأقول له ذلك .. هاتى يدك ..

ـ دعني ، سألتك بالله !.. ان بنـاتى لا يلبثن ان يسمعنك !..

ـ انى أحب بناتك !.. ولـكنهن بحاجة الى ظهير الحياة . وانت تعلمين اننى سـأكون ذلك الظـهير والسند .. عندما تصبحين لى !..

ـ ماذا يقول ؟ ! ماذا أصابه ؟ !

ـ الى غد !.. عند التياترو الفرنسى !

ـ دعنى !..

ـ لو .. ياحبيبتى لور.. انت علوية ! وكما يقول روسو عن عشيقته العزيزة : « ان لك فما على مقياس فمى !.. » ..

ولقد قاومت مدام دى برنى الجنون اكثر مما قاومت مدام دى فارنس صاحبة جان جاك روسو . فليشهد لها الخلف بأنها جاهدت طويلا وقاومت هـذا الحب المستعر ! غير ان الحب له قوانين ثلاثة : اما ان نمنح ونستسلم ، واما ان نهرب من اليوم الاول ، واما ان نموت به .. وهذه المرأة كانت قد أضاعت حياتها . وكان يتضوع منها اغراء خريف جميل . وأحست الزهو بعاشق كهذا فى ريق الشباب . فلتحكم عليها السماء وحدها ، فهذا شأنها ، وليس شأن الارض وأهلها .

وأسلمت نفسها ، ذات مساء ، فى فصل الربيع ، بعد موعدين جنونيين ، فى حديقتها ، بعد وعود حـارة متهورة ، بعد قبلات مسعورة مخبولة .. فى صيحة مدهشـة : « انى سعيدة .. انى أعبـدك !.. والآن استطيع ان أموت : فقد منحت أخيرا الهناء » !..

وسيكتب اونوريه فيما بعد ، هذه العبارة : « ليس

مثل الحب الاخير لامرأة ، حب يرضى الرجل ويكفيه ، أول عهده بالحب !.. » ..

وها أنت ذا ، يا اونوريه ، قـــد تلقيت ، في ذلك المساء ، لور دى برنى ، العهد الشائق بأن نكون لك !.. وبعد أسبوع تحزم ثيابك وكتبك فى كيس سفر، وتستقل عنـد الفجر عربة البريد الى باريس ، ومنها الى بلدة « بايو » ، حيث تسكن أختك المتزوجة !.. وكان عذرك تافها : « العمل الـكثير .. فقر الدم .. الحاجة الى هواء النورماندى » ..

ولو ان شئون الحب تهم رجلا مثل مسيو بلزاك الوالد ، لساوره الشك عندما رأى ، فى غياب ولده ، مدام دى برنى تمشى وحيدة ، شاحبة ، مستوحشة ، فى ثوب مهمل ، تبكى بدموع من دم !..

ولـكن لعل هذا ما جعل العاطفة بعد ذلك يتأجج لهيبها ويزداد سعيرها .. فعاد اونوريه من « بايو » يتفزز صحة ، وصفاء ، وحرارة قلب ، كله للحب .. فهرع ، دون حيطة ، الى بيتها .. فصـاحت به دون موجدة عليه :

ـ ماذا ؟.. ماذا فعلت لك ؟ وماذا جرى ؟

فقبلها فى جبينها ، وفى شفتيها ، وفى صدرها العزيز، وقبل يديها وركبتيها :

ـ اننا عشيقان مدى الحياة !

فلم تعد بحاجة الى تفسير لغيابه عنها وهجره اياها منذ أسبوع الحب الاول ..

أما هو فلما بعد عنها فـكر فيها ، ورأى انه يملك خليلة فريدة ، تعبده عبادة . ولما عاد اليها زاد بذلك اقتناعا . وأراد ـ اعترافا بجميلهـا ـ ان يرقى ذروة المجد ، ليشكرها ويغمرها بالآلاء ولابد له من وضع كتاب

جميل . وسوف يضعه . وقد أحس انه الآن غنى غنى طائلا بالتأثرات والعواطف الجامحات !..

واذا كانت هى شديدة الهوى ، فقد كان هواه هو بغير حساب ..

ـ ياحبيبتى .. لو انك مضيت فى مقاومة الهناء لربما قضيت فعلا من الحرمان !.. أما أنا ، فلم أكن بعد قد عشت !.. وقد رددت عن قلبى دائما نزعاته الكريمة . حتى جئت انت فأنقذتنى . والآن كل ارادتى مسخرة لعاطفتى . وقد نضجت ، وكبرت . وأريد ان اعمل عملا قيما .. فهل قرأت كتابى « كروموبل » ؟.. وهل أحببته ؟

ـ لا ، لا أظن .. انه انت الذى أحب ! وانت لست فى قصتك « كروموبل » !

ـ انت ملك !.. لقد وجدت الكلمة التى لم يعرف احد كيف يقولها لى !.. اننى لم أخلق لأضع مآسى تمثيلية ، وانما روايات وقصصا، سأكون «ولترسكوت» فرنسا . واليك يرجع نجاح حياتى الادبية . فقد بعت قصتى الاولى بثمانمئة فرنك (٣٢ جنيها) ، والثانية بألف وثلاثمئة . فهل تدرين بكم بعت الثالثة ؟

ـ قل واسرع !

ـ الفان !..

ـ انى اعبدك !

ـ ولا ألبث أن أعود من باريس رافع الرأس، ممتلىء الوفاض !.. لايلبث ذلك الفتى اونوريه ان يصبح اعظم المؤلفين انتاجا واشهرهم طرا !..

ثم هنأ نفسه بأنه لم يقبل أبدا « وظيفة » ! الوظيفة الصغيرة المروعة التى تقتل صاحبها ، فى ستة أشهر ،

جسما وروحا !.. وكم من موتى على هـذه الشاكلة يغص بهم المجتمع !

فوافقته مدام دى برنى ، وأبدت اعجابها به . ثم راحت تطمئنه من جهة بناتها وزوجهـا وخدمها ، لأن الادوار قد انعكست !.. قالت :

ــ لا ، لا ، لا أحد يشك أو يرتاب .. انها مخيلتك التى تشتغل !.. نم .. اذا شـك أحد ، فـلابد من تجريده من سلاحه بما نظهره من ثبات واطمئنان .. فتعال متى شئت . ولا تفـكر وانت قادم الا فى .. ولتطمئن قلبا ، ولتقر عينا !..

وقد بذلت ما فى طاقتها لتبعد « العذال » ، وتمنع التسبهات ، وترد بعطف لا حد له على تلميحات مدام بلزاك ، التى اظهرت وقوفها على علاقة ابنها بمدام دى برنى .. ولـكن هل هى نفسها امرأة متبتلة ، فاتنة ، صالحة ؟.. ان هنرى ــ شقيق اونوريه ــ لايشبه أباه عن قرب أو بعد .. دع ان الزواج فى ذلك العصر كان لايقوم الا على المصلحة والمنفعة ..

وكأنى بمدام دى برنى فى نظرتها الى مدام بلزاك تقول لها : « احكمى على اذا شئت ، ولـكن احكمى كذلك على نفسك ! » ..

ولم تكن أمه فى امتعاضها من هذه العلاقة الا متمشية مع طبيعتها النفور ، تلك الطبيعة التى جعلتها تتشكك فى مقدرة اونوريه على الـكتابة ، فى حين كانت مدام دى برنى تعيش به ، وتمنحه من روحها ، وهو الذى أحيا موات هذا الروح ، فكيف تضن عليه بالحب ؟.. انها الآن قد جعلته يحب فيها حتى ما فى جسمها من عيوب ! وهو أيضا ، بعدماهرب منها ، غداة عهد الغرام بينهما ، قد عاد يهيم بروحها النقية ، الوضاءة ، الفتية ، التى

ليست فيها تجاعيد ، كتلك التجاعيـــد القليـلة التى ارتسمت على جسدها الفض من أثر الايام المضنية . وقد أحب فيها اونوريه حتى آثار هذا الضنى القدسى عنده ، فجثا أمامه : يتعبد ، ويتهجد !..

وكانت فعلا امرأة على سجيتها ، لا أثر للصنعة فيها أو التحذلق ، ولا النفعية ، لا تصغى لغير حساسيتها الرشيدة .. وكان عقلها نيرا ، فقاديه ، وسددن خطاه ، وجعلته يتقبل الآيات من فمها الذى كان جميلا ، لاينطق الا بالحق ، وكان الحق منه مقبولا.. كانت امرأه على طبيعتها الشائقة التى تجعلها تمزج له المديح الحار بالنقد الحنون :

ـ انك أشبه ماتكون ببيضة النسر التى فقست تحت الاوز !.. آه ! انى أعرف أسرتك .. وأستثنى اباك.. أما امك فلم تفهمك .. فضلا عن انها لاترى قط نحائف الاشياء الرفيعة التى تكونك .. وهى منقوعة فى أنانيتها وكبريائها ونفورها ، ولو أسرفت فى هذا قليلا لقتلتك.. واما اخواتك ..

ـ لا تذكرى لور بالشر !..

ـ انها بنت أمها !.. وسوف ترى فى خلال عشرين عاما !.. وقصارى القول ان أسرتك قد مسختك . وقد جهلت ما فيك من إنغام الخير ، تلك التى تنظم شعر الحياة الصميمة فى مجامع القلب .. وتكون عادات عريقة من اللياقة وأدب المجتمع.. فاذا سمحت لى ياحبيبتى، انت يامن أحبه وأريده كاملا ، أظهرتك على أشيـــاء صغيرة ..

ـ آه !.. رجاء اليك !.. أتوسل اليك !.. انك انت أمى .. أماه !..

ولم يجرحه أى نقد من نقداتها . فقد كان يعوزه ذلك

الصقل ، كان متعطشا اليه ، ليجمل به حياته .
ورأى جليا الفرق بين خليلته وبين أسرته .. هذه أمه ، التى مع ذلك يحبها وتحبه ، تنزل الى باريس ، وتعود منها ببكرة خيط !.. وهذا أبوه يغلق على نفسه غرفته ، فلا يرى ، ولا يرى ، ليلتهم تاريخ الصين فى ثلاثة عشر مجلدا !..
وهذه خليلته تثقفه وتعلمه كيف يكون هو نفسه ، على حقيقته ، وانما من طراز رفيع :
ـ ان الرجل المتعلم لايختلف عن غير المتعلم الا بفروق قد تكون طفيفة ، ولكنها جوهرية فى الحياه . انظر الى امرأة من الطبقة الراقية فى مرقص . فهى معتادة ما حولها ، لا تشهد على محياها ذلك الفرح الساذج الذى تبديه بائعة أو مستخدمة بندر غشيانها الحفلات الكبرى .. وهذه توافه ، ولكنها لا تحول دون الهناء ، بل تكسبه رقة ، وتضفى عليه أناقة .
وهكذا كانت تصقله ، وتروضه ، وتلطف من حديثه ، وتغرس فيه الافكار الرقيقة ، التى سوف تتنضر ، فيما بعد ، وتتحول زهورا عجيبة . فأحس بالغنى الروحى الذى تغدقه عليه ، وعرف فضلها ، وشكر جميلها بزياده التعلق بها ..
وحين يحس الظمأ الى مثل أعلى ، تتحول هذه المرأة ، التى حرمت مدى أربعين عاما من السعادة .. الى متصوفة نقية :
ـ ياحبيبى الكبير ! انى واثقة من ان علاقتنا قد نسجت على أيدى القديسين !
فيؤمن على كلامها ، وينظر الى محياها بقداسة كما لو كان محرابه .
على ان الزمن هو القاتل الاعظم ، يبلى العواطف كما

يبلى الابدان . وكانت أسرة بلزاك قد عادت لتقضى عاما فى باريس .. وهنالك ربطت اونوريه صـلات ببعض الشبان النجباء ، وتعلق خاصة بأحدهم «توماسى» ، وكان من المتصوفين المتعلقين بالآخرة ، البـاحثين عن انسانية كاملة ، فكان لا يكف عن صرف بلزاك عن كتابة القصص ، دالا اياه بصوت محموم على خطورة الحيـاة ورهبتها ، وانالقلب لايخضب ويمر الابالخلق والدين :

ــ صدقنى ، ياصديقى العزيز، صدقنى !.. عد الى ايمانك وأحبب معتقدانك ، وقوها ، ودعمها تدعيما ، لانها هى وحدها التى تكفل لك مستقبلا ساميا !

فأحس اونوريه ، وهو يسمع هذا الوعظ والارشاد، انه يعود الى أفكاره الصالحة ، التىكانت أثيرة عنده فى سنه الخامسة عشرة ، عندما كان يتردد علي رغمـه على مدرسة مسيو لبيتر . فبـاح لمدام دى برنى بما يخالجه ، فسخرت منه ، لانها كانت من سلالة لويس السادس عشر ومارى انطوانيت ، متحررة على مثالهما من تعاليم الرهبنة ، ساخطة على ذلك المذهب الذىأراد التحكم فى الجامعة ، والاستبداد بدروس السوربون ، وجعل السيادة العليا للـكنيسـة كما كان فى القرون الوسطى ! وأضافت :

ــ يا للشناعة !.. لشد ما أشعر بالاشمئزاز منهؤلاء الناس !.. سأذهب هذا المساء لأشـــهد رواية « طرطوف » (١) ، وسأصفق حتى أبلى قفازى !..

ــ انى أدرك ماترمين اليه ، ولكن الحريات تذهب بنا وتضيعنا . ان المجتمع بحاجة الى اطار ، فلا بد لنا من

(١) هى قصة موليير الخالدة التى ترجمها صاحب هذا الكتاب منذ بضع سنوات الى العربية بطلب من وزارة المعارف العمومية التى نشرتها وقررتها لمدارسها . ثم اخرجتها الفرقة القومية .

نظام ، وقادة ، ودرجات .. وليست المسألة مسألة أذواق شخصية وأهواء .. بل ان هذه ينبغى تضحيتها لننظر الى أبعد ، وننظر الى أعلى .

ونشر فى هذا الرأى ، سرا ، كتيبا لم يوقعه باسمه. وهكذا لم تعد خليلته العزيزة الحاكمة عليه بأمرها ، المستبدة بعقله على هواها : أن خلافا واحدا قد يجرح الهناءة . انها عاصفة القلب تهب ، كما فى الجوالصحو عندما تنذر بانقلابه سحابة سوداء ..

ولما عادت أسرة بلزاك الى فيلباريزيس ، استأجر اونوريه غرفة على خطوتين من حديقة اللكسمبورج فى ركن شارع « تورنون » .. وكانت مدام دى برنى الحنون تجىء ، ما استطاعت ، من قريتها ، فى مركبة صغيرة ، لتراه ، و « تعطيه الحب » ، كما كانت تقول وهى تدلله بنظراتها ..

وكان ما زال سعيدا الى حد الهوس باستقبالها وسماعها تحدثه عن كفايته ومستقبله حديثا جذابا ، غير انه كان يتألم من حقارة غرفته ، ومن عجزه عن أخذها فى مركبة الى التياترو ، وانه لايستطيع أن ينفق عليها مائتى فرنك فى ليلة .. وا أسفا !.. ان الكتب التى نشرها لم تنجح !.. لم ينجح أى من كتبه الثلاثة الاخيرة ، ولم تحمل اليه مالا ، وقد كان يؤكد انه من دون المال لا هناء ولا حبا مقيما . وهكذا كان اذا ما رآها : آية فى الجمال ، والفتنة ، تتلألأ فى ثيابها ذات الذوق السليم ، ثم رأى نفسه فى بنطلون من الخاكى الاصفر وصديرية قصيرة جدا .. حاول عبثا ان يوهم النفس بأن هذا كله نافلة . فقد نظر الى المرآة وظل شقيا .. وهو شقاء فهمته ، وابتسمت منه ، وحاولت ان تعزيه ، وحملت اليه يوما بنطلونا أبيض أنيقا من

الباليه رويال .. فاحمر وجهه ، لا ندرى أمن خجل أم غبطة ؟.. وبعد ان توسلت اليه ، لبسه ، وخرج معها. ولـكنهما ، بعد عشرين خطوة ، قابلا شـابين أنيقين ، فقال ساخطا :

ـ كيف يفعلون لتكون قمصانهم بهذا البياض الناصع؟!

ـ ياعزيزى المسكين ، اونوريه الحبيب ، المتوحش ، العجيب !.. ولمـاذا لا تسرح شعرك وتضفره ، انت أيضا ، كهؤلاء الشبان ؟.. انك اذن تكون خلقا شاذا !

ثم وجهته نحو مصيره وغايته : ان يبلغ ذروة المجد بالـكتب الجميلة :

ـ انك فذ لاشريك لك !.. انت تعرف أشياء لايدرى أحدا أين ومتى عرفتها !.. فاعمل !. اعمل !. ولاتخش شيئا .. انك ستصبح أعظم أبناء جيلك !

وتتوالى الاحاديث المعسولة بغرفة شـــــارع دى نورنون بعد القبلات الهائمة :

ـ اذا أعطانى الله عمرا ، واذا ظللت انت أيتها المرأة الشائقة تؤيدننى بروح من حبك ، فانى حقا سأفعل ما ذكرت ، وأصور للدنبا الانسان ألوانا فى عاداته ونفسه ، كما يفسره العالم بعرض القوانين الطبيعيـــــة وترتيب الانواع الحيوانية !.

وماكان أبدعه متكلما اذ ذاك ، بوجهه ألذى كان لايزال نحيلا ، وان كانت وجنتاه بلون ألدم ، وشعره الاسود الغزير الملقى الى الخلف ، كما لو كانت ريح العبقرية قد نفخت فيه .. فقالت متحمسة :

ـ ما أجل ما تنطق به ، كأنه وحى يوحى !.. وبرغم بنطلونك المصنوع من قطن أصفر ، وقميصك البفتة ، وحذائك الضخم ، فانى أعبدك ، ياحبيبى اونوريه !.. وانى أحذر ما تريد ان تعمل . وسوف تشغل المرأة فى

عملك مكانا لا حد له ، مكانا عليا !.. وستكون أعظم من ولترسكوت الذى تتشابه بطلاته جميعا فى أداء الواجب، دون الهوى !.. مسكينات !.. يا للنفاق !.. ونحن نعانى مثل هذا فى فرنسا . (أتعرف اننى أمس صفقت لرواية طرطوف ؟) . وفى وسعك ان ترسم لوحة لكل تاريخنا .. دراسة أخلاق ، كما تقول ، ودراسة نساء ، جيلا بعد جيل !

وهو فى هذه المرة يجدها قد أوحت اليه بآية مستقبله الفكرى .. فيمجدها .. فتقبله قبلات مجنونه ، ألوانا ، وأشكالا : « أنك تعرف المرأة .. والفضل لحبيبتك لور .. ولعلك ستكون عظيما على يدى .. من يدرى ؟ ! » .. فيقول : « سأكون عظيما من أجلك .. أتريدين ؟ .. »

وجد ، وولع .. ولكن اونوريه مازال ضيق الصدر، فارغ الصبر .. لا مجد ولا مال !.. لا شىء غير ذلك المطعم الصغير عند « الأم جيرار » حيث يتناول وجبة البطاطس التى لا تتغير .. فحسن اليأس والقنوط ، هو الذى بدأ حياته بوضع كتاب « فى الارادة » .. وينظر من بعيد الى قصر أعضاء مجلس فرنسا الاعلى ، ويتساءل : « أفلا يكون استعدادى سياسيا ؟ » .. ثم يجول فى الصحف الصغيرة التى يبعث لها بمقالات قصيرة فيها لمحات فكره الخاطف كسنا البرق ..

وفى موسم ارتباكه هذا يتعرف فى فرساى بامرأة خطرة ، أخطر النساء على سلام قلب شاب : « مدام دابرانتيس » ، عقيلة المارشال « جونو » . وقد أوتيت كل ما يهيج بلابله ويثير ثائره : كان سحر ماضيها أكثر من سحر حاضرها . يالها من هرة غاوية عندما تروى

له بعينيها البراقتين : « لقــد قبلنى الامبراطور فى الجبين » !.. ان الشيطان كان مرتديا جسدها ، منطويا فى روحها . وكانت تتلون ألوانا ، فهى أحيانا سوداوية المزاج ، متألمة ، حزينة ، ساهمة .. وأحيانا شــديدة الاندفاع ، متغطرسة ، ساحرة ، آمرة .. تبـــدى استسلاما يبعث الهوس بها .. وكان اونوريه يعلم ان نابليون قد اشتهاها . فهل نالها ؟.. آه انها لم تبذل جهدا كبيرا لتداهنه ونطريه .. فقد أعجبها .. كان فعلا يتفجر حيوية وحرارة وطموحا .. قالت له : « ان مجرد نظرتى اليك تثيرنى ! » .. وحدثته عن « رأسه السماوى » .. وسمعها ذات مســاء تقول له كلمات ستعود بعد سنوات الى أذنيه كلما تصادم الحب بالفضيلة وتعثر بالنبل :

ـ اننى صدبقتك على مدى الايام . و.. خليلتك.. متى شئت !..

ولما عرفت لوردى برنى أنه يلقاها ، قلقت ، وسألت : « اتبدو عليهــا سنوها الاربعون ؟ » .. ثم تضــبط غلافا ، وتقول فى قلق : « ماذا عساها تكتب اليك ؟ » فيرفض اونوربه ان يطلعها على الخطاب . وتعتريه رجفة والم .. ولــكن المخيلة تسعفه برد مقبول :

ـ انها هى التى لم تسمح لى !..

وعندما تتمالك مدام دى برنى تعود مرة اخرى الى رحمة العقل وكرامة القلب :

ـ حسنا .. وانى أحترم ما فى شــــبابك من رقة ومداراة .. ولــكنها لا تلبث أن تذوى وتفنى .. ولا يبقى لك سواى ..

فكيف لم يكن يرد على مثل هــذه الاقوال بالنــدم والــكفارة ؟.. ذلك ان تلك المغامرة القصيرة ، مع امرأة

ثانية لم تكن ايضا شابة ، لم تزده الا اضطرابا وتبلبلا..
حتى انه عندما اجتمع بعد ذلك بمدام دى برنى فى غرفته
والفاها قد نسيت ، واغتفرت ، وعطفت ، وتفانت فيه ،
وفنيت ، بكى .. وما كان بكاؤه لمجرد خيانته اياها ..
كان شاعرا بتفاهة مغامرته مع مدام دابرانتيس ، متألما
مما أحاط بها من فقر ودس .. كم من رغبات كظيمة
مستحيلة تتخبط بين ضلوعه ! كم من احلام ذهبية
تبددت !.. انه فى سنه الباكرة هذه كان يعيش بين
أطلال بالية ! أسرعان ما تقص أجنحة روحه الشعرية
وتطوى فى أحضان عجائز قبلنا تحلق فى حب فتى
سحرى ؟ !.. ومع ذلك فهو يلقى ، فى المقهى ، وفى دور
التمثيل ، وفى ادارات الصحف ، على أذرع رفقائه
الشبان ، نساء فى زهرة العشرين ، نضرات ، صافيات
كسماء الربيع .. وشهد ، وفؤاده يتمزق ، بأن « أصفى
النفوس وأغناها لا تكفى لارضاء رغباتنا العديدة الدانية
وتلك التى أحبها قد فقدت هذه النضارة ، واضاعت
شباب الجسد الذى لا يعوض . فيا للأسف الدامى
الدائم ! ويا للهوى الذى لايهب الا لذات أليمة !.. وها
هى ذى تناديه :

ـ انت ينبوع حياتى ! فهى مستمدة منك !.

ويحاول عبثا ان ينادى أشباحه وأوهامه لتسعفه
بمثل صيحتها .

وحين تنصرف من عنده داعية اياه للمرة العاشرة ان
يزيد وداعه حنانا ، تلحظ اكتئابه ، وتتنهد قائلة :

ـ انى أثقل عليك !. انى أحس ذلك !.. وأعرفه!..
ولكن حبى لك فوق الطاقة !. فابحث عن واحدة
أخرى ، وعندئذ أخلى لها مكانى . وأصبح لك أما ، بكل
تفانى الأم ، وكل محبة الأم !..

وكان فعلا قد دعاها : « أماه » ، فى انفعالات لوعته لاولى .

يالها من مخلوقة ، معبودة ، خليقة بالعبادة .. كان بمكن ان يكون ولدها !..

وا شقوتاه !..

ان الحب هو حاجة مضنية تمتزج فيها نداءات الروح واحتياجات البدن . وليست البقية الا سفسطة. وعلى الرغم من نعمى هذا اللقاء بامرأة تفتحت على بديها أنضج أفكاره ، فقد ظل شاعرا بأنه تمنى الحب العظيم، الحب المعجز ، العجيب ، الكامل ، الذى يخيل لصاحبه انه يلامس الرفيق الاعلى ..

وقد ظل مضنونا عليه بهذا الحب ، وظل من هذا الحب محروما ..

- ٤ -

فى ذات صباح اتخذ قرارا خطيرا : اعتزم ، لكى ينسي شقوة الحب ، أن يصير غنيا . وأحس بفكره يصفو ، وأخذ يقول لنفسه : ان الثراء لمن أوتى من النبوغ حظا قليلا يمكن كسبه بجرة قلم ! والارادة تكفى . وحتى الآن قد رغبت فيه ، ولم أرده . أما الآن فانى أريده ، وعلى ذلك سيكون لى ، وسيكون سريعا ، لأن ورائى بعد ذلك مشاغل أخرى .. أريد أن أدخل ميدان الاعمال ، دخولا رنانا ، ولست أريد صغائر الامور ، بل كبائرها . والاعمال فى حاجة الى الشعر ، كالآداب والفنون سواء بسواء . لابد من الابتكار والخلق ، وسوف أبتكر وأخلق . وقبل مرور عامين ، سأكون ثريا » !..

ولما أعلن مدام دى برنى عزمه على اقتحام ميدان الاعمال ، سألته :

ــ ولكن أى نوع منها تنوى أن تزاول ؟

ــ لست أدرى بعد .. ففى ميدان الابداع متسع للجميع !.

ــ وكتبك ؟

ــ انها تكتب فى باطنى .. وتكتب من دون عكوفى عليها ، أو تفكيرى فيها . قد يلوح على اننى أضيع

وقتى ، فى حين انى أكسبه . فلا بد من أن نبدأ فنحيا ، قبل أن نكتب الحياة . ولم يبدأ موليير آياته الا فى سن الاربعين . فقد شغل بادئا بأن يكون رجلا . وفى سعيى الى الغنى فى وقت قصير سأحشو جعبتى بالملاحظات التى تنفعنى فى كتبى . ولما كنت لا أظن انى سأموت فتيا ، فأمامى سنون طيبة طويلة لأفوز فى الادب فوزى فى التجارة !

وكانت له طريقة لا تخيب فى تحميل كل ما يعرض له . وكانت هى تحب الجمال ، فصدقت كل ما قال.. والمدهش انه بعد ذلك بقليل وفق الى تجارة ، ولم يلبث أن حصل على موافقة أسرته التى سرها منه أن يتخلى عن صناعة الادب غير المجدية .. اللهم الا أخته الصغرى لورانس ، فهى التى تشككت :

ـ انى لا أراك تبيع ، وتشرى ..

فسألها غاضبا :

ـ ولماذا ؟

ـ ذلك انك طيب القلب .. موفور الاستقامة ..

فهز كتفيه . لم تكن له تلك الفطرة الدقيقة التى آتاها الله النساء الكريمات المنبت ، اللواتى يعرفن انه لابد فى الحياة من أسلحة الدفاع دواما .. والقى بنفسه فى غمار عملية طبع ونشر بدت له سليمة مثمرة ..

أن يطبع « موليير » و « لافونتين » ، وان يطبع كلا منهما فى مجلد مصور ، سهل التناول .. أليس هذا دينا واجب الوفاء نحو عظماء الرجال هؤلاء ؟.. فأقرضه المال صديق يدعى مسيو « داسوتفيليه » ، وحذت حذوه مدام دى برنى . ومضت ستة أشهر فى : عمل ، وجرى فى باريس ، ورحلات الى بلدة آلنسون حيث كان يسكن الحفار . ثم خرجت آخر الامر الكتب . وكان

ثمن النسخة منها « بنتو » (نحو الجنيه) ..

بيد أن أحدا من الناس لم يتأثر بهذه الهدية ! فبيعت عشر نسخ . وتمخضت العملية عن خسارة مروعة ، هي ضياع خمسمائة وألف فرنك !..

فبدلا من أن تسخط مدام دي برنى ، وتأسف على مالها ، زعمت أنها وجدت حلا . فقد علمت بأن مطبعة مطروحة للبيع بشارع « ماريه سان جرمان » .. قالت :

ــ اشترها !.. فلا تبقى تحت رحمة الغير . انهم هم الذين يقتلونك ، ويمسحون بك الارض !. فلابد من أن تكون سيد نفسك ، وولي أمرك .. وعند ذلك تبسط سلطانك ، وتنجح ، أما الخسارة الاليمة التي خسرتها..

ــ آه !.. أتظنين انها تشغل بالى ؟.. ضعى يدك هنا ، على قلبى ، لتحسى ارادتى وعزمى .. انى واثق بنفسى .. ونصيحتك قيمة .. وها انت ذى ، مرة أخرى ، تنقذيننى !..

وكانت المطبعة المعروضة للبيع على خطوتين من السين ، وراء المجمع العلمى ، فى حارة مظلمة ، مثلجة ، تقبض الصدر جدرانها العالية الخالية من النوافذ ، وان كانت تتصاعد منها ــ كما لو كانت قبرا ــ ذكريات مثيرة !.. الشاعر راسين مات هنا .. وأدريين لكوفرير الممثلة التراجيدية العظيمة ، أجمل غوانى عصرها ، عاشت هنا .. لشد ما نرى بلزاك راضيا عن العمل فى هذا المكان .. فالعمل هنا ــ فى عينيه ــ هو بمثابة السير فى أثر التاريخ ..

أما الصنعة ، فيالها من صنعة !.. لسوف يحذقها .. ثم يالها من فكرة : أن يطبع كتبه بنفسه ، ياله من حلم قد تحقق بعد بضعة عشر عاما .. يالذلك

المصير الاسنى !.. انه سيثرى وهو فى خدمة الفكر!..

ولكن لابد قبل التحصيل والاختزان من الدفع وشراء الكنز !.. وكان المسيو بلزاك الأب ، مازال يجرى على ولده اونوريه مرتب الالف وخمسمائة فرنك سنويا، فرضى بأن يعطيه كل نصيبه فى تركة المستقبل ويقطع المرتب . ولكن المبلغ لم يكف ، فدفعت الباقى مدام دى برنى .. فبلغ منه الانفعال والتأثر بوفائها حد البكاء ، وقال لنفسه : « لشد ما تحبنى !.. ما هذه امرأة ، أن هى الا ملك كريم !.. وانى احيانا لتخالجنى من نحوها أفكار مروعة .. كيف يارب افعل لطرد هذه الفكر ؟ ! »

وكذلك ساعدته فى الحصول على رخصة طابع .. وذلك بفضل زوجها المسيو دى برنى ، المستشارالملكى، الذى وصفه اونوريه بأنه « قاض ، وموظف ، ورجل ممقوت » .. وخرجت الرخصة بعد ثلاثة أشهر ، وهو يكفر ، ويأكل بعضه ، من نفاد صبره .. وأخيرا ، دخل ميدان الاعمال ، كمن يجرد تجريدة !

وفى ٤ يونية ١٨٢٧ تسلم مطبعته كالفازى الفاتح . ومع ذلك لم تكن هذه خاتمة النضال . انها بداية المعركة الكبرى فى سبيل المال !

ولم يكن وحده فى ذلك الشوط الى الثروة . فقد اتخذ شريكا ، ولكنه سجل فى العقد : « يحتفظ المسيو بلزاك لنفسه بالحسابات » .. وربط نفسه كالثور فى الطاحون ..

وفى حجرتين حقيرتين ، ضيقتين ، شنيعتين ، ستبدأ حياته منذ الآن ، على مكتب مغطى بالكرتون الاخضر ، وغرفة ذات خدر ، حجب بنسيج رفيق أزرق .. وظل فى المكتب يعمل ، ويدرس ، ويحتقن دمه ويفور ..

وخدع النفس وخانها فى وقت واحد بثلاثة عوامل : أولها الكبرياء ، وثانيها السذاجة ، وثالثها الخيال..
وقد ضاق صدره من التوصيات الاولى .. أو لم يبدأ بطبع نشرة عن « حبوب القوة واطالة العمر — صيدلى ٧٧ شارع سانت انطوان » ؟ فكان يسخط ويلعن لضياع الوقت فى مثل هذا !.. وكان شريكه ينظر اليه ولا يفهم !..

وعرض له بعد ذلك أن يطبع قصة « Cing - Mars » التاريخية للشاعر الشهير دى فينى . وكانت هذه القصة لا تعجبه .. فتجهم للمؤلف الذى سخط عابه بدوره ، ورآه رجلا لا كياسة فيه ، ورآه ثرثارا !.. فى حين كان بلزاك ينحنى على جامعى الحروف ويوصيهم :

— لنتخلص من هذا الكتاب الردىء ! ولننصرف عنه الى شىء آخر !

انه قصة سخيفة يؤيد فيها المؤلف رجلا خائنا ضد السلطات العامة .. ومن غير السلطات لا تكون هناك دولة !..

وكانت له فى الدولة نظرياته ، أما فى المطبعة فلا .. كان يبتكر . لم يكن يعرف شيئا عن الاحوال التى تحيط بعمله ، ولم يلبث العملاء أن تبينوا ذلك . كما فطنوا الى انه كذلك شاب حساس طيب القلب . فأذاعوا ذلك فيما بينهم وتناقلوه ، وهرعوا كالقطط الجائعة ليستغلوه ، جماعات وفرادى .. وكان ذلك سهلا ، فقد كانت له نفس نبيلة غير أهل لاية تجارة . وكان عاجزا عن النزول بقلبه ليتجرد للحساب الدقيق ، وبدلا من ان يتكلم بجفاء ، ويقدر الصغائر ، ويحسب حساب النافلة ، وينظر الى المليم والدانق ، كان يلبى نداء العواطف الكريمة الفياضة .. فاذا اكتشف سارقا

نهره قبل أن يدفع له اجره .. ثم لا يلبث ان يقول : « لقد أذللته .. وهذا يكفى !.» .. لم يكن يناضل بقبضتيه . كان يحكم بروحه ، وكان شفيقا . وكانت من ورائه عصبة من الفجرة ، لا تتحرج من استغلاله ونهبه تحت ستار أنهم « عملاء شرفاء » !.. وكان نبيها جدا ، والنباهة الفائقة شر محتوم فى الاشغال . كان يفهم الرذائل كالفضائل . وكان يعالجها كما يعالج الطبيب الداء . ولم يحمل قط حقدا . كان عالما اشتعل رأسه وطاح فى معمل المطبعة .. ولم يكن طابعا . لم يكن يعرف كيف يناقش ويساوم . لم يكن يعرف كيف يحسب ليكسب .. وبدا هذا المركز مجديا لا يدر عليه رزقا ، الا الرزق الادبى الذى يحصله من المناقشات فى الذمة والامانة !.. ولم يكن ذلك كله ليكسبه مالا ، فما بالك بالغنى الذى زعم انه أقرب اليه من حبل الوريد؟

وكانت مدام دى برنى تجىء منذ عام كل يوم لزيارته فى الغرفة الزرقاء ، وسرعان ما أدركت انه لن يكون رجل أعمال قويا قديرا الا فى الخيال.. ولكنها كانت هى نفسها لا تفهم فى الحياة شيئا من تلك الاحصائيات الصغيرة الخسيسة ، فأى نصح يمكنها ان تسديه اليه؟ لقد وجدت أن الاسهل لها والاولى بها أن تقف عند حد دور العاشقة . وكانت كالنار التى تخمد ولكنها تزداد بريقا ، ولم تعد تذكر غير الحنان والدلال والحب والعواطف .. كانت صفاء القلب بعد اكفهرار الظلمات التى غرق فيها بلزاك لأذنيه ، ضائعا ، فريسة الارقام : الايرادات ، والمصروفات ، والميزانيات ، والفواتير ..

قالت له :

ـ انى أعلم انك فرغ صبرك ! فوراءك الف شاغل ، وألف كراهية ، وألف اشمئزاز ، وألف ندامة !.. اذن

فدعنا من هذا كله ، فلا نذكره ، ياحبيبى الحبيب .. واهدأ ، واسترح ، وضع هنا رأسـك .. فقد كنت تحب الاستناد الى كتفى . وانى هنـا لـكى تنسى .. فدعنى أنظر فى عينيك . اننى لا أمل النظر فيهما أبدا ، يامعبودى ، أترى أمك الغريبة قد حملت بك اذن فوق فوهة بركان فيزوف لتجعل لك عينين بهذه السخونة الآكلة ؟ ! فهما عينان تريدان .. وتداعبان.. وتعطفان وتحبان .. عينـاك !.. انهما من الروح ، روحك ! وهما جميلتان كزهر الربيع ، عميقتان كطبقات السماء !

ــ يا ملكى ، ياملكى العزيز الحارس ، انى بخير ، وانى سعيد .. وأنت تردين الى الروح !.. انى أنسى العمال ، والعمل الفاسد ، والزبائن .. آه !.. انك لا تعلمين ما عملوا اليوم .. فاسمعى !..

وفى لحظة النسيان ، تتراحم عليه أسـوء الذكريات وتتراكم حوله ، وتحاصره. وعندئذ تضع يديها الجميلتين على فمه ، فتتلاشى فظائع البشر التى أصابته فى يومه ، ولا يعود ثمة من أثر الا لنشوة الحب . وما كان أجملها فى شتاء ٣٧ ــ ٣٨ !.. وما اشد ما راقت فى عينيه ، فى ثوبهاالاسود ، المحبوك على خصرها بشريط ، ولاسيما تلك الطرحة الشفافة التى تضـعها كالشـال ، وتلقى بطرفيها فى حزام وسطها ! وها هو ذا يجدد أعزازها وتدليلها ، لسنها ، ولحنانها ، ولاحسانها الذى لم يكن ليصدر الا عنها ، تلك الفضيلة التى لا تصدر الا عن القلب ، على مضى الايام .. وكانت تكرر له بلا ملل :

ــ انى أعبدك ، أعبدك على الرغم من ألوان غضبك ، ونزواتك ، وغلظة طبعـك . و .. ذلك من أجـل .. « روحك الجميل » !..

وكانت تصل مخبولة حبا ، آتية على قدميها منشارع

دنفيرسان ميشل ، حيث كانت ، حينذاك ، تسكن فى باريس خلف حـديقة اللـكسمبورج الغنـاء العريقة ! فتنزل فى شارع دى تورنون ، مرسلة بالفكر ألف قبلة نحو الغرفه التى شهدت حبهما الشهور الطوال ، ثم تعرج على شارع السين ، حيث تشترى له أرغفـــة الخبز الصغيرة والفاكهه ، لانه لم يعد يجد متسعا من الوقت للغداء ، وتصل ، تكاد تكون مقطوعة الانفاس من الوجد والتفانى والهيام !.. وتقول ، من خلال العناق والقبل :

ـ آه ياصديقى !. ألسنا جبلنا من طينة واحدة ؟.. انى فخور ، فخور !.. لقـد شـاركتك كل السـنين العجاف .. وستأتى سنوات المجد .. ثم تمضى بلاشك عنى مع امرأة أخرى .. ولكن لاســبيل لك فط الى نسيانى ، لاننى قد وضعت الهناء فى آلامك ، بينا سيضع غيرى الآلام فى هنائك !.. ياحبيبى ، ياحبيبى ، لو ان كل الازواج كانوا على مثالنا لمـا بقى على ظهر الارض عزاب !

ثم تجىء ، ككل مساء ، لحظات الوداع الموجعة .. ويكون العمال قد انصرفوا ، فيقودها الى الشـارع ، مجتازين المطبعة ، فيريها ما على الرخام من صـفحات مجموعة ، وصور مطبـوعة ، ويحـذرها من أن يلوث الحبر ثوبها .. ثم يحين موعد الرحيل :

ـ هات منفارك ياسيدى !.. الى اللقاء ياديدى !.. هل ترانى سأعود ؟.. انى خائفة .. انى من دونك تنقطع أنفاسى !.. اعطنى مرة أخرى هذه اليد الحنون التى أحب ان تظل فى يدى .. والآن أدعك لاربع وعشرين ساعة ، ياسيدى .. أى لقرن من الزمان !..

وكانت المطبعة فى تلك الاثناء تسير الى الخراب .

فعلى التاجر أن يضع قناعا على وجهه لاينزعه ابدا .. فى حين كانت هذه المرأة لا تساعده الا على نزعه ، لأنها كانت مثله لا تنتشى الا من تذوق الحق . ولم تكن لديها كما لم تكن لديه ـ أسلحة للدفاع ضد الشر والشره المحيطين بنا . ولم تكن توجهه الا الى الافكار النبيلة : وما حيلة التجارة فى هــذه الافكار ؟ ! انها كانت ، فى حبها اياه ، تجره الى الخراب .. وكانت تعبده ، على رغم الخراب ، وفوق الاطلال ، لأنها فى وسط المشاغل والمشاكل التى لا تستطيع وقايته منها ، وبين ضروب الفشل العديدة هذه ، لا تجد ما تقوله له غير : « لو كنت مكانك ما فعلت الا مثلك !. » ..

وكان يحس انه على الاقل مدين لهذا النبوغ النسوى السخى برجولته ، وبهيامه بالجمال ، وتحمسه للشرف ، وكل ما يجعل لهذه الحياة قيمة . وعلى ذلك ، ففى العراك التجارى ، وان كان قد هزمته شراذم الموردين والعملاء ، فالفضل لها فى ان قلبه تشدد وتجدد ، وازدهر كشجرة جميلة .. ولما كان القلب هو الذى يمنح العقل النبوغ ، فقد ظل شعاع من الامل بين جوانحه ، انتظارا اليوم المشهود الذى يعود فيه الى حمل قلمه ، اذا نبت قطعا ان الاشغال والاعمال لن تغنيه فتيلا .

وكان مع ذلك لايزال قوى الرجاء فى الاعمال ، وفى المال . فزعم أن آية الفنى فى تحويل المطبعة الى مسبك للحروف !.. فاندفع فى نفقات باهظة . وبقيت مسألة المشتريات ، وايجاد النقود ..

أما شريكه « باربييه » فلم يصدقه ، وأبى أن يتبعه بيــد أنها هى .. هى دائما .. هى المخبولة ، الهائمة المشوقة ، قد حصلت من زوجها الاعمى على تفويض بدخوله باســمه ، فى الشركة الجديدة !.. وكان ذلك

بمثابة أعباء جديدة ، ضغثا على ابالة !

ثم وقعت الواقعة ، وكانت الطامة ، عندما حل دفع كمبيالة ضخمة ، وكانت الخزانة خاوية . وحمل الى الخدر دفاتر الحساب ، وراح مع خليلته يجمعان ويطرحان ، ولا يجدان مخرجا .. فما العمل ، ياربا‌ه ؟! ان التجار الموردين قدموا بلطف فواتيرهم .

فقالت له مدام دى برنى :

ـ اذن فعليك ان تحذو حذوهم مع عملائك . فأرسل جميع فواتيرك !.

فأمر بذلك متنهدا :

ـ يا للأخلاق !.. يالها من حياة !.. انى أوثر لو قطعوا راسى !..

ولم ينتج عن ارسال الفواتير شىء . وعلى الضد من ذلك نفد صبر الموردين ، وطالبوا بحسابهم . وتلا الالحاح منهم تهديد ووعيد بالتقاضى . فصاحت مدام دى برنى :

ـ فليقاضوك ما شاءوا !.. أيمكن لهذا أن يقضىعلى حبنا ؟ ! أيها الحبيب المعبود .. انك لايمكن ان تعرف منزلتك عندى ، ومكانتك منى !

وفى الغداة طاف على المصارف . فقابله رجالها بالبرود ، أو الشفقة الممزوجة بالاحتقار . فوجدته لور دى برنى ، فى المساء ، مخضل العينين بالدموع :

ـ ياصديقتى !.. لماذا يقسو على الله هكذا ؟.. انك تعلمين ، انت ، اننى لا أريد بأحد سوءا .. وموقفى شنيع .. انه غدا الـ « ١٣ » !..

ورأى المرابين « أولئك الذئاب » يظهرون فى ثياب المحسنين ، يقدمون اليه نصف ماله !.. فأحس بدماغه يلتهب .. وبعد أشواط مضنية ، بذل فيها روحه

لهؤلاء الناس الذين لا روح لهم ، تجلت بصيرته ، فقال :
ـ يا للزمن الضائع !.. يا للجهود الذكية بلا طائل!
جهود متوالية ، مرهقة ، على الضد من طبيعته .
فاذا لقى صديقا ، لزم الصمت ، و أخفى عنه مابه .
وأمام أسرته ، كذب ، ولا سيما على مدام بلزاك ، أمه ، المتشائمة دائما ، التى تتنبأ بالشقاء فى الهناء .. وكانت ترى أن الربح غير مؤاتية ، وانه لا سبيل الى خلاص التاجر من مآزق التجارة حتى يصفى تجارته !.. وهو الآن قد صار من رأيها .

ولـكن لم تكن المسألة مسألة انسحاب من الاعمال بقدر ما هى انقاذ ما يمكن انقاذه من الاثاث . وكتب كمبيالات لم يقبلها أحد . فهلع ، وهرع الى القمار!..
فعاد كاسف البال، شقي الحال.. فقالت له صاحبته :
ـ لقد ذهبت الى الباليه رويال.. ولعبت وخسرت!
ـ أجـل .. ولـكنى لم أفجع فى المئة فرنك التى خسرتها ، وكانت آخر ما معى ، بل فيما شهدت ، اذ وجـدت قاعة من جهنم ، أحاطتنى فيها ثلاثون عينـا مخيفة ، ترسل شررا ، وتضرب نطاقا من النـار من حولى ، وتفتشنى ، وتجردنى ، وتريد أن تعرف ما اذا كنت سأذهب فألقى فى السين بنفسى !..
ـ آه ياملكى !.. اسكت !.. وتعال الى صدرى..
انى سأنقذك !..
وجثت على ركبتيها أمامه تقدم له المـال :
ـ خذ ! خذ كل شيء !.. انى احبك اكثر من حياتى!
وسمعا لغطا فى المطبعة . وكان العمـال يطالبون بأجورهم . فأسرع بلزاك اليهم ، فشتموه ، قائلين :
« انك تلهو وتستمتع . فى حين اننا نموت جوعا !. »
ـ أنا ألهو وأسخر من العامل ؟. اننى على استعداد

لأن أكون غدا عاملا . ثم اننى سأدفع لـكم اجركم غير منقوص ! وليس التأخير الا عارضا ، يسبب لى من الالم أضعاف ما يسبب لـكم ! وأنا أيضا لم أمد آكل !.. وسأبرىء ذمتى مما أنا مدين لـكم به .. أقسم على ذلك .. فان لى ذمة وشرفا !

فى هذا النوع من العذاب الذى يحرق الدم ، دم رجل مسوق رغم أنفه الى الافلاس واليأس ، يتيح النضال المستعر للعاطفة أن تنجو ، وهو بهـذا يعد نعمـة من السماء ، مثله مثل الدموع التى تفرق القلب وتروح عنه ..

وفى ١٦ ابريل ١٨٢٨ ارسل اليه العمال انذارا رسميا ، ثم أطبق على المطبعة الدائنون ، وانضم البهم البقال ، وصانع القمصان ، وصـانع الاحذية ، وكانت فاتورة هذا الاخير بثلاثمئة فرنك .. فصاح بلزاك :

ـ ثلاثمئة فرنك !.. هذه سرقة !..

فاجابه الحذاء ببرود :

ـ لا ياسيدى !.. هذا مجموع ما أنفقته على قدميك من أحذية !..

وعندئذ هرول اونوريه كالمجنون الى أمه ، لتستنجد بابن عم لها تاجر ، يدعى مسيو « سيديو » :

ـ فليأت الى !.. ولينظر !. وليحسب ! وليقرر ما يراه !. وليضعونى فى السجن يا أماه اذا قضى بذلك المجتمع !.. أجل ! ربما كنت قد خربتكم !.. أجل ! انى مدين بعشرين ألف فرنك لمدام دى برنى !.. أجل! اننى بلا شك شقى منحوس !.. ولـكن هناك رحمـة الهيـة ، وانى لواثق من الغفران يوما ما !.. وها هو ذا الحول قد حال على وأنا فى جحيم !.. لم أعرف فيه غير راسى يحترق . وقلبى ينقبض من الوان القنوط !

ولم يكن يمضى يوم الا وتنقض صاعقة على راسى !..
ولم أكن أشهد الا وجوها عابسة ، عليها غبرة ، ترهقها قترة ، يؤلمنى تذكارها . وغير عيون رجال غارت منها كل مبادىء الانسانية ، ولم أعش الا فى وسط مشاهد مروعة ، كما لو كنت فى حومة الوغى .. أواه يا أماه ، يا أماه !.. اذا أردت النجاة فى ظل شيخوخة طيبة هانئة ، فاهربى من أهل الحساب ، واياك من ارباب المال والاعمال !.. وانصرفى بكل قواك الى المتصوفين والشعراء .. فهم رجال من العلو والسمو بحيث لم يضعوا قدما فى أوحال الحياة !..

فزفرت مدام بلزاك ، وقد ضمت يديها ابتهالا :

ـ ياولدى !.. بربك لا تصح ، لئلا يسمعك أبوك!.. فليس له أن يعرف ، فى مثل سنه ، بهذا ، والا مات !

وطفق بلزاك ينشج نشيجا محزنا !.. ثم هوى فوق سرير أمه !.. وخيل اليه أنه أخذ من يديه بقوة وحق، وداروا به ، ثم داروا .. حتى سقط منكبا على وجهه أرضا ، منقطع الانفاس !.. ورقص كل شىء فى راسه ، ورقص كل شىء حوله !

لقد انتابته الحمى ، اذ أدرك انه خرج من صناعة الطبع والنشر مدينا ، فوق كل ما أنفق ، بثلاثة آلاف جنيه . لقد اقسم أن يكون غنيا ، غنى طائلا ، غنى سريعا .. وها هو ذا أفقر منه فى كل وقت مضى ، أفقر من كل انسان ، وقد اجتمعت عليه ضروب الفقر المدقع جميعا ..

— ٥ —

ان نجاح امرىء فى الحياة ، اذا أوتى كافة عناصر النجاح ، انما يتوقف فجأة على لا شىء ، وهذا اللاشىء يكفل له الاتزان . ان مثله مثل الطفل فى شهوره الاولى، عندما تتخبط قدماه الصغيرتان ، ويعترى امه القنوط فتقول : « انه لن يمشى !. سيصاب بالكساح !..».. ثم اذا به ذات صباح ، يمشى ويمشى قدما لا يلوى على شىء .. ويصبح كغيره من الاطفال ، اتخذ مكانه ، وطيدا ، على الارض .

وكذلك كان شأن اونوريه بلزاك . فما أن ثاب الى رشده من صدمته ، بفضل المسيو « سيدبو » ، الذى اخرجه من ورطته ، ولا غبار على شرفه ، بينا كانوا يصفون مركزه دون أن يدرك من الأمر شيئا كثيرا ، حتى لاحظ — كالمريض عقب الحمى — ان قلبه وعقله قد خلصا ، وراقا ، وصفوا .. لقد خرج من ليل ذى كابوس فظيع ، فما كاد يطلع النهار حتى عاد اليه صباه وكان من الآثار غير المنتظرة لمصيبته الحرى انه عاد فاسترد مزاج الحياة !..

وفاتحه المسيو سيديو بهذه النتيجة :

— خمسة وسبعون ألف فرنك دينا !.. (٣٠٠٠جنيه)

— لابأس ! انى فى التاسعة والعشرين ، وصحتى

جيدة ، ومطامعى واسعة .. فسأدفع ، سأدفع الدين كله حتى الدانق الاخير !..

وكان لابد لذلك من وضع كتب تباع بأكثر مما بيعت الكتب الاولى . وقد دلته الحياة بجلاء على أن الكتب الاولى كانت رديئة . وكم كان ملهما اذ لم يضع عليها غير اسم مستعار ! فقد حفظ بذلك اسمه ، ليضعه على ثمرات المجد ! لقد لمس حقائق الوجود . وعانى تجاريبه ، وذاق كيف ان المجتمع يشوه النفس البشرية ويشقيها .. وهذه الحقائق أروع ما يمكن للمؤلف أن يبتكره . وهذه المشاعر الانسانية هى التى يريد تصويرها ووضعها فى اطارها . فلا يتوه فى معانى الفردوس المفقود ، ولا يسيح فى القمر . حتى ولايذهب الى القرون الوسطى ! انه سيرسم ما حوله ، فى عصره ، من ظروف الحياة ، وملابساتها ، وأخلاقها .. وسيكون فى رسمه مثيرا !..

واستأجر تحت اسم مسيو « سرفيل » ــ زوج أخته ــ شقة صغيرة فى شارع كاسيتى رقم «١» على بعد ثلاثين مترا من شارع فوبورسان جاك ، بين سقوف الاديرة وقباب المرصد (الاوبسرفتوار) .. أشبه شىء بجمال الريف : سكون ، وراحة ، واستجمام .. وهناك يستطيع العمل كالرهبان .. بل انه أوصى لنفسه بثوب راهب .. وقصارى القول انه اندفع فى جذله ، واشترى ــ دون أن يدفع ــ أثاثا .. فرفعت أمه ذراعيها الى السماء : « هل عاد اليه جنونه ؟.. انه يزيد فى ديونه!» وكان من رأيه أن المظهر لا غنى عنه للكاتب .. فاذا جلس الى منضدة مكسورة على قارعة الطريق لم يجد له ناشرا يدفع فى كتبه قرشا !..

ولم يكد يزخرف عشه المكون من ثلاث غرف ، المطل

على حديقة .. ولم يبق له الا الجلوس ليكتب .. حتى سافر فجأة الى « فوجير » !.. ذلك ان موضوع كتابه الاول كان قد تحدد فى ذهنه ، وكانت تنقصه الوثائق فى جو مقاطعة بريتانى . فأراد ان يعيش بين أهلها : يرى ، ويسمع ، ويسجل .. وكان بسكن فوجير صديق لوالده هو الجنرال الكونت دى بومرل ، فاستضافه. ووصل ضاحكا ، جذلا ، مستبشرا بما سوف يملأ به وفاضه من آيات يصورها للأجيال .. فسألوه ، فى حياء وحيطة ، عن أخبار .. أشغاله .. فأجاب بقوة :

ـ المسألة بسيطة . أردت أن أقوم بعمل جليل . ولم يطب لى الا لأنه كذلك . فلم يفلح . فاتجهت وجهة أخرى . وما أبداه اليوم اعظم اثرا وأجل قدرا !.. انى انوى كتابة سلسلة قصص تاريخية لم يسبق لأحد أن كتبها فى هذه البلاد ..

فسألته مدام دى بومرل : « أو لم تقر « Cing - Mars »

ـ بلى ياسيدتى !.. بل اننى قد طبعته !.. وانى اعرفه عن ظهر قلب !.. قصة رديئة جدا !.. كل مافيها زيف .. وقد ولدت فى مقاطعة لاتورين ، وأعرف ماهى.

فقال الجنرال : « وكذلك مؤلفها المسيو دى فينى»!

ـ هذا محتمل .. وهو من دواعى الاسف !..

وراح يتكلم خمس ساعات متواصلة .. وكانت أسرة بومرل قد دعت بعض الجيران لقضاء السهرة.. فبهرهم جميعا . روى لهم ـ لهؤلاء الناس المحدودين المحصورين بين بيوتهم وحقولهم ـ حياته المضطربة الشاقة ، ورسم عشرين لوحة باريسية ، وعالج : السياسة ، والمسرح ، والفن ، والحرب ، والكنيسة .. وكان زلقا ، فياضا ، متحمسا ، وكأن الكلمات كانت تزدهر على شفتيه المسعدتين وقد أحاطوا به فى دائرة . وظل الرجال

مبهوتين صامتين . أما النســاء فقد وجدنه ســاحرا خلابا .. وتهامسن سرورا .. وقال قاض شيخ :
ـ ياله من محام !..
وردت عليه عانس عجوز ، وهى تنتفض اعجابا :
ـ آه ياسيدى !.. هذا العقل ! وهذا الذهن !.. وهذا الجبين !.. ارأيت جبينه ؟..
ولـكنه كان قد جاء ينشد القصص ، لا ليرويه .. ففى الايام التالية أمسك لسانه ما استطاع ، وأرهف أذنه . وجاس خلال البلد ، يزور ، وينظر، ويستجوب. وسجل كل ماحوله من رءوس ، وحركات ، وحكايات.. ووضع هذا كله فى « نمليته » ، كما كان يدعو ذاكرته المؤاتية . وكان فى الصباح يكتب فى غرفته ، المطلة على الوادى ، الذى تشرف عليه البلدة والقصر. وكان يحصى بعينيه الآكليتين المشاهد ، باحثا عن معنى جميــع الاشياء ، عن وجه البلاد وروحها . وكأنه من نافـذته هذه قد اعتزم ان يلقى الضــوء على وطنـه بأسره ، ويصوره !
وعندما عاد الى باريس ، مزودا بالمذكرات والذكريات كانت كالنحلة المتعجلة . كان يتعجل صنع شهده . وملأ أيامه بالعمل المضنى . ان اعداد كتاب ، والحلم به ، وترتيبه ، هو : الهناء الذى ما بعده هناء !. ان امتلاك ناصية الموضوع هو : الاشتهاء !.. أما الانقطاع بعد ذلك للـكتابة فهو عمل الحداد أمام كوره : يضرم النــار ، ويضرب السندان . وهـذا يتطلب الجهد ، والعناء ، والعرق . وما اطول كتابة كتاب !.. وما اقصر مدى النهار!.. ان ما يسوده من الصفحات فى اثنتى عشرة ساعة لقليل ، قليل !.. فقدر بلزاك لـكتابه شهرين على الاقل ، وقرر أن يتمه فى شهر واحد .. وكان الشتاء

كالحا قاتما ، بحيث لم يعد ينظم عمله على ضوء النهار أو سواد الليل . راح يكتب . حتى اذا أضناه التعب توقف ، ونام ، وأكل ، وسأل عن التاريخ . ثم قال : « ان الايام تذيبنى بين يديها ، كما يذوب الثلج فى الشمس !.. » .. وبدلا من أن يتم كتابه فى شهر استغرق ثلاثة أشهر ليضع « Dernier Chouar » أول كتاب شرفه ومهره باسمه ..

وكان فوزا عظيما ..

ورأى اونوريه بلزاك اسمه على كتاب ، لأول مرة ، فخالجه الفخر فى هدوء وجاءه أصحابه مستبشرين.. وأحس بأعدائه يحدقون فيه مندهشين خجلين .. وكتبت اليه النساء . وتلقى دعوات الى الغداء فى عالم الادب ، والى العشاء فى عالم السياسة ، والىالسهرات فى عالم المسرح والغناء .. وقالت له خليلته :

ـ انها لصفحة عظيمة من التاريخ !..

واعترفت أمه : « لقد قرأته فى نفس واحد .. ولا عجب اذا بعث منه الكثير .. بما يعوضنا شيئا مما خسرنا » ..

ورضخ والده لقراءته ، ثم قال : « لا بأس بحديثك فى الحب .. ولكن .. فكر يا ولدى فيما اقترحت عليك : « كتاب عن الزواج » !.. »

ففكر فعلا . وكان ، عندما كان طابعا ، قد وضع الصفحات الاولى منه ، وجمعت ، ثم أعاد قراءتها ، ولم ينشرها . فقال فى نفسه : « سأذهب لأتحدث الى أبى فى هذا الموضوع .. فأراؤه عن النساء مدهشة .. ولكن فى الوقت متسعا .. » . ولم يكن قد مضى على ظهور كتابه شهران ، حتى جاءه فى مساء يوم من شهر يونية نعى أبيه . وكان الرجل شيخا هرما فى الثمانين

من عمره . فهو مصـاب طبيعى . ولـكن كذلك حزن الولد على والده طبيعى . وكان حزنه شديدا صامتا ، رغم قلة ما تبودل بينهما من الحنان فى خـلال الثلاثين عاما .. وفى الساعة التى اختفى فيها أبوه عن سـطح الارض ، شعر بأن حكمة أبيه الضاحكة قد جاءت لتسكن فيه . ذلك ان الحداد العظيم الذى يجعلنـا نتأمل فى مصيرنا يذكى فينا أعز ماورثناه .. وهكذا أحس اونوريه فى جذوة حزنه جذوة أخرى عهد بها اليه أبوه ، تنتظم فيه ، وتخدمه ، وتعينه .. بحيث بدأ له ان أسلافه القريبين والبعيدين قد احتشدوا فى ضميره ليساعدوه ، ويجعلوه يقول ، كما قال يوما وهو صبى على ضـفة اللوار : « سأكون رجلا عظيما !.. » وتبع نعش أبيه هامسا من خلال الدموع : « نم مطمئنا . ولا تخف ، ولا تحزن على مصـير اسمك !.. » . ولمـا عاد من المدفن ، جلس يكتب ، قبـل أى كتاب آخر ، ذلك الـكتاب الذى أوصاه به أبوه عن الزواج ..

ومر الصيف والخريف ، وهو يعيش خلالهما على كتب من افكار أبيه . وكان يرهف أذنه ، ظانا انه يسمع الشيخ يتكلم ضاحكا عن النسـاء ، وعن الزنا ، وعن الفضيلة . وكان لا يتم فصلا حتى يقرأه على صاحبته مدام دى برنى ، فتوجهه الى حقـائق نسـوية أخرى تعرفها المرأة الحصيفة . وكانت النتيجة أن خرج هذا الـكتاب ساخرا من الزواج ، أى من حياة الرجال التى تتنازعها النساء ، ويتقاسمنها ، أى انه جعـل الرجال مسئولين عن جميع أخطاء النسـاء .

وظهر كتاب الزواج : تاملات عن الهناء أو الشـقاء الزوجى ، فى شهر ديسمبر . وكان ذلك هو الفوز العظيم الثانى . وجرت بذكر صاحبه الركبان . وكان موضع

حديث الصالونات ، وفى كثير منها أرادوا أن يروه .
فلماذا يتمنع ويحتجب ؟.. انه لم يكن يرجو الالحاح
عليه فى الرجاء غير انه لم يكن لديه اللباس المناسب .
وكان قد أوصى على توب راهب آخر يلبسه فى البيت ،
ليعمل ، ولا يستطيع أن يرتديه للذهاب عند السيدة
« صوفى جاى » . ومع ذلك ذهب . كما كان ملبيا ،
شيئا ما ، شيطان الزهو ، الذى وسوس له : « ان
كساءك هو شهرتك . وهذا أولى بك وأخلق ! » .
ولسوء الطالع ، كانت فى حذائه مسامير ، فتركت فى
البساط أثرا . ولاحظ ذلك من ركن الصالون أديب
يدعى « فيلاريت شاسل » ، وندد بذلك .. ولكن مدام
« دبورد فالمور » أعجبت بعينيه ، وسألت صاحبة البيت
عما اذا كانت ثمة امرأة تشغل قلب هذا الفتى !..

وبعد ذلك بقليل ، زار مدام « دابرانتس » ، التى
تستجم أياما فى دير « آباى ــ أو ــ بوا » ، والتى كانت
قد كتبت اليه بعد ظهور كتابه تقول « انك الشيطان
شاخصا فى رجل !. وانت تعرف اننى أحببت الشيطان
دائما .. فما أشد سرورى بلقائك !. » .. فزارها .
وسألها عن الذين يقضون مثلها فترة للراحة فى الدير،
فذكرت له اسم « مدام ركامييه » أجمل نساء عصرها.
وكان ذلك الاسم من الاسماء التى يحلم بها بلزاك ،
المفتون دائما بالعظمة ، فقد كانت أجمل النساء ، وكانت
حياتها مأساة ، أى مأساه !.. وسألته مدام دابرانتس:

ــ هل أرسلت اليها كتابك عن الزواج ؟..

ــ لا .. اننى ما كنت أجرؤ ..

ــ أسرع بارساله .. وعد بعد ثمانية أيام ، فنجتاز
هذه الحديقة ، ونصعد اليها ، فأقدمك ..

فقبل ، وفؤاده يخفق .. ولما عاد ، بعد أسبوع ، قالت له :

ــ لقد لمحت المسيو دى شاتوبريان ، صاحبها !..

ثم جهرت بالضحك من شعره المنكوش :

ــ هذه الذؤابة !.. انه حتى لم يقص شعره ليلقى الجميلة جولييت !.. على انه هكذا شبيه بالاسد !..

وكانت مدام ركامييه تسكن غرفتين جميلتين من غرف الدير .. فصعدا سلما خشنا .. وبلزاك ملازم الصمت ودخلا غرفة صبغتها الشمس بالذهب .. وهناك بيانو ، وعود ، وصورة كبيرة للكاتبة مدام دى ستايل وكانت هناك تلك المعبودة ، فى ثوب رائق ، بكل ما فى ماضيها وحياتها من شعر وموسيقى ، جعلا لها شبابا أبديا .. فانحنى بلزاك بارتباك .. فكانت أول كلمة قالتها لمدام دابرانتس :

ــ لشد ما تفيض طيبة قلبه !..

فقال المسيو دى شاتوبريان ، الاديب العظيم ، فجأة .

ــ وليس هذا شأن أهل الادب عادة .. أليس كذلك ياسيدتى !..

وكان بلزاك لم يره قط من قبل . فجعل ينظر اليه وهو يرد على الاسئلة الموجهة اليه من الحاضرين الذين التفوا حوله . وقال أحدهم ، مسيو بلانش :

ــ ان كتاب الزواج هو دفاع عن النساء .. وأعترف بانى شككت فى جنس المؤلف !..

فقالت مدام ركامييه بصوت رقيق :

ــ ان النساء بحاجة شديدة الى الدفاع عنهن .. وقد أحسنت ياسيدى عملا بكتابك القيم الممتع !

فقال بلزاك : « أحقا انك قرأته ياسيدتى ؟ » .

ــ بالتأكيد قد فعلت !..

ثم التفتت الى المسيو دى شاتوبريان ، قائلة له ، وكان يبدو عليه انه لايسمع :

ـ لابد من أن أعطيك الكتاب ياصديقى العزيز ..

وكانت يده فى صدريته ، كالامبراطور . وكان وقورا يبدو عليه الاستغراق فى عالم الاحلام . وكانت خصل شعره تتدلى على جبينه ..

وشعر بلزاك بالسعادة . فاتجه الى النافذة . وكان الشتاء قد جرد الحديقة من أوراقها ، والهواء يهز أغصانها الرشيقة .. وتصاعدت اليه أصوات فتيات.. فضحك ، وحده ، بلا سبب .. وسمعوه .. فقال المسيو بلانش بصوت منخفض :

ـ ماذا أصابه ؟.. انه مجنون ، هذا المحامى عن النساء !

فاعترضت مدام ركامييه قائلة وهى تخاطب شاتوبريان :

ـ كلا كلا .. ثق بأنه موهوب .. ياصديقى ..

ـ ولكن ما ابشع منظر جواربه الزرقاء !..

ـ اسكت اذن !.. وانت ، يامسيو بلزاك ، تعال واجلس قليلا الى جانبى .. الديك مشروعات أدبية عظيمة ؟..

ـ آه !.. اجل ياسيدتى !

ـ هل من الفضول أن ..

ـ أوه !.. لا ياسيدتى ! أنى لا أريد أن اكون رواية فحسب .. بل .. مؤرخا ، مؤرخ أخلاق وعادات .. و .. كذلك فيلسوفا يقود العقول ..

فأصغت اليه بجد ، ملهمة اياه بمحياها الجميل ، المطبوع بطابع النبل والألم .

ولما خرج مع مدام دابرانتس قال بحمية :

ـ لله ما أطيبها !.. وما أجملها !.. وما أوجهها !

ان هذه الزيارة لامرأة تحمل اسما من أعظم الاسماء فى الحياة الفرنسية قد زادته اطمئنانا على مصيره . ان النور يشع على هذا المصير من كل جانب ، ومع ذلك ، فان الفنى لم يأت بعد . وان كان لم يقنط من مجيئه يوما ، رغم ديونه . بيد ان طبول الشهرة لم تدق بعد باسمه فى أربعة أركان المعمورة .. غير انه كان يحس القوة على بلوغ الشهرة . ولكنه لم يتذوق بعد حب امرأة شابة تهبه جمالها ومستقبلها . على أن ملكا كريما قد بسط عليه حمايته ، وساعده ، وسما به .. وان كان لم يعرف الشباب حقا لأنه عاش عشرين عاما بغير هناء .. ولكنه لايأسف على ذلك فى ساعة ازدهاره هذه .. ان كل ما لاحظه عليها انها تأخرت ، ليس الا .. وليس عدد السنين بالذى يستحق الذكر مادمنا لا ندرى متى نموت . وفكر فى أبيه الذى نام الى الابد ، دون داء عياء ، فى سن متقدمة .. وقال لنفسه : ان ذات المصير ينتظره ، فيكون لديه من الوقت ما يمكنه من وضع مؤلفات شائقة ..

ولما وصل الى حديقة اللكسمبورج ليجتازها فى طريقه الى بيته بشارع كاسينى سمع شخصا ، يمر بعربته ، يهيب به ، وكان هو « جوسلان » ناشر كتبه .. فقال له بلزاك وعينه تلمع ووجنتاه متوردتان :

ـ لشد ما انا مسرور برؤيتك ! .. انى خارج الساعة من عند مدام ركامييه !

ـ آه ! .. آه !

ـ وهى لم تقرأ قط كتابا أعجبها بمقدار كتابى « فى الزواج » ! ..

ـ مرحى ! مرحى ! ..

ــ وبعد ، فهل تعرف انى أعد لك قصة سأسميها La Peau de chagrin ؟ ..

ــ وهل تمت ؟

ــ كلا .. واعلم ــ واستخدم عليك كما تشاء لمصلحة البيع والشراء ــ أن مدام ركامييه قد وعدتنى بالاستماع الى المخطوط قبل طبعه ..

ــ زه ؟ زه ! ..

وهنأه جوسلان .. وافترقا ..

ودخل بلزاك الى اللكسمبورج ، ومر تحت الاشجار التى سمعته ، فى فصول أخرى ، يضع مشروعات متحمسة متطرفة ، وقال لنفسه ، فى مرح ، وهو يلوح بعصاه ويدورها فى الهواء :

ــ أرى يابنى العزيز ، اونوريه ، اننا نسير الآن على الدرب ، ومن سار على الدرب وصل ! ...

الجزء الثاني :

انتصار العبقرية

- ١ -

أى شيء يؤثر فى النفس ، فى مدينة كبيرة ، مثل الشيء لم تعد تتوقعه : ركن من الريف ، يهب منه هواء الخلاء ففى مدينة كباريس يستغرق شراء عشرة أمتار من الأرض ما أدخرته أسرة متوسطة فى زمن طويل .. فكيف اذا وجد كاتب أو شاعر أو فنان ، فى صميم العاصمة ، واحة مزهرة ، يلقى عندها عصاه ، وتستقر به النوى ؟.. أتراه على بعد مئة فرسخ من باريس ؟ كلا ، انه فى صميمها . وهذا حى الأوبسرفتوار (المرصد) ، حيث كان يسكن بلزاك فى ربيع ١٨٣١ . وهو لا يتجه أبدا نحو بيته هذا ، فى شارع كاسيتى ، الا وتغمره موجة من الفكر فهو يدع : الجماهير ، والفراغ ، والغرور .. ويسترد وحدته الملأى بالذكريات ، الفنية بالدروس والعبر .

انه يخرج من حديقة اللكسمبورج مستديرا قصر المديسيس ، حيث عز ملوك وذل ملوك ، ويلمح قبة « الفال دى جراس » التى كالتاج ، فيحيي من أعماق فؤاده ذكرى « حنه دوتريتش » ذات الذوق المصفى .. هناك ، حيث الشيوخ المطمئنون المسالمون يلعبون بالمضارب والكرات الخشبية .. وهناك ، على هذا الحائط الأغبر قد سقط المارشال «نى» أشجع شجعان فرنسا ،

الذى قتل بأيدى جنوده ! .. وكان بلزاك مفتونا بهذا البطل ومأساته ..

وهذا ركن متواضع من الحديقة ، كفيل بأن يهذب من سعار الكبرياء والبذخ .. وهـذا بناء ضخم عالى السقوف ، هو بيت الأمومة ومستشفى الولادة .. وعلى الجانبين أديرة يتأملون فيها حكمة الموت ..

وكان بلزاك يسمع من مكتبه أجراس الكنائس .. وكان هذا النداء يدفعه الى كتابة أشياء نبيلة ، حتى يكون : الرجل الذى يقود العقول ، ويوجه النفوس ، فى حين كان النساء يبتهلن الى الله ..

وهذا الحى هو حى الأطفال اللقطاء ، ومعاهد الصبيان الصم البكم ..

ما أبشع مدى الرذيلة ، وما أشنع مدى الشفاء ! .. ملاجىء تتزاحم بالعذابات ، ومعابد تتجاوب بالتوسلات، ثم معاهد العلم والبحث ، الى جانب معابد الدين والرجاء فها هو ذا بلزاك بين : مسوح الرهبنة ، وطيالس العلم ، ومقاصل الاجرام .. ولم يكن بعيدا من ذلك أيضا غياهب السجن التى تسقط بين جدرانها السوداء رؤوس المجرمين ..

ولا مشاحة فى أنه كان فى ربيع عمره . كل شىء ينبت ويزدهر . وكانت الافكار تغمره ، كما لو كانت طوفانا يغرقه .. وقد أحس بهذه الغزارة ، وأشفق من هذا الغرق ، من هذا الفيض الفكرى .. وكان كل شىء يذكى نار الهامه ، سواء أكان : حديثا ، أم مطالعة ، أم شوطا فى باريس .

ولم يكن يغريه قول صديق له : « عندى موضوع شائق لك ! .. » .. ولكنه كان ينظر كيف يعيش الناس وكانت لمحة منه تبدى له عالما .. وكان ذلك بمثابة

المصباح الذي يسلطه على أشد الحيوانات ظلمة، فتتكشف له ، وتقدم أمامه كل مآسيها الخفيــة ، وكل محاسنها المحتجبة . وفى تسع حالات من عشر كان ، وهو ينكر ذلك ، يكتشف ..

زد على هذا أن عقله قد رأى . وكان واثقا . فلا حاجة به الى انتظار ما تراه العينان ، أو تسمعه الأذنان ، على ما يتوقف على الرؤية من الحظ ، وعلى الســمع من الاختلاس .. والشاعر الحق هو الذى يحرز ويلهم ، وعقله من القــوة بحيث يبدع ما ينبغى ابداعه تماما . وكان هو ذلك الشــاعر . وكانت البيوت ، وكانت الشوارع ، تبدو له من الوضوح والجلاء كالوجوه سواء بسواء : فبعضها خير كريم ، وبعضــها مقرف بشع كالرذيلة . فالأشياء لها ما للناس من أمراض ..

وكان يعبر باريس، كما لو كان طبيبا ، يشخص ما فى الأحياء والجهات من أدواء .. وكانت مخيلتــه وحدها تسعفه بمعلومات أفضل مما يحصل عليه شرطى . وكان فى ذلك الحى من باريس ، حول بيته ، يرى ما يثير تطلعه ويجتذبه : يرى الشيوخ الذين ختموا حياتهم ، والطلاب الذين يبدأون الحياة .. والعمال يتكدسون ، فى عائلات، فى عناقيد ، بمساكن حقيرة .. فما أشبههم عنده بفصائل الحيوان المعروضة ، مصبرة فى المتحف ، أو جوالة فى الأقفاص ، وقد وضع على كل منهــا بطاقة بجنسه واسمه ! ..

وفكر بلزاك ، قائلا فيما بينه وبين نفسه : « وهذه أيضا فصائل بشرية ، يحسن أيضــا ترتيبها وتنظيم أنواعها ! ..

وفى ذات مساء عاد مهتاجا ، فقد اكتشف فى شارع سانت جنفياف بيتا كئيبا موحشا ، بدا له مسرح دراما

انتظمت فصولها فى ذهنه . فدار من حوله ، مبهورا ..
فهو منذ أكثر من شهر يبحث عن ذلك البنسيون العائلى
المرذول ، الذى نرى فيه شخصية فى انحطاط خلقى
مروع ، وهى مع ذلك فى الوقت نفسه فريسة ضيق
مادي ، مما يؤثر فى القارىء ، ويهزه هزا ، كمشاهدة الدم
يسيل فى الروايات التمثيلية على خشبة المسرح ...

أجل ! .. لقد وجده ! وها هو ذا ماثل أمامه ! ..
ولا ضير اذا لم يكن على واجهة هذا البيت يافطة :
Pension de Famille « نزل عائلى » ! .. فهى غلطة من
القدر سيصلحها هو .. فالتهم بعينيه : الشارع ،
والحيطان ، والحديقة .. وسيكون اسم صاحب البيت :
« الأب جوريو » ! ..

وتراجع وهو يتأمل اكتشافه .. فكاد يدوس بائعة
ملابس قديمة (روبابيكيا) .. فأهابت به بلهجتها البلدية
القحة :

هولا ! .. على رسلك ! .. ولا تدس الناس ! ..

فالتفت اليها ، وضحك ، ضحكة العزم الرشيد ..
ففى سرعة البرق ، أسعفته مخيلته بكنز جديد ..
فضحك سرورا ، وتمتم :

ـ انها هى ..

اجل .. صاحبة البنسيون ! .. انها هى أمامه ،
سيصورها على نحو هذه الثرثارة ذات الشرب ، وبدأ
فى الحال يحدثها ، حتى يلتقط من هذا الفم الشعبى
لهجة الحديث ، وسياقه ، وأسلوبه ، بحيث لا يعود
أمامه الا أن يتم خلق الشخصية المرسومة أمامه ..
وكانت المراة لا تترك مجالا لقائل ، فتدفقت .. فنال منها
فوق ماتمنى ..

ثم جاس بعد ذلك خلال الشوارع المحيطة ، ليرسم

الخريطة . ووضع فى ذاكرته كل ما رآه من : ارصفة ، وبيوت ، وحوانيت ، وسكان ..

ثم تذكر أن الكاتبة « جورج صاند » ستتعشى عنده مع بعض الصحاب . فأسرع ، والوقت صحو . وقد جف وحل الطريق .. وكان خفيف الخطا ، لأنه قد ملأ وطابه مما أغدقته عليه حساسيته الفنية . ان نورا خفيا داخليا يضيئه الآن . ان شخصيات قصصه قد حفت به ، وسارت من حوله فى مواكب حافل . انها الآن طول بنانه ، تلبى رغباته نداءه .. انها تسير وتقف ثم تتحرك بارادته . على جبين كل منها سمته ، وعلى لسانه كلمته ! انه سيرسم الأب جوريو هـذا ، رب البيت العائلى ، رجلا قد قتلته بنـاته ، وقتله جحود أولاده ، الذين أعطاهم حياتهم ، ثم يعطيهم حياته..انه رجل من الشعب الفقير ، هـذا الاب .. وبناته قد رفعهن جمالهن الى الى الطبقات الراقية من المجتمع .. والأب الغبى ، له عقل حيوان ، ولكن قلبه حتى موته فياضا بالحب الابوى .. اما الفتيات ، الفاتنات الأجسام ، المنمقات الأذهان ، فليس فيهن ظل نفس ، أو ظل حس وشعور ..

آه لو استطاع أن يبدأ منذ الغد هذه القصة الرائعة ! ولكن ما زال أمامه على قصة
خمسون صفحة .. فاذا كتب عشرا فى اليوم ، خلص بعد خمسة أيام الى صاحبه الأب جوريو ! ..

غير أن الأصحاب لا يقدرون عمل الأديب ، فيجيئون الى زيارته ليعطلوا الهـامه ، فى حين أنه فى غنى عن الهامهم ! .. انها لجريمة ان يوقف هذا الالهام أو يعطل انه ميراث تنتظره الانسـانية متلهفـة ، لتضيفه الى تراثها الخالد ! ..

ووصل الى بيت شارع كاسينى . وصعد الى غرفته،

وفتح النافذة ، واتجه الى دير الكارمليت ، وصاح فى راهباته :

ــ أيتها النساء القــديسات ، تضرعن الى الله حتى يصبح أونوريه دى بلزاك عبقريا ! ..

وكان قد احتر من شوطه الطويل ، ومن كل هــذه الافكار المثيرة التى هزته ، فنزع سترته « الردنجوت » وارتدى مسوح راهب سوداء .. وربطها حول وسـطه بزنار أحمر ! .. اعلان همة قعساء ! .. .

ثم نادي خادمته « روز » .. وكانت فتاة بسيطة ، سليمة النية ، شديدة الجلد على العمل .. وقال :

ــ ماذا أعددت ياروز للعشاء ؟

ــ ما طلبه سيدي ! ..

ــ وما طلب سيدك ؟

ــ مرقا ! ..

ــ مرق ؟ .. سبحان الله ! .. ثم ماذا ! ..

ــ وسلاطة ! ..

ــ محار ..

ــ يا للشيطان ! .. وبعد ؟

ــ تقدمينه أولا ؟

ــ لا .. ان سيدى قال لى هذا الصباح أن أقدمه فى آخر الطعام ! ..

ــ ياروز ! .. انت مدهشة ! .. هل عملت قهـوة ثقيلة ؟! ..

ــ أجل ياسيدى !

ــ قدميها اذن مع الحلوى .. ولكن اعملى أثقل منهـا كثيرا لى .. تضعينها على مكتبى ، فتنتظرنى ، لاننى بحاجة اليها هذه الليلة ، عنـدما ينصرف مدعوى .. والآن ، ها هو ذا الجرس يدق ، فاذهبى وافتحى ..

ولا تدعيهم يدخلون ، فسانزل الى الحديقة ..
انها كانت « الهة الشعر La Muse » كما كان يطلق عليها . كانت « جورج صاند » فخجلت من لباسه ، وان كانت قد رآته بديعا . وكان بلزاك يراها للمرة الثالثة . وان كانا ، فى المرتين الاوليين ، قد تخاصما وتصالحا !.. وعلى رغم اعتزازه بنفسه واظهار سلطانه ، فقد كان محيا هذه المرأة الشابة العاجي ، وعيناها اللتان بلون البرنز اللامع ، وفمها الأحمر الفتان ، تأسره الى ابعد حد .. فكان مرتاحا الى استقبالها . ثم انه كان يشعر بانهـــا تعبده . أو أنها تحسده . وكانت تناديه ب «يا استاذى»!

وكان يهمه ألا ينقطع حبل أفكاره .. فلم يسألها عن قصتها « انديانا » ، التى ظهـــرت حديثا ، فهو لم يقرأها . (وهل عنده وقت ؟!) .. ومضى يحلم بصوت مرتفع فى بنسيونه العائلى بشارع سانت جنفياف .. وراح يتخيل نزلاءه .. فتفكهت بذلك .. وقالت :

ــ وهل رأيت كل هؤلاء الناس ؟

فأجابها :

ــ وماذا تفضلين : ان أقول لك : « نعم » ، أم أن أقول لك : « لا » ؟ .. فاذا أجبت بالايجـــاب قلت فى نفسك : « انه ليست له القدرة على الخلق والابتكار ! » واذا أجبت بالنفى قلت : « انه يخدعنى » ..

فابتسمت ابتسامتها الحزينة ، الغامضة ، الساحرة، وأقالته من الاجابة على سؤالها ، وطلبت اليه المضى فى حديثه ..

واتى « توماس » ، صديقه الروحي ، الذى صـــار عنده البنسيون العائلى ، برجاله ونسائه جميعا ..

وجلسوا الى المائدة يأكلون ويشربون .. وهو مالك ناصية الحديث .. حتى فكتور هيجو لا يعجبه ! انه

يراه يخلط بين دواوين الشعر ، مثل : « ليزورينتال »
Les orientales ، ومسرحية « هرنانى » Hernani
والروايات القصصية كقصة : « نوتردام دى بارى »
Notre-Dame de Paris فقالت جورج صاند :

ـ لعل هذه ليست الا تعبيرات مختلفة عن فكر واحد ! ..

وهو يعارضها :

ـ انها تعبيرات غامضة ، حتى ان هيجو لم يصدر كتابا واحدا الا وله مقدمة توضيحا لفكرته ! .. وانه يبدأ بتوضيح الكتاب ، ووظيفة الكاتب هى البساطة ليستنير الناس ! .. والزمان قلما يجود فى جيل واحد بأكثر من عشرة رجال ، اذا جاد ! ..

ولما سألوه عن أعظم شاعر فى عصره ، وتنازعوا على موسيه أو لامارتين أو هيجو ، قال :

ـ بل هو كوفييه cuvier ! .. فهو جبار القصيد ! وقد ملأ الدنيا ، وأعاد خلق عدة أجيال ! وهو الرجل العظيم الذى ينبغى شرب نخبه ! ..

ورفع كأسه .. وأجاب على سؤال من مدام جورج صاند ، وجهته اليه بلطف ، ردا على ما قاله من أن البلاد بحاجة الى زعيم ! ..

ـ اذن فأنت ستدخل ميدان السياسة .. و .. وتترك الأدب ؟! ..

فهز كتفيه ، وفتح رقبة ثوبه الرهبانى :

ـ الأدب ؟! .. ولكن الأدب ياسيدتى لا وجود له !.. ان هناك الحياة التى تعد السياسة . والفن جزء منها . وأنا رجل يحيا . وهذا كل شىء ! .. رجل يصنع حياته، ويكتبها ! .. وفى رأسى موضوعان أو ثلاثة مواضيع

لكتب .. تصل الى قلوب لا عداد لها ! ..

ـ كالبنسيون العائلى الذى ذكرته لى بشارع سانت جنفياف ؟! ..

ـ كلا مطلقا ! .. وانما أريد أن أضع قصة اسمها « المعركة La Bataille » وستكون هائلة ! .. هى خلاصة جميع الحروف ! .. وستبدأ بدوى مدفع .. وسينتشر بارودها من السطر الأول .. ولا تنتهى الا بصيحة النصر ! .. وسيؤخذ القارىء فى تضاعيف العراك كالجندى .. وان كان الجندى يحار ولا يرى شيئا .. أما القارىء فسوف يرى .. وسيكون فيها الجهاد كله ، من : عناء ، وضنى ، ودم .. وسيكون فيها : الموتى : والجرحى ، والقواد ، والأبطال ، والجبناء .. وستكون فيها : المهزلة فى المأساة ، والتفاصيل ، والنظرة الاجمالية .. وفوق هذا كله : نابليون يلوح بقبعته فى الأفق ، مشرق الطلعة فى الشمس الساطعة ! .. ثم أضع بعد ذلك « ملحق المعركة » .. سأجعله عن الجندى الذى زعموه قد مات ، وتزوجت زوجته برجل آخر ، وهو يعود ، فلا يريد أحد أن يعرفه ، أو يعترف به (١) ! ..

وصاحت مدام جورج صاند ، وقد نظرت الى ساعتها على شعاع من القمر :

ـ رباه ! .. بقى على نصف الليل عشر دقائق ! .. ستفوتنى المركبة الى الأوديون ! ..

---

(١) لعل هذه الفكرة نفسها هى التى اقتبسها من بلزاك ، بعد مئة عام ، الكاتبان المشهوران .

« مارسيل بانيول » و « ب . تيغوا » ، ووضعا فيها قصتهما التمثيلية الخالدة : « تجار المجد » ، التى نشرنا ملخصها فى كتابنا : « الموجة العذراء » ! .. « ص »

ـ كلا ! لن تفوتك ! .. ياروز ، هاتى الشمعدانان الفضية ! .. وأنت يا سيدتى .. لقد تشرفت بزيارتك لى ، وبمحادثاتنا ، وما وصلنا من نتائج .. انك معى .. الست معى فى أن المهمة كبيرة جدا ؟ .. فعلينا أن نحس بأن الله يظاهرنا ، وأن نستسلم لله .. تفضلى ! .. سأضيء لكم بعض الطريق ...

ثم عاد ليعمل ، بعد أن استودعهم الله فى آخر الشارع وكانت الشموع قد سالت على كل ثوبه .. فخلعه ، وألقاه فى ركن ، قائلا :

ـ يا مسيو بروسون (الترزى) سترجى أن تزيل دهنه ! ..

ثم لبس ثوبا آخر ، أبيض ، بزنار أسود ٤٤ وشرب فنجانا كبيرا من القهوة ، ونادى :

ـ روز ! .. انها ليست قهوة قوية ! .. روز ! لقد نامت ، فهى تنام دائما ! .. ولا يمكن للانسانية أن تتقدم ما دام النوم حليفها .. وورائى عشر مقالات مطلوبة لهذا الأسبوع ! .. ثم واجب الذهاب لحضور قران .. يوم آخر ضائع .. لابد لى من شراء عربة ! .. ستكون لى .. فسأكسب فى الشهر القادم مبالغ طائلة .. وبعد عشرة اشهر قد أستطيع سداد أكبر جانب من ديونى ..

وصب فنجانا آخر من القهوة :

ـ لا طعم مطلقا ! .. لابد لى من أن أشترى البن ، وان أضع القهوة بنفسى ! ..

وأدنى المشعل من تمثال صغير لنابليون فوق المدفأة ، وتأمله ، كأنه يلتمس نظرته ، وكأنما يقيس نفسه به .. وقال :

ـ يا له من رجل منيف فى الرجال ! .. لقد صنع كل شيء ... ومازالوا يمثلونه مكتوب الذراعين ! ..

ثم جلس الى مكتبه ، وخط سطرين سريعين على قطعة من الكرتون الأبيض ، وعلقها فى حمالة سيف الأمبراطور .. ثم ضحك من صميم قلبه ، ضحكة الظافر .

لقد كتب على الورقة :

« ان ما بدأه نابليون بحد السيف ، سأتمه ، أنا ، بسنان القلم ! ..

- ٢ -

لم يدهشه ، وهو فى هذه الحالة من العبقرية المواتية والفكر الظافر ، أن يجد ، ذات يوم من أيام سبتمبر ، عند ناشره « جوسلان » ، خطابا من سيدة عظيمة ، تعبر له فيه عن اعجابها . خطابا غفلا من الامضاء ، وان كان الورق ، والخط ، والأسلوب ، كلها تدل على مصدر نبيل . ففكر : « هذا طبيعى . وكان حتما حدوثه . أولا لأنى أستحقه . ثم اذا رعتنى العناية ، أفسحت لى الى صالونات الطبقات الراقية سبيلا ! ..

ولما كان لا يستطيب الهناء المنفرد الأخرس ، فقد تحدث عن هذا الخطاب الى مدام دى برنى ، ملكه الحارس ! .. فقالت :

ـ آه ؟ .. أحقا ؟ .. أرنى اياه !

ـ اننى لا أحمله معى لأتنزه به ! ..

فتنهدت ، وقالت :

ـ أو أنت تخفيه عنى ! .. لا تفعل ذلك ياحبيبى ! .. ولا تنس ما أنت مدين به لقلبى المعنّى ! .. لماذا ياربى حيل بيننا وبين أن نعيش معا ، بعيدين عن العالم ؟ .. ان حنانى كان عندئذ يكفيك .. فلا تتهافت لتفتح فى السر خطابات هؤلاء النساء الفارغات ...

ـ ولماذا هن فارغات ؟ .. أذلك لأنهن يقرأن رواياتى ؟

ـ بل لأنهن يكتبن اليك ! .. آه لو رأيت هـؤلاء النسوة ! ..

ـ وعلى ذلك ، فأنت فى تسامحك أو فى غيرتك ..

ـ قل فى حبى ! .. واقنع بالكلمة الحقة ..

ـ وعلى ذلك ، فأنت لا تسلمين بأن فيهن من تستحق النظر ! ..

ـ وهل كتبت اليك أنا ؟ .. استمع الى قلبك ، لا الى غرورك . ان قلبك ، عندما تريد ، هو أكبر وأعظم ! وانى ، اذ أحدثك هكذا ، لا أدافع حتى عن حبنا .. وانما أنظر الى ما هو أسمى من ذلك . وأفكر فى مواهبك . فهن سيفسدها عليك . وكلهن يردن الاتصـال برجل شهير . فحذار ، اذا كنت تحب مجـدك .. حذار من الفتنة بالنساء : متاع الغرور ! ..

فلما مضى عنها ، وقد اغرورقت عيناها بالدمع ، نظرت الى مرآتها ، وقالت : « ان المستقبل لا يمكن أن يكون لى . فلم أعد الا شيئا قديما ضعيفا .. ولكننى قـد تمسكت من مجامع قلبه ، ولن تمتد يد الى اختـلاس الماضى .. » !

أما هو ، فى عودته الى بيته بشارع كاسينى ، فكان يفكر هكذا : « انها لا تذكر كيف نالت بالأمس كل شىء .. فهى تتحدث عن كفايتى ومواهبى ! .. ولكننى فى حاجة الى انعاش هذه الكفاية ، وتغذية هذه المواهب ! .. فلا يجوز أن نحول الاحتياجات الفنية البسيطة الى خيانة مؤلمة ! .. » ومع ذلك فقد ظل ضميره يحاسبه . فترك خطاب المرأة المجهولة بضعة أسابيع بلا جواب .. وبعد لأى كتب :

(سيدتى . اتوسل اليك ان تذكرى لى اسمك ! ..)

فجاءه ردها :

(المركزة دى كاستري ــ شارع دوباك)

فبهر : « صدق ما خمنته ! .. أهذا هو ما تطلق عليه لور : « امرأة فارغة » ؟ .. الأولى ألا أحدثها بعد هــذا هــذا الذى يقــدمنى فى مجتمــع باريس .. ولــكنها صدقت فى توصيتها لى بالحذر.. ان مركزى يقضى بذلك فاذا كانت سيدة كبيرة تعجب بى ، وتعطينى عنوانها ، فلن يكون ذلك سببا للجرى الى لقـــــائها .. يجب أن أنتظر ، حتى نسألنى هى ماذا أنتظر » ..

وكان من القوة بحيث أنتظر فعلا . صبر وظفر .. ولم يقصد قصر شارع دوباك الا فى ٢٨ فبراير ١٨٣٢ ، بعد ما وجهت اليه الدعوة . على أنه كان يذوب شوقا لرؤيتها . وقد سأل عشرين شخصا عنها . وكان يعلم أنها سيدة عريقة ، تعيش منفصلة عن زوجها ، وأنها على جمال عظيم ، وأنهــــا قد عرفت الحب عن غير طريق الزواج ، باتصالها بالامير فيكتور دى ميترنخ ، ورزقت منه ولدا .. ولم يكن هـــــذا كله الا ليزيد نار بلزاك اشتعالا ! ..

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثامن والعشرين، كان قد اســتأجر مركبة لتوصله ، ولم تكن قد جاءت بعد ، فهو ساخط .. وسلموه خطابا .. فاستعاذ بالله من أن يكون تغييرا للموعد ! .. ولكن طابع البريد كان من بولونيا . مدهش ! .. ألكون هناك معجبة بعيدة ؟! كان الأمر كذلك فعلا ! وكان الخطــاب من امرأة ، امرأة قرأته ، وقرأته بعناية ، وتحمست لكتبه الأولى ، ووقعت خطابها بامضــاء « الأجنبية » .. وكان خطهــا أنيقا ، دقيقا .. وكان أسلوبها رقيقا ، شاعرى اللهجة كانت فيه نفس تحس ، وتشعر .. فابتسم ، قائلا لنفسه : « اذن فأوربا كلها تقرأنى !.. فسأروى ذلك

فى قصر شارع دوباك.. وكل محبوب يغار فيسهل ! ..»
وجاءت العربة أخيرا ، فألقى نظرة اخيرة على سترته الجديدة الخضراء ، وصدريته الكشمير ، وأهاب بالسائق أن يسرع .. وصار يمنى النفس ، فى الطريق ، بعقد محالفة بين المجتمع الراقى الأرستقراطى وبين أفكار أونوريه دى بلزاك ! .. فكلتا القوتين بحاجة الى الأخرى ! .. حتى اذا ما وصل ، راقه ذلك الحى ، الصامت ، النبيل ..
ثم دخل القصر متحديا ! .. فأدخلوه الى خدر المركيزة ، حيث كانت معتكفة ، متمددة على ديوان ، فى ثوب بيتي (بنوار) من الكشمير البنى .. فرأى ، من أول نظرة ، أن شعرها الأشقر يتألق كالمذهب البندقى ، وأن محياها شبيه بوجه دمية صغيرة .. فانحنى .. فقالت :
ـ ما أشد سرورى بمعرفتك يا مسيو بلزاك ! .. ولكننى آسفة لأنك تجدنى اليوم مريضة ! ..
وكان أمامها ، على مقعد كبير ، سيد فى بذلة سوداء ، فقال بلزاك :
ـ سيدتى ، تجنبى الأطباء ، وانت تشقين ! ..
فقالت المركيزة ، مخاطبة الرجل ذا البذلة السوداء :
ـ أسامع يا دكتور ؟ ..
ـ أسامع يا دكتور ؟ ..
فتمتم بلزاك محاولا أن يعتذر بأنها دعابة بريئة .. ولكن الرجل نهض ، وحيا المركيزة ، وانصرف ، دون أن يعير بلزاك نظرة ... وكان كل ما حول المركيزة ينطق بالثراء الطائل ، والذوق المصفى : هذه التحف ، والنحائف ، والمراوح ، واللعب ، وقوارير العطر ، والطرف : لوازم المرأة الأنيقة التى تهيم بها ، وأثاث

القرن الثامن عشر النادر ، وبساط هو متعة للعينين ، ولذة للقدمين .. وما الى ذلك مما ينطق عن : اليسر الموفور ، والجاه العريض ، والعز الطويل ... قالت المركيزة :

ـ والآن تخلو لنتحدث ...

وعندئذ تجلى له حسنها العجيب ، ومحياها الوردى النضر ، وجبينها الفاتن ، الذى كان لا ينقصه الا التاج ! وكان شعرها مزيجا من الذهب والحمرة ، فهى شقراء ، غير أن فى شقرتها نارا تتلظى ! .. وكان ثغرها بريئا ، وعيناها فاجرتين ! .. قالت له :

ـ لقد كدت أيأس من رؤيتك ! ..

فأجاب بلهجة الصدق :

ـ سيدتى ، ان حياتى عمل شاق متواصل .. والعمل هو كل شىء عندى . فأنا لا أخرج أبدا ! ..
فقد كنت منذ خمسة عشر يوما عند البارون جيرار ،

ـ آه ! .. يا مسيو بلزاك ! .. بالله لا تبالغ ! ..
ويوم الثلاثاء عند صديقتى المركيزة دى لابوردونيه ! ..

ـ اننى لم أمكث الا ساعة ! ..

ـ اننى لا أعتب عليك شيئا .. ولكن .. لقد غرت ! ..

وحدثته عن بطلة احدى قصصه . وساءلته : هل لها وجود فى حياته ؟.. فتركها تفهم ، من طرف خفى، ان لها فى حياته وجودا !..

لقد كان للمركيزة ماضيها .. فحرصت على ان تشعره ، للوهلة الاولى ، بأن له ماضيه .. غير انه كان من دونها الفبور !.. وتساءل :

ـ ما اعظم فضلك بدعوتى اليك !.. فأين لنا ، نحن الفنانين ، العماد المخلص ؟.. أين الاصدقاء الحق ؟..

انى لمن كان مثلى أن يلقاهم ؟ فانى أنام فى الساعة السادسة ، فى الوقت الذى تستعدون فيه للذهاب الى المراقص ، والسهرات .. وقد حالت تلك المشاغل طويلا بينى وبين الحضور لرؤيتك .. فقد كنت منطويا على ذات نفسى ، أتأمل ما يدور فى دماغى ، وأدونه ، وكأننى لم أعد انسانا من هذا العالم !..

فبدا عليها الاصغاء له بشغف . فقد بدأ يتكلم ، ولا يتوقف .. ولما دقت الساعة الخامسة نهضت معتذرة اليه بأنها مضطرة الى الخروج :

ولكننى سعيدة بزيارتك . واعلم انك تجدنى دائما فى المساء ، حتى العاشرة ..

فخرج مفتونا . وحدث نفسه ، وهو ينزل شارع دوباك ، متجها الى طريق سيفر: « سوف أحبها !.. سأحبها !. انى أحبها !.. أخيرا ، قد وجدت امرأة جميلة ، دونها أهوال !.. هذه هى نشوة الحياة والحب !.. انى أذوب شوقا اليها .. وانى أريدها قبل أن تطلع شمس الغد !.. وانى ، ولاشك ، قد عرفت من قبل امرأة هى ملك .. امرأة فعلا.. ولكن هذه هى أنثى بكل معانى الانوثة !.. هذه امرأة ، ليست أما ، وليست صديقة ، ولكنها خليلة !.. »

وسار مسرعا ، حتى تصبب عرقا : « انى أسمن.. وهذا فظيع ! » . ونادى مركبة .. وبدل ان يعطى السائق المندهش عنوانه قال : « لابد من خليلة ، آية فى الجمال ، تتحدى كل النساء والعذال .. أما مابقى من الحب فليس الا خبا » !..

وبعد يومين ، فى الساعة العاشرة مساء ، كان عندها . وكانت المركيزة فى ثوب الرقص ، وفى زهوة الحسن .

وكانت واقفة أمام المصطلى ، تدفىء قدميها الصغيرتين.. فبادرها بقوله :

ـ انت !.. انك جديرة بالآلهة والارباب .. ولشد ما أنا آسف ، لأنني لست الا بشرا !..

فابتسمت ابتسامة فاتنة ، وقالت :

صديقة وافرة الجمال .. تحبك ؟

ـ وافرحتا !.. اسرعى فاذكرى لى اسمها !..

فتمنعت :

ـ يستحيل على ذلك !..

وكان دلالها يزاحم جمالها . فكاد قلب بلزاك يقفز من ضلوعه ، وهتف به صوت داخلي : « يا ويلنا من الا سبيل الى القول على الفور لامرأة كهذه : اننا نحبها ، واننا نعبدها ، واننا نريد العيش دائما معها !. فهكذا هكذا تكون الحياة جميلة ، وبطيب العيش !. »

ولاحظ عليها أنها ان لم تكن مفتونة به ، فعلى الاقل بشهرته البادئة ، وانها ، على الضد من كثيرات من النساء اللواتى يفتحن صالوناتهن فى باريس لمشاهير الرجال ، كانت تريده لنفسها ، لا لتعرضه على صاحباتها .. فيالها من امراة عزيزة !.. وراحت تقرأ عليه مقالا فى احدى الصحف عن كتبه ، انكر اطلاعه عليه ، فقالت :

ـ اذن فاسمع : « ان كتب بلزاك سببت الارق والسهاد فى قصور الاغنياء ، وفى أكواخ الفقراء ، وصوامع الشعراء ، على السواء .. »

وكان هو الذى كتبه !.. فعادت تقول بحرارة :

ـ ليت شعرى ماذا يصيب النساء اللواتى يهمن بك ، لو اننى أخذتك معى فى الربيع الى قصر فينيسيا

ـ انى لا أرى بك بأسا كرجل .. أتعرف ان لى

(البندقية) .. وهناك نغلق على أنفسنا بابا ، أنت وأنا ، فلا تكتب عندئذ الا لى !..

فينيسيا !.. قصر !.. انا وانت !.. لقد أصيب بالدوار من هذه الكلمات .. ماذا تعنى بها ؟.. أهو منها غرور ؟ أم هو حب ؟.. أم هو حلم ؟.. أم هو حق ؟..

فلم يجبها .. وانما ارتمى على كوفيتها ، وقبلها كالمخبول .. فقالت فجأة :

ــ رباه !.. قد انتصف الليل !.. انى قد تأخرت الى حد فظيع !.. أتحب ساعة الحائط الصغيرة هذه ؟ انها كانت للملكة ماري انطوانيت .. وفى فرساي كانت تعد لها ساعات هنائها الاخيرة ..

فقال بلزاك : « رباه !.. انها لاتدلنى أنا الا على الدقائق الطويلة التى ينبغى لى عندها الرحيل !.. »

ويالها من ليلة قضاها !.. ويا للأيام التى تبعتها !.. ان الحب الآن يجيش فى صدره ، ويلعب برأسه !.. ولما عاد اليها ، بادرها ، قبل التحية ، بقوله :

ــ انى أعبدك !.. انى لا أستطيع العيش محروما منك !.. اننى لم أشعر قط بالحب قبلك !.. انك أنت التى تعلمنى الحب !.. انك امرأة هبطت على من السماء !..

فنظرت اليه برعب ، وابتعدت ، وتشاغلت عنه .. ودقت الجرس لخادم لتكلفه بأى شيء .. وتغير الجو.. ثم قالت بصوتها الذى لا طابع فيه من التأثر ، قالت لذلك الرجل الذى عبر لها بغفلة المجنون عن العاصفة التى تهب على قلبه :

ــ هذا خبر جديد .. من ذا الذى كان يخطر له مثل هذا ؟ !..

وكانت تلك المركيزة دى كاستري امراة لاتعرف الحب . كانت امرأة صالون ، ومظهر، ووجاهة .. كانت تريد أن يتهالك عليها هذا العبقرى الفذ، والنجم البارع فى سماء الادب ، حتى تستغله فى أهوائها الشخصية ، ونزعاتها السياسية !.. فسخرته فى الدفاع عن « الدوقة دي برى » .. وبذلك أقحمته فى الحزبية ، هو ، الكاتب الروائى ، الذى كان يجب أن يبقى بنجوة عن الاحزاب .. فانقاد ، مغمض العينين ، واستسلم لهذه الاهواء كالطفل ، زاعما ان هذا هو الحب !..

وتورط فى المظاهر . لابد من ان يصبح فى ثيابه ، وهيئته ، وفى عيشه ، ومسكنه : منسجما مع ذلك الحزب السياسى الوجيه ، الذى ينطق بلسانه ، ويدين بمذهبه !.. فهو يوصي خائطه « بويسون » ، بشارع ريشليو ، بأن يتخير له ألوانا وأشكالا معينة من الردينجوت . والصدريات الكشمير ، وغيرها وغيرها وكان هذا « الترزى » رجلا متسامحا ، ساذجا ، يمد حبال الحساب لهذا الكاتب الشهير ، ويضعف للفصاحة ، ويتأثر بالبلاغة ، ولا يستطيع ان يقاوم خلابة عميله القصصى الجذاب ، فدخوله عنده ، وحديثه معه ، وتوصيته اياه ، تساوى لديه ما تساويه النقود مئة مرة !..

ويقرر أونوريه شراء مركبة بحصانين انجليزيين مطهمين !.. ويصر على ان يكونا أنيقين ، يتطاير من حوافرهما الشرر ، ويتصاعد من شدقيهما الزبد !.. ثم لايلبث ان يشكو كثرة أكلهما ، ويقول : «يا للملعونين! ان حساب الاسطبل ليس له آخر!.. انهما لايتغذيان بالاشعار !..» .. ولكنه لم يكن يدفع حساب الترزى ، ولا حساب الاسطبل !. انه كان يمنى النفس

بالدفع السريع .. أو ليست لديه مع ناشرى كتبه عقود عظيمة ؟.. وعليه ان يمضى فى العمل ، العمل المجهد الذى سوف يتمخض عن آيات بينات ؟.. ويمكن لدائنيه ان يناموا ملء الجفون ، فهو لايلبث ان يلعب بالذهب ، ويقيم المآدب الفخمة ، والاستقبالات المشهورة ، ويدعو الى الاوبرا ، والمطاعم الشهيرة ، والشانزليزيه ، ويفتح الصالونات ، ويشهد المراقص والحفلات ..

وفى أثناء ذلك الهوس بالحب الارستقراطى ، وبأرستقراطية الحب ، تكتب اليه مدام دى برنى ، من ضيعتها بقرب « نيمور » ، تقول :

(تعال ، لتراني ، يا معبودى ! .. ستكون هنا ، الى جانب عزيزتك ، أسعد ما نكون حالا ، وأخلى بالا ، فنكتب كثيرا ، ونكتب طويلا .. وسأساعدك ، وسألهمك ! ان الحب خلاق عظيم !)

فيجيبها :

(ليتنى أستطيع يا صديقتى المسكينة ! فانى فى صدد المفاوضة فى عملية نشر قد تحول حياتى وتبدلها ، وبقائى ضرورى . ثم لابد من الكتابة أيضا ، والكتابة دائما ! . عشر ملازم فى اليوم ! وأنا أشتغل الآن سواد الليل . فالى اللقاء أيتها العزيزة .. فكرى فى قبل المنام . فهو الوقت الذى ترتاح فيه جميع الكائنات ، أما أنا فأبدأ فيه العمل ، وأدأب ! ..)

ولم يكن فى هذا كاذبا الا بعض الكذب . فان الحياة المترفة التى دخل فيها تتطلب نفقات طائلة . يريد ان يمثل الحب ، ويمثل الحزب . فهو يغرق الآن غرفته بالزهور : « لم يعد لى الحق فى أن أستنشق كفلاح ، كما لم يعد لى الحق فى أن أفكر كخفير !. »

وهو يفكر ، ويتنفس ، ويكتب ، ويجرى ، كعاشق واله مفتون . فيقضى ما بعد الظهر كله مع المركيزة . وفى المساء ، يجلس الى جانبها فى مقصورتها بدارالتمثيل. ثم يقودها الى قصرها . وفى المركبة يتناول يديها ،

وذراعيها ، وبقبل ركبتيها .. وهى تدعه يلهو ويعبث ، حتى اذا ما كانت زاوية شارع دى فارن وشارع دوباك، أصلحت من شأنها ، وزينتها ، وشعرها ، واستردت جمود الوجاهة ، وقالت له ، أمام خدمها وحشمها ، على عتبة القصر : « وداعا يامسيو دى بلزاك ! » .. وهذا ما يصعق له العاشق المشدوه !..

فيهرب فى صميم الليل ، لا يلوى على شىء ..

من تكون هذه المرأة ؟. هل هى ملك كريم ؟. هل هى وحش ضار ؟.. لماذا تتركه يتناول منها القبـــلات المجنونة ؟.. لمـاذا تهمس بكلمات مستعرة ؟.. لمـاذا تستسلم للأهواء والبدوات ، ماعدا : الهوى الاعظم؟ ! ماذا تريد ؟..ماذا تنتظر منه سوى أن يطلب ما يطلبه بالحاح المجانين ؟.. فاذا كانت لا تحبه ، فكيف تعطيه يديها : ووجهها ، وشفتيها ؟.. فضـــلا عن نظرتها وكلمتها ، وقبلتها ؟ !. ثم هى تندفع اليه فى هوس ، كاندفاعه اليها .. ثم لا تلبث أن تتمالك ، وتتماسك ، وتمتنع دائما !.. فهل امتلاكها أمرها ، وســيادتها على نفسها ، وتحكمها فى عاطفتها ، هو مزاجها وشهوتها، وليس لها غير ذلك شهوة ومزاج ؟ !.. اذن فهوشيطان الـكبرياء قد تمثل امرأة !.. فى حين انه ، هو، الكاتب الشاب ، يتكسر ضلوعا ، ويتقطع أنفاســـا ، وبموت اشتهاء !..

وكان كلما زعم انها أصبحت له أبعد ما تكون عنه.. كانت تحاوره ، وتداوره .. كانت امرأة من ذلك النوع الوصولى ، الذى يريد أن يبلغ أغراضـــــه فى الجاه والسلطان ، ولو على أشلاء الرجال .. ولو داس ، فى كل خطوة ، القلوب ، والعقول ، والاجسام !..

وجاءها ، ذات يوم ، وهو يشتعل ، ويتلظى كالجمر

الحبيس فى الموقد ، معتزما كل شيء ، بعدما كان قد غادرها فى الساعة الثانية صباحا ، وقد انهكته الوان من الملاطفة المضنية ، والملاعبة المهلكة .. فوجدها فى حديث مجدى وقور مع رجل من كبار رجال الدين ، تعترف له ، وتفضى اليه .. فعرفتهما بعضهما ببعض، قائلة :

ــ لقد كنا فى انتظارك ، يامسيو دى بلزاك ، « المنسونيور » وانا ، لنسمع من فمك القول بضرورة رد عظمة الدين السابقة اليه ، واعادة جلاله .. أو ليس واجبا على فرنسا ان تعيد الى الاساقفة مقاعدهم فى مجالس السلطان ؟

فبهت بلزاك ، وكاد ينفجر.. وأحس بأن فى داخله اسدا غاضبا يزأر.. فنظر اليها بعينين ناريتين ، لم تلبث ان خبت نارهما ، وحل محلها نورهما .. فقد كانت امرأة شائقة ، ناصعة ، فى ثوب أزرق ، تتدلى أكمامه ، ويتساقط الهناء من اناملها ، أنامل تلك اليد الناعمة ، البضة ، ذات الاظافر العنابية ، التى طالما امسك بها ، وضغط عليها ، وطالما لثمها ، وقبلها !.. رباه ان الاسد قد ارتد نعامة !..

وانصرف القس بعد ساعة لاحت دهرا .. فتمتم بلزاك والدموع فى العينين :

ــ أيكون لك اذن قلب مجرمة ، ليحملّ كل هذه التعذيبات ؟ أفلا تشعرين بأنى أتألم ، وانى أموت ، وانى سأذهب ، وانى سأنتقم ؟..

فرفعت كتفيها الصغيرتين ، واضافت الى النار خشبا ، وقالت :

ــ عندما يكون المرء نبيلَ المنبت ، فعليه أن يقوم بتكاليف النبل . أما وأنت نبيل ، مادمت توقع باسم

اونوريه دى بلزاك ، منذ سن السابعة والعشرين ، ولم تترك لقب الشرف هذا الا عندما اشتغلت بالطباعة .. أليس كذلك ؟..

فأحس بأنها تتعمد ان تجرحه .. وبدا له ان يرتمى عليها .. وان يصرخ فيها : « أى حيوان هو انت ؟ !.. لقد خدعت فيك !.. »

ولكنه ما كان ليأتى بحركة غير موجهة من مخيلته ، تابعة لنزعات قلبه الكريم .. فتوقف ، وجلس ، واخذ رأسه بين يديه ، وزفر : « رباه !. رباه !. »

وأعلن الخادم حضور أحد الناس . وارتجف الاسد على ساقيه . وانسحب ، وهو يلقى على ربة صبابته نظرات التائه الضائع المحروم .

ووجد فى ذلك المساء رسالة من صديقة كريمة ، هى مدام زولماكارو Zulmacarraud .. وكانت فى سن أخته لور ، وكانت رفيقتها فى المدرسة . وقد رآها عندما تزوجت من كابتن فى المدفعية ، وسكنت فرساى ، ثم سان سير ، وقد زعم عندئذ انه بحاجة الى وثائق تدعم قصته المشهورة « المعركة » ، فتقرب من الحربيين ثم صار الكابتن قومندانا . وانتقل وأسرته الى « انجولم » مع مدفعيته . وكانت مدام كارو امرأة رقيقة ، ذات قلب رشيد ، وذكاء حاد ، وفكر أنيق . تذوقت فن بلزاك الرفيع فى قصته : chouans ، و« المرأة فى الثلاثين » .. وكانت مفتونة باستقبال مؤلفهما فى دارها ، فكتبت اليه :

(تعال اذن . يابلزاك العزيز . فالقومندان ينتظرك . ولن نزعجك فتستطيع أن تعمل هنا خيرا مما تعمل فى باريس . قاتلة الرجال !..)

ولم يكن على استعداد للشعور بالصداقة الكريمة الخالصة فى مثل هذا الخطاب . فكتب مبديا أسفه لأنه

ليس حرا . فهو مشـــدود الى مكتبه كالمحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، المقيد بالاصفاد ! ويستحيل عليه ان يضيع يومين فى الرحلة . ولا يجوز له التفكير فىالخروج من فرقته . بل انه لايكاد يستطيع الرد بخطاب طويل. فيالها من حياة ! وما دامت أسرة كارو تظهر له المحبة ، فهو يعتمد على صفحها وعطفها .

واستغرق منه هذا الخطاب خمس دقائق . ثم مضى من جديد ، جسما وروحا ، الى جنونه العزيز.. فزعم نفسه عند المركيزة دى كاسترى . فهو يراها ، ويدنو منها ، ويلمسها . ربما كانت المراة صانعة زائفة . ربما كان قلبها ملونا كوجهها . بيـــد أنها ، مع ذلك ، فى زيفها .. يالها من امراة !.. ويا للنبل !.. ليس فيه من التبذل لمحة

وهو اذ يفكر فيها ، يراها معينا للقوة ، ومصـدرا للالهام ، مادامت مخلوقة كريمة العنصر، نبيلة المنبت : « اننى لا أعبدها عبثا ، ان عملى مرسوم ، وجهـدى مرقوم .. انى أراها تخفق بين يدى .. وأملى فيهـا قوى عريض .. وسأجعل منها امراة حقيقية !..

وظل فى هذا الجحيم ثلاثة أشهر . وهو معتزم ان يحول الجحيم نعيما . وقد كف عن التهديد ، كما كف عن التوسل . فشكرته بأن أرسلت اليه يوم عيده ، فى ١٦ مايو ، زهورا . وقد وجـدها من الجمـال بحيث جفف بعضها ووضعها فى كتبه . ثم بدا عليه انه منذئذ يعرف المستقبل ، ولم يعد بشك فيه ، وراح يتسلف الابتسام له . والترحيب به ..

وانحنى على كتفها وهو يقول :

ـ لشـد ماتكون سعيدين ياسيدتى .. عنـدما تصبحين خليلتى !..

ـ وبعد !.. اذا أنا سلمت لرغباتك المبتذلة الشنيعة؟
فقبل يديها بصبابة :
ـ يالك من معبودة !
ـ ثم تخونني بعد ذلك .. فأي ضمان لي ؟
ـ أقسم أن أقتل نفسي اذا خنتك !..
ـ اذن فأنت رجل محكوم عليه بالموت !.
يالهذا الغرام !.. وآه من لذاته !.. قال بلزاك :
ـ هاتي الجبين الذي يفكر في مثل هذه الامور، وهاتي الفم الذي يعبر عنها !.. هاتي !..
فتبيح له من جديد ألوانا من العبث والغزل أشد ماتكون جراة .. تبيحها بعدم اكتراث يحير العقول .. أو تبيحها ببراعة رذيلتها الفائقة !..
ثم حدث يوما ـ بعد كل هذه الاباحة المتكررة ، التي جعلته يتوقع الهناء المرموق بين عشية وضحاها ـ ان رآها تصدر الاوامر المستعجلة في بيت يلف فيه الخدم السجاجيد والبسط ، ويضعون البياضات على الاثاث لحفظه من التراب .. فدهش :
ـ ماذا يجرى ؟..
ـ يجرى ما أعلنتك به منذ اكثر من ثمانية أيام ، ولكنك لم تكن تسمع الا ذات أقوالك .. فانى مسافر الى « اكس لوبان » لأستريح .. وعندما يطيب لك ان تجيء لتراني ..
ـ انا ؟.. آه !.. ابدا !.. ابدا !..
وهكذا ارتد من جديد أسدا غضنفرا ، ينفث فمه نارا ، وترسل عيناه برقا :
ـ ولكن اية امراة انت ؟ !.
ولم يرها بعد . بل تركها ترحل وهو يترفر في بيته لاعنا الحب ، اذ أحس بنفسه يتحول رجلا شريرا ،

حقودا ، مذنبا .. آه ! ما أحوجه الى نفس لطيفة ، تعزيه ، وتشفيه ، وتجعل منه رجلا متزنا ، كريما ففكر فى مدام دى برنى . ولكنه لايستطيع أن يلقاها فى هذه الآونة . وان يعانى أسئلتها ، وان يعترف لها ، لها هى « الملك » ، بأنه ــ على رغم كل شناعات هذه المراة التى لا روح لها ــ مازال بها صبا مدنفا !.. فظل بضعة أيام حيران يتخبط : يستقبل أصحابا ، ويشرب خمرا ، ويثرثر ، ويفوه بأقوال شرسة ، ويوصي بملابس جديدة ، لأنه لايستطيع ارتداء تلك التى كانت تقول المركيزة انها تحبها !.. وحبس نفسه ، يحاول الكتابة. فلم تتمخض خلوته الا عن صفحات شريرة تسب الحب!

وأخيرا ، بينا كان يرتب أوراقه ، وجد خطاب مدام كارو ، ذلك الخطاب الرقيق الكريم من صديقة مخلصة معجبة : « تعال ، أيها العزيز بلزاك ، فلن نزعجك .. وستعمل هنا خيرا مما تعمل فى باريس قاتلة الرجال » فرأى ، من خلال ذلك : الراحة ، والهدوء ، والبوح قرب امرأة لها قلب ، تسعى اليه ، وتدرك مابه. فأسرع بالكتابة :

(انى آت .. اذا كنتم مازلتم ترغبون فىَّ)

ولقد كانوا فيه من الراغبين . فتهافت الزوج والزوجة وولدهما « ايفان » على قارعة الطريق ، ينتظرون عربة البريد التى تحمله .. وقد وضعوا زهورا فى غرفته . فصاح ، اذ رآهم ، بصوت يتهدج تأثرا :

ــ الآن اعرف ما هو الهناء اذ أراكم !. أيتها الوجوه العزيزة ، يا للطمأنينة التى تشيعونها فى نفسى !.. انكم تنقذوننى من حياتى الشاقة !.. وأحس انكم تحبوننى .. وانى آت اليكم كما لو كنت اقصد طبيبا معالجا !.

وقد نبذت أعدائي ، وأشغالي ، وأوراقي ، وكل شيء ! وجئتكم بقلبي وحده . قولوا لي في أية ساعة نتعشى، ومتى ننام ، وبم يلعب الولد ، اني اليوم طفلكم في اجازه. أعدوا لي خبزا مدهونا بالزبدة .. هل على أن «أرش» الحديقة ؟ وأريد ان أربي الارانب !.. أيتها الصديقة العزيزة ، اني أرى على وجهـــك نضره .. وكذلك القومندان ، لولا بعض التكرش !.. ماذا يقول ؟. ان لي كرشا مثله ؟ أتعرفون اني أحب هذا الحوش ، وهـذا البيت ، وهذا الزيزفون ؟.. هل حصدتم زهرا ؟.. آه ما أنقى هذا الهواء الذي نستنشقه !.. اني الى جانبكم اضع نفسي المعذبة ، لتستجم ، وتستروح !..

وترى زولماكارو مشفقة من ان يجدها قد أصبحت فلاحة ، معتمدة على الصداقة لتمحو عندهما صبغها به الريف .. فما أكثر ما قرأوه في الصحف عن بلزاك .. وانه لا يتبع « الموضة » فحسب ، بل يبدعها !. وان النساء يتبعنه تارة ، وانه يتبعهن تارة أخرى !.

وهو ينكر ذلك بتراخ .. وكان البيت بسيطا ، منيرا . فالصالون وقاعة الطعام في الدور الارضي ، والغرف فوقها . وكانت غرفة بلزاك منفصلة بمخدع صغير عن غرف كارو .

ويستأذن القومندان ليذهب الى عمله . ويخلو بلزاك بمدام كارو ، فتقول له :

ـ سأتركك الآن لتستريح ..

ـ ماذا ؟.. تتركينني وحدي !.. لكي أهلك من الضجر !.. انني لا أرتاح الا مع الحديث .. أين تذهب لنتحدث ؟.. هنا ؟ أم في الحديقة ؟ أم على شاطيء النهر ؟..

ـ هنا .. لنرعى ايفان ..

وكان كل ماحول بلزاك عندئذ : عشبا ، وزهرا ، ونسيما عليلا ، وعصافير صادحة .. وامرأة شائقة ، يحن القلب لما طبعت عليه من بساطة صريحة . هى واحدة من أولئك اللواتى يحس المرء أنهن ، طول العمر، فتيات طاهرات . ولم يكن الوجه باهر الحسن ، غير ان النفس المتزنة تغدق عليه حسنا يتفجر كالماء الزلال، من فم نقى . وعينين هادئتين ، تريان ، وتحكمان ، بنزاهه وعدالة . وكان بها عرج خفيف . وكانت تذوب مرارة من عاهتها هذه فى سن العشرين . وقد بثت بلزاك ، يوما ما ، حزنها لما أصابها به القدر.. فعزاها صادقا بقوله :

ـ قد تظلع قدمك ، أما عقلك فهو رصين مكين .. وستكونين زوجة عظيمة ، وأما لا مثيل لها ..

لم تنس ، فيما بعد ، هذه الكلمات الرقيقة..كما كانت قد ذكرت فى يوم زواجها ، رغم انها كانت سعيدة مرحة ، اونوريه بلزاك ، شقيق احدى صاحباتها ، الذى كان دائما رقيقا ظريفا ، تلمع عيناه فطنة ، ولا ينطق الا بما يوحيه اليه الفؤاد .. ذكرته فى لحظات تأثرها ، وحلمت به !..

ولم يكد يمضى عليهما معا ربع ساعة ، حتى كان روحاهما المتحابان يتناقشان بحدة .. قالت :

ـ انك تعلم ياصديقى العزيز اعجابى بك ، وحرصى على مكانتك ، وما أنتظره من مواهبك ، وشغفى بكتبك أتطلع كأختك الى ما سوف تصدره لنا منها غدا ! ولكنى قلقة عليك .. لأنك بدلا من أن تدخر قواك ، التى انت فى أشد الحاجة اليها ، لهذا العمل ، الذى هو عمل مقدس ، توزعها ، وتبذر فيها ، فى مشاغل تحولك عن طبيعتك .. فى حين ان هذه الطبيعة هى التى عليك

ان تتعهدها ، وترعاها ، وتتعمق فيها ، لتكون صيحاتها يوما صيحات العبقرية ، التى ينتظرها أولئك الذين يحبونك .. ولشد ما تألمت ، وأقسم لك ، من قراءة تلك السخافات عنك .. كحفلاتك .. ودعواتك .. وزينتك ، وهندامك .. و .. غرامياتك !

ــ غرامياتى ؟..

ــ بلى !.. مادمت تسمح بأن ينشروا عنك ان كل قارئاتك يتغزلن فيك .

ــ هذه غباوات ياصديقتى العزيزة !

ــ أعرف ذلك ، ولكن هل هناك دخان بلا نار ؟ أحقا ان لديك فيتونا ومركبة ، وخيولا انجليزية مطهمة، وحوذيا فى حلة الامراء ؟.. وانك تنزه فيها مدام دى جيراردان ؟

ــ هذه تكاد تكون رفيقة الصبا !..

ــ حسنا !.. لا أرى فى هذا ضيرا .. اذا كانت العربة عربتها !.. ولكن من الذى يدفع تكاليف عربتك ؟..

ــ اننى أدفعها كلها ، حتى آخر دانق !..

ــ متى؟ كيف؟ ثم بأى جهد ، وأى ثمن من دم القلب وعرق الجبين !

ــ اى صديقتى العزيزة ، صديقتى الطيبة . ان المستقبل لله . فهو الذى يوجه خطانا . ولكن ليس لى ان أعيش ، فى حاضرى ، عيشا ذليلا خاملا . وآه لو عرفت كم فكرت فى هذا كله ، واننى لا أصدر فى تصرفاتى عن نزق وطيش !.. ففيم اذن الحضارة ، اذا كان خيارنا لاينتقمون بها ؟.. انها النفوس المرهفة الحس ، الخليقة بأن تستمتع بطيبات الحياة .. فلماذا لا تؤمنين بأن الترف لازم لى لزوم الخبز الفليظ للاخرين؟.. هناك عميان لايفرقون بين زوج من الاحذية،

ذى الجلد اللامع كالبللور ، وآخر ذى جلد مشقق مرقع كالبثور !.. أما انا ، فمتى نظرت ، رأيت ، وفرقت ، ولم أعد أستطيع ان أضع فى قدمى الزوج العتيق .. استحالة ماديه ، وعمليه حسابيه !.. ولا ينبغى ان تؤاخذ و تلام على ذلك عينـــاى ، وذوقى ، وروحى ، ومزاجى ، وشعرى !.. فالحاجة الى تغيير ثيـــابى وأزيائى ، قد لاتكون الا قصيده من الشعر !.. ولكننى فى حاجة الى هذا الشعر المنظوم فى خيوط والوان .. وليست تهمتى تكاليف ذلك .. وانى أبعث معهـا الى الشيطان بدفاتر الحساب!.. انى أبدا ، أولا ، فأشترى ما لاغنى لى عنه للعيش .. ثم أدفع فيما بعد ، كيفما استطعت .. ونظرة الى ميسرة !.

ـ عفوا ياعزيزى اونوريه اذا قلت لك اننى لا أفهم هذه القاعدة فى الحياة .. قد أكون جاهلة .. على انى لا أرى قط بيتا صغيرا مكونا من حجرتين ، وحـديقة ضيقة ، يتبعها حقل ضئيل من البطاطس ، الا غبطت المصير المتواضع الذى صار اليه سكانه .. فكيف يمكن ان نرغب فى الغنى والثراء ، مع كل ما يمثله الغنى من غرور ، وضجر ، وحمى ، ومظالم ؟ !.. ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى !..

ـ آه !. انك امرأة !.. فيا أيتها الصديقة العزيزة الحنون .. هل تنكرين اذن كل ما له شأن فى المجتمع!

ـ ان ما له شأن ، ووزن ، هو الروح !..

ـ لكن الروح يشيد ، ويشترى ، ويحب القصور، واللوحات الجميلة ، والحلى ، والجواهر ، والخيـــول الاصيلة !..

ـ ليس للروح ان يسعى الى التلف !..

ـ وفضلا عن هذا ، فليس لنا جميعا ذات المصير .

وما كنت لأستطيع المجيء هنا لأستريح فى هذه الحديقة الصغيرة كالفردوس ، مع امرأة فائقة مثلك ، الا اذا كنت أضنيت نفسي فى مكان آخر ..

ـ انك تضنى النفس فى غير عملك ، وفى غير ماخلقت له .. الستتجرى وراء نساء الطبقة الراقية ، وتتهافت عليهن ؟.. الست للدوقة « دى برى » الفارس التابع؟ انت ! انت !.. تكون لسان حالها ، وخادم سياستها واهوائها ؟!.. انت ، بلزاك ، يا من خلقت لتنير الشعب ، ولتعطيه فكرا حرا ، كريما ، طليقا ، واسعا.. انت ، بما أوتيت من ذكاء ، هو من اجمل ما فى عصرنا من ذكاء .. انت تنزل ، وتصغر ، لتقوم بدور « المحسوب » !..

ـ ولكن كيف ؟ !.. ولكن كيف ؟ !..

ـ محسوب طبقة ارستقراطية ، مجردة من العقل ، ضعيفة القوى ، فقيرة النفس ، بليدة الحس ، تعمه فى جهالتها ، ازاء كل الاحتياطيات التى تنوء بها طبقاتنا الفقيرة ، تلك التى لا تنتظر الا فرصة لتنتقم لنفسها مرة أخرى !.

فقال بلزاك ، وهو يشبك يديه ، ويعجب بها ، قبل ان يتابع النقاش :

ـ يا الهى ! يا الهى ! ما أشد اندفاعها !..

ـ أجل .. هذا حق .. وانى حمقاء اذ اقول كل ما اعتقد .. ولكنى آومن به الى حد لا أستطيع معه السكوت عليه ..

ـ ياصديقتى ، انت صديقة مدهشة !. ولقد لمست بحديثك شغاف قلبى .. ولكن .. دعينى أفسر لك .. واقسم ـ وهذه يمنى ! ـ اننى عاجز عن بيع نفسى، سياسيا ، لكائن من كان ..

فنظرت اليه ، ولم ترد عليه .. فأضاف :
ــ حتى ولا لامرأة .. لأنه من المحتمل أن تكون امرأة قد ساقتني .. قد .. أحبتني ..
فلم تتحرك زولما كارو .. فعاد يقول :
ــ أو زعمت انها أحبتني ! ..
ــ ليس لى يا عزيزى اوبوريه أن أحكم على هــذا على هذا الجانب من حياتك .. وها هو ذا القومندان قد عاد من مكتبه .. فلندع هذا الحديث الذى لا يهمه، حيث نستأنفه غدا ..

***

وفى اليوم التالى : أرادت أن تعـود فتستمتع بروحه وفكره .. فأثارته من جديد بالتنديد بأرستقراطيته .. فصاح :
ــ آه ! كـارا ! كـارا ! .. أتمقتين اذن كل الذين ينتسبون الى الطبقة النبيلة ؟
فقاطعته :
ــ أتزعمني اذن بلهاء الى هذا الحد ؟
واسترد الحديث حرارة الأمس .. تلك الحرارة التى لا غنى عنها للافاضة بسرائر القلب .. فراح يروى لها كل شيء ، حكاية تلك المركيزة القاسية المترفعة ،الروحية، العاشقة ، الفندورة .. وما كان أبدع وصفه لها :
ــ تصورى أنها كانت تريد أن تصحبنى معهـــا الى البندقية ! .. وتنزلنى فى قصر ! حيث لا يكون فيه الا هى وأنا ! ..
وكانت تلك ســـاعات غريبة مثيرة لزولما كارو ، التى كانت معتادة حياة عاقلة ، تسير على وتيرة واحدة ، بلا شغف ، ولا هوس ! .. بل ان الاضطراب قد نال منها ، لسماعها قصة هذه المغامرة الملتهبة ، المؤلمة ، حتى جاء

القومنـــــدان يحمل البريد الذى وصل .. ففتح بلزاك رسائله ، وتجهم وجهه .. وصـــعد غرفته ... وعلى مائدة الفداء قال :

ـ كارثة ! .. وداعا للاجازة ! .. فلا مفر من العمل ! .. فقد وصلتنى مئة صفحة من البروفات . وهناك ناشر يطلب أقصوصة لهذا الاسبوع . طبقا لعقد بيننا . والويل لى من الدين اذا لم أفعل . فضلا عن أن أمى المقيمة منذ ثلاثة أيام فى بيتى بشارع كاسينى تكتب لتقول لى أن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن !

انتهت الاحاديث الطيبات ! .. فأغلق على نفسه غرفته يدأب ويكتب .. وكذلك لم تعد زولما كارو تغادر غرفتها من تلك اللحظة أيضا .. فأخذت فى النسيج ، حتى اذا دعاها صغيرها ايفان أرسلته الى الحديقة يلعب .. وظلت فى صمت ، أمام منسجها ، تلقى بأذنيها وقلبها جميعا لأدنى حركة يمكن أن تصدر عن مخدع أونوريه الساحر .. فهى منذ ما عرفت تفاصيل حياته المثقلة بالعمل والمغامرات . منذ ما أدركت كيف يلهب حياته بلا اكتراث ، ويحرقها غير مقتصد فيها ، ولا منئد ، بهرت ، وهنئت ، بحواره السعيد ، ولو لأيام .. ما أدهشـــــه ، وما أبدعه ! .. وبالادراكه المحيط بقلوب النساء !.. انها لا تعرف رجلا آخر يدرك ويحترز كل شىء مثله ! .. وتساءلت ، ووجها يحمر خجلا ، فى عفة كاملة ، عما اذا لم يكن أدرك التقدير المفتون الذى تحسه لخلقه وفكره .. وها هو ذا الآن وراء النافذة المقابلة ، أمام منضـدته ، ازاء أشجار الزيزفون نفسها ، التى هى ، كذلك ، أمامها .. لعله يكتب سطورا علوية ، قد لا يستطيع الشبان والنساء ، بعـــد مئتين او ثلاثمئة عام ـ عندما لا يكون له أو لها وجود ـ أن يقرأوها الا وقـلوبهم تخفق ، ودموعهم تسبق ! .. وان

أحدا ، ان أحدا لن يعرف أبدا ان أول رعشة قد أصابتها هى — ويالله ! — فى اللحظة التى أمسك فيها بقلمه ! .. فما السبب ؟ .. السبب فى ذلك أنها كانت تدعى : « مدام كارو » وليست : « مدام بلزا .. » .. آه ! ..

ما كان أوجه وأروع هذا الاسم « دى بلزاك » الذى خلق للمجد ! .. أونوريه دى بلزاك ! .. أسفا لأحكام القضاء والقدر ! ومع ذلك فحبذا لو أتيح لها أن تسند رجلا عظيما ، حتى يؤدى رسالته السامية ! .. أفلم تخلق هى لتكون هذا السند والعضد ؟ .. أو لم تكن تصلح امرأة نافعة ، قديرة على أن تفهم ، وان تنمحى ، وأن تلزم الى جواره جانب الحب الصامت الصميم ؟ .. رباه ! .. ما هذا الذى تجرؤ على التفكير فيه !؟ .. لقد نهضت ، ووضعت يدها على فؤادها ، وسألت ربها عفوا وغفرانا .. ونزلت الى الحديقة لترى فى ماذا يلعب ولدها ..

هذه هى المرأة العظيمة ، التى كانت تأثم فى العقل ، وتعجز عن أن تنطق امام بلزاك بكلمة لا تشف عن غير الصداقة النقية الخالصة . وكان هو قد ظل حبيس غرفته ، لا يخرج منها حتى لتناول الطعام .. وضاق بذلك صدرها ، فظلت تنسج ، وتطرز بابرتها ، حالمة بعينيه ، يخيل اليها أنها تسمعه يقول لها : « كارا ، كارا ، انت من القلوب النادرة التى لها على قلبى سلطان وسرعان ما ينسى ! .. ولكن .. ولكن لا .. انه حق .. عظيم ! » .. اكان ذلك حقا ؟ .. انه سرعان ما يحمى أو لم يطلعها فى ثقة على رسالة من مدام دى برنى ؟ .. فلم تشعر بالغيرة من هذه .. هذا الملك الكريم .. بل شعرت نحوها بالمحبة .. فقد كانت زولما دونها فى العمر

بخمسة عشر عاما .. وان تقاربت أفكارهما .. وكانت رسالة مدام دى برنى تحذره من المركيزة ، ورسائلها ، وتقول :

انها اذا كتبت اليك غدا « لتسافر الى « اكس » فانك سرعان ما تسافر ! .. فاحذر يا حبيبى ! .. ان هؤلاء الناس طبعوا على الجمود)

وأحست زولما كارو بزهوة النصر لهذه العبارة .. فقال أونوريه :

ــ انها مخطئة .. فلن اذهب باية حجة كانت .. فما أطيب مقامى للعمل هنا !

وكان من طيب المقام والعمل بحيث أتم جزءا كبيرا من قصة « لويس لامبير » .. ولم يكن يجد وقتا للطعام والشراب . وفى ذات ليلة ، لم ينم . وكان قد طلب خمس شمعات .. فلم تعد زولما كارو تنام هى أيضا .. وظلت تسمعه ، وهو يحرك القهوة ، وينهض ، ويمشى ، وتسقط ريشته .. ثم صب ماء فى منتصف الليل ليشرب : « ان رأسه يشتعل حتما .. يا الهى ! .. فهو يبترد . يا لعمله المضنى ! .. ويا للحياة المجاهدة ! .. » .. وطلع الفجر . فزعمته سينام .. ولكنه عاد يحرك فنجان القهوة .. فمنت نفسها بانه يرسم فى قصته صورة امرأة .. ولعل هذه المرأة تكون هى .. لعلها هى الملهمة ! ..

وفى ذات صباح ، حمل اليه البريد رسالة عليها طابع « اكس ــ لو ــ بان » .. وسافر بلزاك فى اليوم التالى معتذرا لهم ، قائلا لنفسه : « انها تنتظرنى .. فقد ندمت .. وارادت الآن أن تكون لى .. وليس فى كل الطبقة الباريسية الأرستقراطية امرأة تعادلها ! » ..

وبلغ من هيجته ، وسرعته فى تسلق درجات المركبة ،

ان جرحت فخذه جرحا عميقا ، فاضطر الى قضاء يومين في مدينة ليون ، ووصل « اكس » وهو يعرج ! ولكنه ماكاد يراها ، حتى نسي مجرد الاشارة الى الحادث ! .. ونسي متاعبه منها وشكاواه . ولم يعد يذكر الا أنه الفاها: جميلة ، رقيقة ، طيبة .. وصدرت منه كلمة تدل على مدى ما تألم .. ثم استدرك : « ما من شيء عظيم بغير الألم » .. فوافقت ، وبسطت له برنامجها ، وعبرت له عن سرورها بحضوره ، وان كانت لا تستطيع أن تراه كل يوم قبل الساعة الخامسة ، لحـــاجتها الى الراحة التامة .. فقال ان لديه قلمه ! وسيفني في العمل .. ثم يكون كله لها .. أي كله للحب ! .. وفي الغداة وصل في الساعة الخامسة ، الخامسة الا ربعا .. لم يطق صبرا على دق الساعة .. فتركته بقربهـــا يتغذى ويشتعل بالآمال والوعود .. حتى جاء ذات مســـاء يلح ويلحف بصراحة ، فعـارضته بصراحة أيضا محتجة بواجبها .. فصاح :

ـ يا الهي ! .. انك تنسين دائما أن أول الواجبات هو حبك اياي ! .. فمتى تكونين لي ؟ ..

ـ أرى ان مقامك في انجو لم يفدك شيئا !.. فأنت تعود بأفكار صغيرة وضيعة ، لعلها صدى أحاديث النساء هناك ! ..

ـ سيدتي ، لا تحاولي أن تجرحيني في أعز ماعندي ، وهو صداقتي !

ـ أرأيت أنني لا املأ حيـــاتك ، وانك ممثل كوميدي كسائر الرجال ؟! ..

فلم يجب . وعاد قانطا ، يحدث نفسه بصوت عال : « أيها المسكين أونوريه !..ان الترف ، والمساكن الجميلة، والنساء العظيمات ، والغراميات السامية ، أن هذا كله

حرام عليك ! .. اما أن تكتب وتنسخ للناشرين الشرهين، فى غرفة حقيرة ، اجرها فرنكان فى اليوم ، فهـــذا هو مصيرك ، فلا تبحث عن مصير سواه ! » .. ولكنه وجد فى انتظاره خطابين . أحدهما من مدام دى برنى ، والثانى من زولما كارو . آه لهاتين المرأتين القديستين ! .. آه لهذين العمـــــادين فى حياته : الحب الحق ، والصداقة الصافية ! .. فقبّل الفلافين .. وكانت رسالة زولماكارو تنضح بالمرارة . ولكنها مست شغاف قلبه . فهى تحذره من التهور فى الحزبية ، حيث لا يفكرون الا فى استغلاله . فتمتم : « هذا صحيح ! .. وقد بدأت أشعر به ! » .. وهى تتخلى عنه لغرامياته الخطرة ، قائلة :

(... وليست هى أم أسرة ضعيفة التى يمكن أن تهمك ، ليست هى امرأة تفهم حقيقة الحياة ومدلتها .. انك بحاجة الى أشكال شاردة ، ومظاهر باهرة ولا يهمك ، أو يعنيك ما وراءها من ذكاء وحس ونفس .. فليعطك الله فى « اكس » ما يروق لك ! ..)

فقال بقوة : « لا ! .. انى أرى جليا مايصيبنى هنا .. سأهرب ، وانجو ، واعود لأعمل ، وأتحدث ، بعقل ، فى أنجولم » ..

وفتح خطاب مدام دى برنى ، وهو يفكر : « انهما تتشابهان ، لا بالوجوه ، وانما بالنفوس .. كلتاهمـــا حكيمة ، خيرة ، كريمة .. » .. ثم قرأ :

(... يا صديقي لست غيرى ، ولكنى قلقة . اذن فقد حملوك على الذهاب الى اكس ! .. فاحذر ، يا حبيبى ، فهؤلاء الناس ، جميعا ، يمقتون الذين ليسوا من لحمهم ودمهم .. فاستخدمهم ما استطعت . ولكن اقسم لى الا تكون لهم عبدا)

فقالَ بلزاك بصوت منخفض : « أقسم ياحبيبتى ! » .. وكتب اليها فى الحال يقول :

(لماذا اقاومك .. أنت التى هزت يدها مهد أحلامى الأولى .. والتى سيكون قلبها قبرا لكل أخطائى ؟ .. انك تناديننى .. وأنا اليك .

فانتظري مركبات المسافرين على طريق فونتنبلو .. فسأصل في بضعة أيام .. في ضحى ساعات ...)

وبعث بمن حمل هذه الكلمة الى البريد ، فدق الباب ، واذا بالمركيزة دى كاسترى قد بعثت بخادم يسأل : « هل يستطيع المسيو دى بلزاك أن يحضر حالا ؟ » .. فاشفق أن تكون مريضة .. وهرول اليها ! .. فبأى شباب آمن بالهناء بعد ساعة واحدة ! .. أو لم يقبل السفر الى ايطاليا معها ، ومع الدوق « فتز ـ جمس » اخى زوجها ؟! وكانا سيأخذانه شبه ملحق في عربتهما ؟! ولكنها قبلت أن يدفع نصيبه في مصاريف الطريق ، حتى لاتجرح عزته . أن يرى روما ، المدينة الخالدة ، التى مر بها نصف تاريخ العالم ، وأن يشاهد ذلك كله معها ، تنظر عيناه مع عينها ، وأن يسمعها تصدر أحكامها ، الدقيقة ، الصادقة ، على مافيها من بعض الجفاء ! .. ياللسعادة ينهلها قلبه المفتوح ! .. يا لصفحة النور المشرقة في حياته ! ..

وبادر بالكتابة الى ناشريه ، ومدبرى المجلات ، وأمه .. وتعهد بمواعيد محددة .. وسألهم مالا ، واعدا مقابله بقصص ! .. ثم سافر مع « مركيزته المعبودة » ، وشقيق الزوج ، الذى كان فى نظره مثالا لامجاد فرنسا القديمة العريقة .

وغادر المسافرون الثلاثة « اكس » ، فوصلوا مدينة جنيف في المساء .. وحاول أن يتخيل الايام التى سوف يعيشها وهو يتذكر الذ تفاصيل الايام التى عاشها .

وخرج معها يتنزهان ، فعاد نشوان .. هناك ، بقرب غدير ماء ، وراء طاحون مكسورة ، قالت له أقوالا من الهول والاشتعال بحيث لم يعد بامكانها التراجع عما قالت .. وكانت تبسم له .. وكانا يتنهدان ..

ثم قصد الدوق الى مكتب الفندق .. فاختلى بلزاك بالمركيزة ، وكان عليها توب شفاف ، ناصع ، مجنح ، يجعلها كملك طائر . لا يلبث أن يحلق فى السماوات .. فسبح بحمد جمالها .. ثم لم يلبث أن قال لها بلهجة الطفل : « يخيل الى أنك الآن قد نزلت من السماء لتمنحيني الهناء ! » .. فلم تجب بغير ابتسامة . فاستطرد : « أتعطيني الهناء ؟ » .. ثم خفض من صوته : « وبعد ، أتهيين نفسك ؟! » .. فهزت كتفيها ، ثم تغير وجهها ، وتجهم ، فجأة : « أتتحدث هكذا ، الى امرأة ذات اسم عظيم ، فى حان ، على قارعة الطريق !؟ » .. قال : « كيف ، فى حان ! » .. ثم ضاق ذرعا : « مرة أخرى ، اخرى ، أخيرة ، اتريدين مبادلتي الحب ؟ » .. وبدت جفوته : « انى لن أستطيع على هذا صبرا ! » .. وبغتة، تحول الى شدة خارقة .. فأعلن اليها : أن الكأس قد طفحت ، وأنه فكر فى هذا كله ، وأن الدور الوحيد لامرأة تدعى الحب هو التفانى ، أى هبة نفسها ، ولكن أسفا على أنها عنده عاجزة عن الحب ! .. وصاح بها :

ـ اذن فالمركيزات يسلفن نفسهن ، ولا يهبنها ! .. هذا حسن ! .. اذن ، انى لأوثر النساء البسيطات ، المجردات من النفاق والمراءاة ، الخاليات من هذا الحشو الاجتماعي ، هذا «العفش والنفش» الذى ليس الا من الرذيلة ! .. وانى أدعك ، وسأنتقم لنفسى ..

ووصل الى الباب ، ثم عاد اليها ، وضغط على ذراعها :

ـ انت لاحجة لك من الشرع ، ولا من الدين .. فقد استبحت الاول ، وسخرت من الثانى .. ما دمت يوما ما قد كنت خليلة البرنس دى ميترنخ ...

فدفعته عنها :

ـ كفى !
فزأر ، وقال لها ، وعيناه فى عينيها :
ـ نعم ، أم لا ؟. ستكونين ، فى ايطاليا ، لى.. ؟
فظلت مصرة على أسنانها ، ترتعش طاقتا انفها ، ممتقعة اللون ، تكاد تكون دميمة ، لشدة ما عبر وجهها عن الكراهية والنفور .. ولم تقل شيئا .. فعاد يقول :
ـ أفلا تريدين الرد ؟..
فظلت ممعنة فى صمت عنيد ..
وعندئذ أحس فى نفسه عيوب نار الهذيان من الحى .. فألقى بمعطفه « الكاب » على كتفيه ، تاركا اياه يدور تحت وجه المركيزة ، كما لو كان يضربها بالسوط .. وخرج . وأغلق الباب بشدة . وأخذ حقائبه ، وقفز فى أول عربة للمسافرين الى ديجون ، وقبع فيها. ولما صارت العربة عند بيوت جنيف الاخيرة ، قال جاره الفتى بصوت مرتفع : « الوداع أيتها المدينة العزيزة !.. آه ، ما أجمل جنيف ياسيدى !..» .. فأجاب بلزاك : « اننى أمقتها !.. فقد عرفت فيها ياسيدى أشنع مذلة فى حياتى ، وأقسم الا أعود اليها أبدا !.. » ..
ووصل بعد يومين الى بولونيير، حيث عزبة مدام دى برنى ، فكانت فى انتظاره مع كلبها ، على قارعة الطريق .. انها كانت تنتظر هكذا منذ ثمانية أيام ، باحثة فى جميع مركبات المسافرين !.. « يارجلى العزيزالعظيم ، لم يطل انتظارى اياك ، مادمت قد جئت .. فليت نفسك تكون متفتحة لى !. ولست شعرى ماذا يدور فى خلدك؟ وكيف انت ؟ وهل تحبنى ؟.. » .. فكان رده الوحيد عليها : ان ضم اليه خصرها اللين ، ونظر الى وجهها

«عزيز» الذى نالت منه عشر سنوات حب .. ثم قبلها، قائلا فى نفسه : « ما هو الشباب ، وما هو الجمال . اذا كانا يختفيان وراءهما نفسا جاحدة كحجارة الطريق ؟ » .. ثم قال لها :

ـ انني مضنى يا ملكى ، مضنى الى حد أخشى معه الا اكون بخير ..

ـ ليس من ذنبى انك مشغول بمجنونات مفتونات ، دار برأسك فبهن لونهن الناصع كالصينى .. فاستنشق. ياحبيبى ، شذى أشجار الصنوبر .. وتعالى انظر معى. حظيرة الدجاج الذى يعطينى البيض الطيب الطازج ..

ولا يلبث ان يستجم ، ويشفى ، بقرب هذه المرأة التى تعرف كيف تسعده ، وتبدد غياهب حزنه .. ويراجعان معا رسائل المعجبات المتهافتات عليه .. وهى تحللها :

ـ ياسيدى الكاتب الخصب ، انهن كلهن عند قدميك .. اقرأ هذه : انها فتاة عانس مستهامة !..

وهذه تقول لك : « أريد ان أعرف هل شكلك يتفق مع الفكرة التى أوحت بها الى كتبك » .. وهذه تستفهم « أريد ان أعرف ما اذا كانت بدائعك الرائعة صادرة من قلبك أم من رأسك .. »

ويتضاحكان .. وتعرف منه انه يعد كتابا اسمه « طبيب الريف » .. فاذا خلص منه . وضع كتابا مروعا .. كتاب حب .. فتسأله : أيكون عنها ؟..

فيقول :

ـ كلا !. لأنه كتاب ألم .. كتاب فظيع صادق .. اسمه Netouchez pas à la hache يعانى فيه البطل من الحب والحقد أهوالا !..

فترثى له :

ـ يامعبودى المسكين !.. لاشـك فى انك تحس ما احس البطل !..

فيطمئنها الى انه بقربها ، يسمع كلامها ، ويستمتع بحبها ، قد خلق رجلا جديدا .. وانحنى عليها ناظرا بعينيه الذهبيتين .. فخيل اليه انها ترى اشراق مجده .. فقالت بصوت يختلج فى حلقها من الهناء :

ـ ياحبيبى !.. انك لى أعز من الهواء الطائر ، ومن الماء للسمك ، ومن الشمس للارض ، ومن الطبيعـة للنفس !.. ان هنائى يصدر منك ، كما تتضوع العطور من الزهور .. ان مواهبك لا حد لعظمتها ، وانى لفخور بأن أفهمها ، وأمجدها ، وأعزها !..

- ٣ -

عندما كان بلزاك ينجز فصته Netouchez pas à la hache أحس بالفرح لأنه غلب فى الحب على أمره . فقد أخرج من غابة ضعفه : آية قوته . واســــــنبط من حكاية بؤسه : احدى روائعه الباقيات .. وهذا التناقض هو على شاكلة الحياة وصورتها : ذل وعز . وقد أظهرت له هذه التجربة القاسية مصيره على هذه الارض : ان يكون على هامش الآخرين .. فواجبه الاول يقضى بألا يعيش الا ليكتب ، ويسجل صورة العيش . فلا حق له فى الحب ، أو فى الألم ، أو فى السعادة ، الا لـكيما يبدع من وراء هذا كله قبس النور الذى يبدد ظلمـــــات الانسانية !.. فالـكتاب والشعراء هم الذين ينجدون البشر فى محنتهم ، ويقدمون لهم آيات العزاء والتجلد، أشبه ما يكونون فى ذلك بالانبياء !

وكان بلزاك مازال يعتمد فى وحدته على صــداقته لامرأتين ، احداهما لور دى برنى خليلتــه العزيزة ، والاخرى مدام زولماكارو صديقته الروحية .. ثم تلك « الاجنبية » البولونية المعجبة به ، التى تلقى رسالتها الاولى قبيل زيارته الاولى للمركيزة الفاجرة المتكبرة ، بربع ساعة فقط ، وهى لا تزال تكتب له ، وقد أفضت اليه باسمها : « الكونتيس ايف دى هانسكا » ، وعبرت

له ، فى رسائل شعرية ، عن نزعات قلب معنى ، أثرت فيه كتب بلزاك ، واوحت اليه بالثقة .. وكانت سيدة عظيمة جدا ، نبيله ، مثرية ، ومن ذوات المكانة الرفيعة ، والضياع الواسعة فى فيرزشونيا بقرب مدينة « كييف » .

عقل نير ، أفاء عليه نوره منبت كريم وثقافة ، ونفس هى بلا شك من انبل واصفى النفوس المختارة فى عصرها . وقد هرعت الى بلزاك فى رسائلها . وكان فى رسائله يطير اليها !. وما كانت المسافات الشاسعة بينهما لتفرق فى غير جسديهما ، فى حين كان العقلان ، والقلبان . قد بادرا الى العناق والتقبيل !.. اذ كيف يهمل مثل هذه الامية التى تحدثه بلهجة لا عهد له بها. ان صاحبته لور لا نظير لها فى حنانها .. وقد ساقها القدر اليه ليلطف من مصيره المستعر.. ولكن هذه « الاجنبية » العلوية تظهر من ادراكها الفن ، واحاطتها بدور الفنان ، ما يجعله يصرخ سرورا واشتياقا، ويبسط ذراعيه نحو بولونيا البعيدة . قائلا من صميم فؤاده : « ايف دى هانسكا !.. ان حياتى لك .. لانك وحدك التى أدركت ماهيتها ، وتغلغلت فى آلامها ، وواجباتها ، وطموحها ! » .. لقد كان ذكاؤها المعجب به يشرق عليه عونا له وساعدا .. وكان كلما طالع رسائلها لم يشك فى انها ترى فيه موسى الكليم على جبل سيناء ، فى الوادى المقدس : طوى ..

أجل ، ستكون مهمته ان يرسم هذا المجتمع بحذافيره ، وان يلقى عليه ضوءا يكسف ضوء الشمس!

أليست هذه المرأة برهانا على امتداد رسالته وراء حدود بلاده ؟. أليست طيبة المنبت ، عريقة الاصل ، رقيقة الحاشية ، نبيلة الطبع ، تتفق مع ذوقه فى الارومة

العالية الحسب ، وفى المكانة والوجاهة ؟..

أما زولماكارو ، ذات الاسم المتواضع ، والحياه الى جانب موظف (ولو كان فومنداں مدفعيه !) ، فليست الا صديقة ، وكاتمة سر .. وأما لور دى برنى، فحنانها أعظم من نبلها ، وهى تؤثر الحب على العظمة .. وأما المركيزة دى كاسترى الشنيعة ، فهى من ذلك النبل البائد ، الذى لم يبق منه الا شكله !.. مسكن جميل ، ونياب جميلة ، وجسم جميل ، بلا قلب ، ولا عقل .. قصر بلا ملك !.. وأما النبل الاصيل ، والروح ، والفؤاد ، فقد اجتمعت جميعا فى الكونتس دى هانسكا هذه ، الاوربية الماجدة ، بألقابها ، وأملاكها ، وفطنتها ، وذكائها ، ودقتها ، وشعرها . فهى هى المرأة الموعودة حقا بأن تؤثر فى بلزاك ، الاثر الذى ستحمده لها آداب الاجيال كلها ، وتهبه تلك القوة الروحية الهائلة ، التى لا تلبث ان تتبلور فى مجموعة فريدة من الافكار الشائقة، والبدائع الروائع ، التى ستتوالد تباعا ، لا حد لها ولا عد ، من ذلك العقل العبقرى الجبار .. فهى الملهمة.. وهى الساحرة .. هذه البولونية المدهشة ، قد ألهبت بالسوط مخيلته . فراح ، فى نشوة التمنى والرجاء فى الهناء ، يحقق آياته الكبرى ، فوصل دون كبير عناء الى قمة الفكر ، وقمة المجد ..

أيتها الاجنبية العزيزة ، أين انت ؟.. كيف انت ؟.. انه لايعرف بعد صورة محياك ، وهو يعيش على ثمانمئة فرسخ منك ! ؟..

وظل يكتب اليها ؟ !.. انه يريد الآن ان يضع عينيه فى عينيها !..

وهو يريد أن يقضى بذات نفسه لامرأة .. أماصاحبه لور دى برنى ، ففى عزبتها .. وأما زولماكارو ، ففى

بلدة انجولم .. ولكن اخته لور فى باريس !.. وهى التى شهدت بزوغ فجر مطامعه .. اذن فليهرع اليها . ويمسك بيديها ، صائحا : « أختاه العزيزة ، أتذكرين المستقبل الجميل ، الذى تخيلناه ونحن نشرف من سطح بيتنا فى تور ؟.. أتذكرين ؟.. ان أخاك سعيد ، وقد جاء يقول لك : ان هناك الرجل ينطوى كله فى احلام الطفل !.. » .. وهو فى طريقه اليها يشترى زهرا .. ويدخل حديقة اللكسمبورج ، ويتغلغل بين الاشجار ، حيث يحلم الطلاب والشيوخ .. أولئك فى المستقبل . وهؤلاء فى الماضى .. فينظر اليهم كما لو كان يريد ان يرسم لهم جمال الحاضر !.. ثم يعرج فى ساحة سان ميشيل على بائع البن والشمع .. فيوصيه بأن يخلط له البن البوربونى بالبن المرتنكى بالبن اليمنى !.. فلا طعم للقهوة الا بهذا المزيج !.. « كيف ترسل الى ربطة من الشمع فوق ما أبغى ، وكيسا من البن دون ما أرغب .. اعكس الآية ياسيدى !.. فاننى بالقهوة أرى جليا ولو فى دياجى الظلام !.. » .. فتضحك « زبونة » ، نشترى مثله ، لخفة روحه ، فيجيبهـــا .. ويوصى التاجر: « لا تعاملنى كزبون عادى.. انى أحب دكانك الذى هو ينبوع للحياة .. أحبب حباتى ، فقد تكون غدا ينبوعا لدكانك !.. »

ووصل الى سوق الخضر (الهال) ، فقد كان يطيب له دائما الاحتكاك بسواد الشعب . فرأى فى زاوية زحاما ، فاقترب ، فاذا بامرأة فقيرة تنهرها الشرطة ، وهى تبكى وتشكو : « ماذا تريدون منا ؟.. انا لا نبغى اكثر من ان نبيع « جرجيرنا » ، دون ان يلحظنا أحد ، أو نلحظ أحدا !.. » .. فابتعد بلزاك وهو يقول : « رباه !.. هذا هو الدليل على اننا لم نجبل جميعا من

طينة واحدة !.. والمجد ، يا أيتها العجوز الطيبة . والمجد !.. » ..

ان هواء باريس هو الـــذى يحس بالحاجة الى استنشاقه ، دون أى هواء سواه .. فهو يعبر بولفار بواسونيير ،ضاحكا ، ساخرا من الاطبــاء ، قصــيرى النظر ، الذين يقولون بأن المرء لا يشم فى بارس هواء ! وها هو ذا يفتح خياشيمه ، ويملأ رئتيــه منه !.. سبحان الله !. ان هواء هــذه المدينة السنية مشبع بتيار الحيوية ، الذى لا مثيل له فى الدنيــــا .. فهو للأعصاب عفاء ، وللقلوب غذاء !..

ـ ٤ ـ

بلزاك الآن فى الرابعة والثلاثين . اتخذ من الادب ديرا يسكنه ، يتأمل فيه ، ويتبتل !.. ولم يكن فى حياته كلها ربيع أشهى وأجدى من ربيع ١٨٣٣ .. لا لأنه أنتج فيه أعظم عمل أدبى فى الجبل وحسب ، بل لانه كان يكتب أيضا الى الكونتس دى هانسكا .. وفى انتظارها وفى تمنيها ، وفى التحدث عنها وحده مع نفسه ، زاعما انه يمسك بالحب بين يديه كما لو كان طائرا غردا ، ويضمهما معا على قلبه ،مخاطبا أوراقه ، أوحديقته : « انى أحبك !.. أحبك !.. انى أعبدك !..» .. ثم يضيق ذرعا بوحشته ، ولا يصبر عن التحدث عنها .. فيأخذ عربة المسافرين الى انجولم ، ليلقى زولماكارو!.. فنسأله عما اذا كان لايزال يحب حديقتها الضيقة ، وحباتها البسيطة ، وصغيرها الذى نكبر .. والقومندان الذى يبذل جهده فى خدمة الدولة .. وامرأة مثلهـا هادئة ، لا تبحث الا عن بقائها عاقلة !..

ــ وانا ، فى هذه الاثناء ، ياصديقتى الطيبة ، اشتغل واعمل كحصان مربوط الى عربة !..

فتأملته .. وقالت :

ــ انك الشباب والقوة . وانى سعيدة برؤيتك فى هذه الآونة ..

وعبرت له عن فرحها بأنه يعمل مستقلا عن تلك « الطبقه الراقية » الزائفة ، لا ينفانى فى سيدابها ، ولا يلعق احذية سادتها !.. فمد اليها يديه :

ــ أيتها المرأه التى لا مثيل لها !.. انك جمعت بين الشعر والفكر!.. فاعلمى انى سوف أنتصر، ياصديقتى العزيزة ولم يعد لدى الآن شك .. وانى مدين بذلك لامرأه !.. وأنت تعلمين ، اكثر من أى انسان ، ان المرأه كانت دائما هى دينى الارضى الوحيد الذى اؤمن به !.. وانى اذن لسعيد !.. فسيسهل عملى ، وأبلغ أملى !.

فظننت انه يقصد بالمرأة « لور دى برنى » ، «الملاك» الذى حرس شبابه ، وجمل حياته ، وغذى خياله !.. ولكنها كانت واهمة .. فأحرج بلزاك .. وسعل .. وقام .. ثم عاد فجلس .. وطفق يفسر.. حقيقة ان مدام دى برنى الحنون كانت له تكاد تكون اكثر من أم.. ولكنه يعنى هنا بالكلام : امرأة .. شقيقة روحه.. امرأة قصدته من أقصاء أوربا .. تقدم اليه كل شىء : الحب ، والاسم العظيم ، والثروة !.. آه !.. هذه المرأة !.. انه لم يلق قط لها مثالا !.. وهو لم «يلقها» بعد فعلا ، لانه لم يرها بعد .. ولكن أية رسائل !.. انه يحملها معه .. ويلح على زولماكارو أن تقرأها :

ــ اقرئيها ، واحكى على .. كما سوف تحكم مدام دى برنى.. فانكما لى الناصحتان : هى القلب ، وانت العقل.. انى أريد ان تكون حياتى عظيمة ، غير أنى أسكن بيتا من زجاج . أقسمت عليك الا ما قرأت !.. هذه هى رسالتها الاولى ، تتضوع بشذا الهناء والرجاء! اقرئيها ، وقولى : هل ثمة امرأة ، خلاك ، فهمتنى خيرا منها أبدا !.. ثم هى أجنبية ، ولكن تربيتها فرنسية ، تغذت بلبان أفكارنا ، ودواوين شعرائنا .. واليك

الرسائل الاخرى . رباه ! هذا الاسلوب الشائق الرقيق! انى لا استطيع له دفعا . هذا قلبى ، ياصديقتي الطيبة، فتحسسى قلبى ! فلا شيء مطبوع فيه الا خطها الدقيق، دليل اليد التى كتبت لى ، المشتاقة لمصافحة يدى !.. ولشد ماحذرت منها ، وكنت فاترا معها ، بادىء ذى بدء .. فقد كان قلبى محطما من تلك المركيزة التى جففت روحى باحصائها المروع !.. أف لها !.. وعاملت « الاجنبية » كقاضى التحقيق الذى يقول لنفسه : «فلندعها تجيء حتى ترى ماتقدمه الينا ».. يا للصغيرة الكريمة !.. انها لا تقدم شيئا ، بل تهب كل شيء !.. فشعرت بالخزى منها ، فأسلمت اليها فؤادى . آه !.. وقالت لها كل شيء .. انى لها .. ليس علىها الا أن تشير، ومنى السمع والطاعة . وهأنذا ياصديقتى ، سعيد ، سعيد الى حد البكاء سعادة ، اذ عدت ، بعد كل ما لقيت من آلام ، سلما معافى !.

فأحست زولماكارو ، ازاء هذا الاعتراف ، بقلبها بنقبض لوعة عليه ، وامسكت حتى لا تصيح : « لله ما أعظمك !.. وما أشد اعجابى بك !.. » وارتسم الما على محياها ، فلم تزد على أن تقول بكآبة :

ــ اسألك ، يا اونوريه العزيز ، أن تحذر من تبذير حياتك .. فلا تنفق كنوزها أبدا أدراج الرياح !..

ولما عاد الى بارس ، فكر فى هذه النصيحة ، وقال لنفسه : « ان زولما صديقة شديدة الذكاء ، بيد انها تعيش فى محيط ضيق ، تأثرت به أفكارها . وهذا لا علاج له !.. أما امرأة مثل انف دى هانسكا ، فتدرك كل شيء ، وتحذر كل شيء !.. امرأة عظيمة .. وهذا يكفى !.. خمسون تابعا .. وأراض تبلغ نحو مقاطعة من مقاطعات فرنسا .. فهى لايمكن ان تكون محدودة

الافق . ان لها فى الحياة المجال الفسيح الذى أريده فى كتبى .. وهو مجال سهل على البولونيين.. فكلهم أبطال !.. وياله من شعب مدهش !. ويالها من مخالفة بين بولونيا واونوريه دى بلزاك !.. قطبان يجتمعان فى روح واحد !. » ..

ووجد فى بيته البريد يحمل رسالة من مدام دى برنى تشكو اشتداد المرض عليها حتى بلغ قلبها . فقال : « يا للعزيزة المسكينة ! سأهرع اليها !.».. ولكنه وجد أيضا خطابا من مدام دى برانتس ، وخطابا من المركيزة دى كاسترى ! فبا للجراة !.. ولم يجرؤ على فض الغلاف ، وتزاحمت على ذاكرته الساعات القاسية والساعات اللذيذة التى مرت عليه واياها . ولكن هذه اللذة لم تكن الا خدعة ! اذن ، فماذا تحمل اليه أيضا من الكذب فى رسالتها ؟.. اما وان عينيها لم تعكسا قط صورة نفسها ، فهل يمكن لقطرات من الحبر على قصاصة ورق ان تعبر عما يجول فى فكر هذه المخلوقة التى وجدت فى الدنيا لتبذر الألم ؟.. فترك رسالتها. وفتح خطاب مدام دى برانتس .. فوجدها تريد أن تراه .. فتنهد قائلا : « ما اكثر ماراتنى !. » .. وكتب اليها :

(ان الناس الذين هم فى حومة الوغى لبسوا ، يا سيدتى ، أحرارا كما تعلمين ليتحدثوا أو يخبروا أصدقاءهم : هل هم أحياء أم موتى .. هذا ، وأنا .. ميت من الشغل)

ووقع خطابه ، وختمه . وأمسك برجفة وعنف خطاب المركيزة . ومزق غلافه ، وقرأه فى نفس واحد ، ثم خطا ثلاث خطوات فى غرفته ، ثم جلس ، واغمض عينيه ، وتمتم : « لله ما أعجب الحياة من لغز معمى !.. » ..

وكانت رسالة المركيزة : نداء مؤلما محرقا ، وصرحة لوعة وأسى ، وتوسلا ، وهذيانا .. فأثارت تذكارات تمزق الفؤاد ، وهمست برجاء الضائع المحموم المشدوه وزفرت زفرات العليـــــل المضنى !.. ووقعت : « صديقتك » ..

فأحسس بلزاك بادئا ان قلبه يختنق فى صدره : « آه !. لو ان ذلك كان حقا . أيتها السماء ! » ..

ثم .. مرت بذهنه رسالة من الكونتس دى هانسك، فاستظهرها سطرا سطرا ، وكأنه يغنى بها فى روحه.. ولم يلبث ان استرد وقاره ورصانته ، وامسك القلم بجهد ، وكتب الى المركيزة بيد متأثرة ، بحيث لم يستطع ان يخط من الحروف الا بعضها :

(سيدتي ، هانذا مغرق فى أعمال تتطلب منى بلا شفقة آشد الاعتكاف .. فانا الآن فى خلوة دير . وقد دق النافوس . ولبيت الصلاة . ولم أعد أســـتطيع الخروج الى صالون . مهما يكون الصالون شائقا)

واعاد قراءة ماكتب ، وبعث به .. وخف الى مدام دى برنى ، فوجدها حزينة ، وقد وهن العظم منها ، وتخونت جسمها الاوجاع .. فقرأ لها مخطوطه الذى وصف فيه ما لقيه من حب المركيزة دى كاسترى .. وفيه اشارة اليها ، هى وتمجيــد للمرأة التى نال من جمالها الزمن ، وان ظل قلبها للحنان كنزا لا يفنى على الايام .. فقالت له ، وهو منصرف ، بعد مطالعة أربع ساعات :

ــ ياحبيبى !.. انك اول كتابنا . ولست أدرى ماذا افضل فيك : أعبقريتك ، أم طيبتك !..

وارتاح لهذه الكلمات من فمها .. ومع ذلك قضى الصيف ولم يعد اليها ، كان يعمل ، وكان منصرفا بكليته

للـكونتس دى هانسكا .. فهو على أمل مغر بلقائه -!
وتشيكا . اذ تقوم برحلة حتى «نيوشاتل» ، مع زوجها
ومع طفلتها الوحيدة التى بقيت لها من خمسة أطفال ،
ومربية هذه الطفلة .

لقد كان يحبها قبل ان يعرفها . والآ سيعرف من
أحبها . فبأى عينين سوف يراها ؟.. هل يكون أثره
الاول محققا لآماله ؟..

وتوالى عليه الفرح والحذر !..

ثم آن له ان يستقل عربة المسافرين ، فسافر كما
كان يفعل كل مرة فى سـفره ، ليس لغير الفرح عليه
سلطان .. وكانت العربة مكتظة ، فأضحك رفاق السفر
جميعا .. ووصل نيوشاتل ، ولم يكن قد نام منذ أربع
ليال ، فسقط على سريره اعياء .. ولم ير الـكونتس
الا فى اليوم التالى . فقصد فندقها ، فقيل له : انها
خرجت .. فأسرع الى طريق المتنزه الكبير .. فلمحها ..
وعرفها .. وصعدت حرارة قلبه الى مخه . فلم يشك
لحظة ..

وكان بيدها كتاب .. ولما رأت بأية عينين ينظر اليها
هذا الرجل الشاب الضخم أفلتت كتابها .. فهرع اليه
فاذا به قصته : « المرأة فى الثلاثين » . فنزع قبعته ،
وجثا بركبته على الارض، وقال بصوت يختلج حرارة :

ـ ايف !. ايفا !.. أهذه أنت ؟ !..

فصرخت ، ومدت اليه يديها :

ـ اونوريه !.. (وكادت تختنق) اونوريه .. دى
بلزاك !.

فنظر اليها ، دون ان يستطيع أن ينبس بكلمة .

يالله !.. ياللطف !.. يالها من علوية الحسن !..

يالنعمة !.. لقد ارتعش اذ الفى جمالها لايعدله الا جلالها !.

وكانت الفتنة فى فمها ، الصغير ، العنابى ، وفى العينين السوداوين ، المتلئين احلاما ، وفى اليدين البضتين ، الناصعتين ، اللتين كأنهما تشفقان من القبض على كل هذا الهناء !..

واقتربت منهما صبية صغيرة فى معطف أبيض وردى .. وكانت « انا » . طفلتها . فقبلها . وكلمها ..

وأخرجت الكونتس دى هانسكا فى تلك الاثناء نظارة يدها المرصعة ، لتزداد فيه تفرسا وتمعنا .. فوجدته قصيرا ، سمينا ، مستديرا .. وأنفه «كالاستبكة !» . وبعد ذلك رأت العينين ، عينى النسر المحلق ، ترسلان النار التى يرسلها قلمه !.. فابتسمت عندئذ ، ولاح سعدها .. أنه هو بعينه !..

وأقبل سيد طويل ، فى ردنجوت أخضر ، هو الكونت دى هانسكا ، زوجها . فقدمتهما الى بعضهما . فالتهم بلزاك الكونت بعينيه ، ولكن هذا كان منصرفا الى البحيرة الجميلة يتأملها بالنظارة المعظمة .. لم يكن يعنيه مابهما . لم يكن من أهل الادب أو هواته ، فمنذ أجيال ، ورجال الطبقة الراقية فى بولونيا يألون من السلطات المتحكمة فيهم ، الما أشد مما يعرفه نساؤهم . وكان النساء يتثقفن بالمطالعة ، والمحادثة فيما بينهن ، فى حين ينصرف الرجال الى الاعمال . ولم يكن الكونت دى هانسكا قد قرأ من بلزاك سطرا . كان مشغولا : بضياعه الواسعة ، وغلاله الوفيرة ، وغابات صيده وقنصه . فلم يكن لديه وقت للروايات والروائيين . وعلى ذلك ترك فى نيوشاتل زوجته تعنى ببلزاك ، ومن ثمة بدأت لصاحبنا سلسلة ايام ستظل ذكراها ترن فى فؤاده حتى

الممات . فقد ثبت له الآن ، وتحقق ، ووثق وثوقه من مطلع الشمس فى شهر يوليه : بأن قد بدأ فى حياته الحب الاعظم . فاندفع نحو الكونتس دى هانسكا ، يكاد يردد الكلمات التى قالها مندفعا للمركيزة دى كاستري

ـ لقد تبينت انني لم أحب قط من قبل !.. انك انت التى علمتني الحب .. انك المرأة التى وعدني الله !.. انت يا ايف !.. يامعبودتى حواء !..

ثم أمسك بذراعيها ، أو بيديها ، بعد ساعتين اثنتين من لقاء المتنزه .. فدهشت بداءة !. ثم دفعها باعترافاته المتملقة :

ـ ان رسائلك اخبرتنى بكل شيء !.. ان أحدا لم يكتب مثلها قط !.. وقد رأيتك وأنا أقرأك .. فلا تخافى .. سأجعل لك الحياة المدهشة الجديرة بنفسك الشاعرة !..

وكان قد مضى عليهما ستة أشهر يتكاتبان بمثل هذه الاقوال الشعرية الجنونية !. فهل كان يستطيع ان يلقاها دون ان يصيح : « ياحبيبتى !.. » ؟. أما وهما قد خلقا للحب .. وكانت واثقة من ذلك مثله . .ووقد كتباه لبعضهما عشرين مرة .. فقد قال لها ، وهو يوصلها فى المساء الاول الى فندقها . بصوت تغني نفسه فيه وتصدح ، وتهتز فيه كذلك رغبات جسمه :

ـ ايف !.. الآن اكتملت . اذ وجدتك ، بعدما كنت ناقصا .. يا أنثاى !

ويعود فيغنى لو عاش معها فى جوها النبيل :

ـ انني هناك ، فى فرنسا ، أختنق .. فليس حولنا بعد نبل ولا نبلاء .. ان النبلاء الذين بقوا لنا قد جففهم الحقد على كل ما ليس نبيلا . ومضت على سنوات اضرع فيها سرا : « رب اجعلني أروح فأستنشق هواء

آخر .. فى بولونيا مهد أحلامى !. » . ايف !.. انك انت المرأه النبيلة حقا ، التى انتظرها واتمناها !..

وكانت عاطفتها المتأججة ، واستسلامها على طول الخط ، وتنهداتها التى لا عداد لها .. هذه كلها كانت تعنى : « هيت لك » !.. ولكنه لم يطلب اليها ان تجيء عنده . فقد كان فندقه صغيرا ، وكانت غرفته حقيرة . فأخر ساعة ذلك الهناء ، الذى كان أحرص مايكون عليه ، حتى يكون أجمل مما هو الآن وأكمل . وتركها فى نبوشاتل .. ومازالت وفية لزوجها ، وان كان العشق قد طاح براسها ..

وجاءت تودعه ، بصحبة الكونت ، عند سفره ، وكانت مشيتها من الرخاوة بحيث لم يملك لرؤيتها الا ان يحس النار فى عروقه .. فقال للكونت دى‌هانسكا :

ـ ما أرق خضوركم لوداعى أيها الكونت !..

ثم التفت نحوها فجأة :

ـ الى الملتقى ياضياء أيامى ، ونور ليالى !..

ثم نظر الى الزوج :

ـ ارجو ان يطيب لكم المقام ..

ثم انحنى على المرأة :

ـ الى الملتقى يارجائى !.. ياحبى الوحيد !.. ياغرامى وحدى !..

ثم عطف على الكونت :

ـ اظن ان الجو سيروق ويصحو ..

ثم اجتذب عينى ايف بعينيه العسلبنين :

ـ الى الملتقى .. يازوجتى !..

وكان الفراق على مثل هذه الفتنة المضرمة كفيلا بأن يجعل كلا منهما يذهب ليعيش من‌جانبه أياما محرقة ؛

يتصلان فيها بالرسائل ، ويصلان الى ما لم يبلغاه بالوصال :

(هاك قبلة ، يا امعاى ، على شعيك العزيزين .. قبلة تذهب رأسا الى قلبك ، وتشمل كل سخصك .. سترين كيف أن الوصال سيزيد اشتعالا)

هذه هي عبارات المراسلات الاولى بعد اللقاء .

ولا يلبثان ان يلتقيا ثانية ، بعد أسابيع .. ويمهر العهد .. ويكون كل منهما للآخر . ولا يعود الكونت دي هانسكا شيئا مذكورا ..

وتجن ايف جوى وصبابة .. وتصبح لا تطيق البقاء مع زوجها . وتصير رسائلها صرخات .. فهو بلزاك ، الاون ، الذى يصبرها ، ويهدئها :

(يا ملاكي ! .. دعي الامر الى حين ! .. ولا تغادرى الدار ، وتكسرى القيد .. أبنها السجنة المعبودة .. ان حبيبك سوف يلبى نداءك .. فلا تخيفى حبيبك ! ..)

وعرضت له ، مرة أخرى ، صورة تلك المركيزة دى كاسترى ، المرأة العجيبة ، المرأة المريعة ، التى تبدو كأنها قدت من جليد ، امرأة شقية ، ولاريب ، جافة القلب ، لن تتذوق يوما لذات الحياة العليا .. ولم يعد بلزاك يفكر فى الانتقام منها ، بل فى الاشفاق عليها .. لذلك لما التمست منه أن يزورها ، لشدة مرضها ، ذهب .. فاستقبلته باكية :

ـ بالله لا تسيء تفسير زفراتى ، يا اونوريه العزيز .. فانى أعرف حياتك .. وثق اننى لا أموت ألما ولا غيرة ، وانما أموت فحسب .. فالموت خاتمة محتومة ، لا نكاد نضع فى الحياة أقدامنا ، ونجمع بعض الخير حولنا ، حتى نضطر الى حمل أنفسنا متهالكين راحلين .. ولكن اذا كنت ابكى فذلك لانى سأفقدك ، ولا ادرى

مدى ذلك الحرمان ، لأن كل ما وراء هذه الدنيا خفاء فى خفاء .. ولشد ما أحببتك يا اونوريه !.. وما أقسى الموت على الحب ! وأنا الآن فى الساعه التى لا يكذب فيها الانسان . وانت تحس ذلك فى أنفاسى التى تحرق شفتى . وعلى رغم حزنى لمغادرة هذه الدنيا ، فعزائى ان الله حفظك للمصير العظيم ، المقدر لك ، وللحربة التى ترفع فيها ، وللمرأة التى ستحبها ، لأننى واثقة من انها ستكون حقا امرأتك !..

وكان لابد لبلزاك ، بعد هذه الزيارة ، من ان يتهالك فى العمل ، ليخفف من الشجن الذى سببته له عينا المريضة العزيزة .. فجرد قامه .. وصار يعمل فى ساعة ما كان يعمله فى يوم . وكانت فكرة سفره للقاء « ايف » قد قلبنه جبارا ، لايعرف التعب والنصب ، قد منحه أعصابا وعضلات ، ودما ، وحراره .. لانه لابد من هذا كله لكتابة قصة من قصصه الخالدة .. كان لابد له من الوصف ، والتأمل ، والسر، والافضاء ، والحديث .. كان لابد له من أن يكون مصورا ، وتاجرا ، وراهبا ، ومؤلفا مسرحيا !.. ايكون هذا كثيرا على انف لتوحى به اليه ؟ ! انه انتهى ، أو كاد ، من آيته الكبرى : Eugénie Grandet . وتوسل فى انهائها بعينى ايف ، وبما يعرفه من روحها ونفسها !..

انها الآن فى « جنيف » بسويسرا .. وليس أمامه غير خمسين صفحة ليختم قصته ، ويكون له من المال مايريد .. فقد وقع الآن عقدا مدهشا مع الارملة بيشيه ناشرة الكتب . فكل ما حوله يحمل على الطمأنينة والثقة .

وهى تحبه .. وهى فى انتظاره !..

وفى يناير ١٨٣٤ سافر الى جنيف ، وحمل فى حقيبته ثوبا فاخرا ، أزراره الذهبية الخالصة من صياغة الفنان « جوسلان » ، الجوهرى الاول فى باريس . وحجز فى « بنسيون ميرابو » الفخم شقة صغيرة أنيقة ، جديرة بأن ترتمى فيها صاحبته بين ذراعيه !.

بيد انه ألفاها هادئة ، تريد أولا ان تتحدث. فقال .

ــ مابك ياحوائى العزيزه ؟.. نتحدث ؟.. اننا لم نعد ظامئين للكلام !.. نحن ..

فقالت بهدوء ، وهى تحدق فيه من وراء نظاره يدها ، محاولة الابتسام :

ــ أريد أن أعرف كم من النساء تشركهن معى فى الحب فى وقت واحد ؟ ..

ــ ماذا تقولين ؟ هذا فظيع ! .. هل أصغيت الى الاشاعات والاقاويل ؟ .. انت تعرفين ان كل ذى نعمة فى الناس محسود .. فدوسى ما حولى من الحشرات ! ..

ــ ومن تلك اذن : المركيزة دى كاسترى ؟ ..

ــ امرأة أمقتها ! ..

ــ ومقتك اياها لم يحل دون هداياك لها !؟ ..

ــ يا حبيبتى ، انى أحمل اليك قصة شنيعة رسمت فيها الشاذة ، انها امرأة زعمت انى أحبها ، ولم أحبها .. ولم تحرك فى الا سواكن الشر والبغضاء ! .. وأقسم لك يا ايف اننى ما تمنيت أبدا امرأة كما أتمناك فى الهناء الذى تغدق الطيبة والحنان . لسنا عدوين ، وانما نحن جزءان فى روح واحد ، يتنابذان ، ويريدان أن يتصلا ، ويتعانقا ! وانى انتظرك فى « بنسيون ميرابو » .. فمتى تجيئين عندى ، لتحققى آية ارتباط مخلوقين، خلق كل منهما للآخر ؟ ..

ـ ومدام دى برنى .. كيف حالها ؟
ـ انها تختصر يا ايف ! .. انها تموت وهى تباركنا ! .. انها قديسة ! .. ولا يجوز النطق باسمها الا جثوا .. يا صديقتى ، انها لا تعرفك ، ولكنها تحبك . مدام دى برنى ، هى أمى ! ..
فمدت اليه ذراعيها ، وتعانقا طويلا .. ثم قال :
ـ سألتك الا ما نبذت التفكير فيما يسوء . فـــلا تصدقى ، أيها الملك العزيز ، الا ما تسمعينه منى رأسا .. ان حياتى الماضية كلها ، سأبسطها لك بنفسى ، فلا تخافى ، ولا تحزنى .. لقد كنت دائما أقشعر جزعا من الغراميات المبتـــــذلة . انها انت ، أجل أنت ، المرأة النبيلة ، السامية الروح ، التى انتظرتها اوتمنيتها منذ خمسة عشر عاما . ولا أعرف فى بلادى امرأة يمكن أن تقارن بك الا مدام دو ستايل .. وقدجعلتنىصديقتاى: مدام دى برنى ، ومدام كارو ، أكثر ما أكون تشددا فى شئون الروح .. وليس من حب عندى عن غير طريق الروح ! .. أما المجد ، فى الواقع ، فانى أسخر منه .. فما أردته الا لألفت نظرك أنت ، الموعودة بأن تكونى لى .. بيد أنى أعيش فيك ، ومنك ، ولك ! .. وأنت نجمتى الهـادية ! ..
ـ وأنت ! .. انك تمثل لى فرنســـــا .. فرنسا العاطفية ، بمثالها الأعلى : كل شىء ، أو لا شىء ! .. فماذا يسعنى أن أقول لك الا انى احبك ، بكل جوانح صدرى ، بكل مشاعر نفسى ، بكل مجامع قلبى ! ..
ـ بكل جوارح بدنك .. أليس كذلك .. يا ايفا ؟ .. تعالى غدا ! تعالى غدا ! ..
فجاءت ...
ياله من يوم : بحران ، وهذيان ، وفوران ... لن

يتطرق اليه النسيان ! .. سيظل هذا اليوم مطبوعا فى ذاكرتهما ، كما لو كان يوم عواصف ، ورعود فعواصف ، يرى الرائى ، فى الليل ، على برقه ، أبواب الأبدية ! ..

وكانت الكونتس ايف دى هانسكا فى ثوب من الجوخ الرمادى ، فتن به ، فأعطته من قماشه قطعة .. وأقسم لها أغلظ الايمان . وقطعت على نفسها العهود والمواثيق . ولم يعد للكونت دى هانسكا ، الزوج ، وجود ! ..

وكان الرجل فى هذه الساعة ، التى يتعبدان فيهـــا لبعضهما ، يحضر مأدبة رواد جبال الألب ، وهذا الرجل المسن سوف يموت ويرحل .. وستزيح الطبيعـــة عن طريقها مايعوقها . وتصبح مدام دى هانسكا : « مدام أونوريه دى بلزاك » ! . وعند هذه الفكرة ، صاح بها : « يا عزيزتى الحبيبة ! .. انى أحبك كما كانوا يعشقون فى القرون الوسطى ! .. »

فانظر ، وأعجب من مشهد هذا الحب العجيب ، يجرى فى مدينة جنيف نفســـها ، التى شهدت مذلة الكاتب ، وانكسار فؤاده ، عندما وصدت عنه المركيزة دى كاسترى ، ونبذته وهو كظيم !

وكانت الـــكونتس دى هانسكا نموذجا فذا للحسن الأنثوى وهى فى « الروب دى شامبر » ، الذى حملته معها لتلبسه فى بنسيون ميرابو ، حيث كانت تجىء كل يوم ، وكل يوم مرتين ، مدى خمسة عشر يوما ، فى زوبعة عاطفية مثيرة ! .. رغم ماسببه لهما أحيانا الكونت دى هانسكا من الرعب ، لأنه لم يكن دائما فى مآدب ! ..

وكانا ، بعد ساعات الهوى ، يأكلان ويشربان على مائدة صغيرة فى غرفتهما ، ويمزحان .. وهى ، بين قبلة وعناق ، تتوسل اليه [illegible]

— لشد ما أعبدك [illegible] . انت الطيب القلب .. الرجل

العظيم .. ولكن .. بربك ، ياصديق قلبى ، اسعدنى بألا تضع السكين فى فمك ! ..

وهو يضحك :

ــ أيسوءك ذلك ياحبيبتى ؟

فترد بشىء من الجفوة :

ــ ان نساءك : كارو ، ودى برنى ، كانتا تستطيعان أن تقولا لك ذلك قبلى .

أهى عجرفة ؟ أهى غيرة ؟ أهى برودة قلب ؟ .. لقد وجه هذه الأسئلة الى نفسه لحظة ، غضبان اسفا ! .. ولكن كان جناحاه من القوة بحيث لا يستطيع الا أن يطير .. والطائر الذى يحلق فى أسباب السموات لا يعود يرى تراب الأرض .

ولم يلبث أن اكتشف من طباعها فى جنيف ما لم يره فى نيوشاتل .. فقد كانت تغلب دائما عقلها الجبار على قلبها ، فيسوده .. ويصطدم بلزاك بهذه السيادة ، حتى صاح يوما : « آه منكن أيتها النساء ! .. أيتها النساء ، ما أكثر ما فى طبيعتكن من ظلم ! .. » .. وكان أحيانا يرد عليها ردودا جارحة ، أقرب الى الحق منها الى الطيبة ، حتى أحسست هزيمتها ، فكانت آخر كلمة لها أن نهرته لما فى صوته من خشونة ! ..

فعاد الى باريس ، متألما ، مقتنعا بأن المرأة دون الرجل .

وعلى رغم المفاجأة التى كانت تنتظره من بيع كتابه « دراسات فى أخلاق القرن الثامن عشر » بسبعة وعشرين الف فرنك (ألف جنيه مصرى) ، مما عده ثمنا مدهشا لا يصدق ، فقد مضى فى عمله دون فرح أو مرح .

وكان بحاجة الى التسلية .. وباريس بلد السلوى .. فقصد خائطه المشهور بويسون ، يوصى ببذل عديدة ، لن

يدفع لها ثمنا ، وان أقسم على الدفع :
- يا عزيزى بويسون ، ان الناشرين وحوش ضوار !..
(انهم لم يكونوا كذلك الا بالنسبة لنفقاته وبذخه) .. فى حين أن رجـــلا مثلى لا يمكنه الا أن يتفق ، يا عزيزى بويسون ! .. ومنذ ظهور قصتى « أوجينى جرانديه » ، وعيون الدنيا كلها على بلزاك ! .. فلابد اذن من أن تكون بذلتى القادمة آية باهرة ! ..

ومع أنه قد تكرش ، وصـــار جسمه لا ينسجم مع التفصيل الأنيق ، فقد تفانى بويسون فى خدمته ، لأنه كان يحبه . كان يحبه الى درجة أن قدم اليه غرفة فوق محله ، فى ركن شارع ريشليو والبولفارات الكبيرة ، ولم يكن بلزاك راغبا حقا فى أن يعمل بهـا ليكون فى قلب باريس كما ادعى ، وانما لرغبته الملحة فى الاختفاء والهرب من الدائنين ، المتربصين دائمـا ببابه ، يدقون جرس شارع كاسينى ليل نهار ، مما جعل مقامه فيه لا يطاق ، رغم حدائق ساحة الأبسرفتوار ! ..

وانضم الى الدائنين رجال الحـــرس الوطنى ، الذين يبحثون أيضا عن بلزاك ، ليعلنوه بأداء واجبه فى الخدمة ، أو يلقى السجن جزاء وفاقا ! .. وكانت اعلاناتهم يعقبها عادة التنفيذ فورا ، وقد نجا حتى الآن من مطاردتهم اياه، بفضل تنقلاته وأسفاره ، غير أن جيرانه وخدمه قد أنذروه بما ينتظره ! .. فسب حكومة لويس فيليب ، وأقسم الا يخدم فى الحرس الوطنى أبدا ! أبدا .. ألبس بلزاك « القايش » ، و « الجبخانة » ؟ لمـاذا اذن لا يعلق أيضا طبلة ؟ ! وياله من عهد مرذول ! .. ولكنه سيقاومهم وينتصر عليهم .. بأن ينساهم أولا ! .. والآن .. الى العمل ! ..

قال لنفسه : « ان ديونى لا تعد شيئا مذكورا ، اذا

ڤورنت بالمبالغ الطائلة التى ستنتج عن الموضوعات التى تدور فى رأسى .. ولن يكون فى هذا الجيل الا أربعة رجال حقا : نابليون سيد الحرب ، وكوفييه العالم النباتى الذى تزوج الارض ، وأوكونول النائب الايرلندى الذى تقمص فيه شعب بأسره ، وبلزاك الذى يحمل مجتمعا كاملا فى راسه ! ..

ولم يكن يقف فى بذخه وسرفه عند حد . كان يكرر لخائطه بويسون : ان رجلا مثله لابد من ان يكون فى الحياة ، كما هو فى تآليفه ، سابقا لزمنه ! .. فيبدع هنا ، ويبدع هناك .. اى يخلق « الموضة » ولا يتبعها !..

وكان بلزاك يترك شعره ينمو ويطول حتى يروه ، ويتناقشوا فيه ، فلا يلبث أهل الاناقة أن يتبعوه ، ويرسلوا شعرهم ! ..

وكان نسيج وحده ، بلون ثيابه ، وبنظارته التى صنعها له صانع نظارات المرصد ، وبعصاه .. هذه العصا التى كانت فريدة فى باريس ، وكانت من وحى العشق .. فقد سأل مرة الكونتس دى هانسكا أن تعطبه شريطا أو منديلا تذكارا منها ، فأعطته سلسلة صغيرة من الذهب ، مرصعة بالفيروز ، ومنتهية بشرابة ذهبية كالسبحة ! ..

ولم يلبث أن أراد أن يظهر ذلك فى باريس ، وأن يحمله على رؤوس الاشهاد ، كعلامة بديهية على أنه يعيش تحت شارة الحب ! .. فقصد الجوهرى « ليكوانت » المشهور ، واغدق عليه الاوصاف والامجاد ، وجعله يخرج له من عصاه وسلسلتها وشرابتها الذهبيتين صولجانا ، يرفعه فتتجه اليه جميع النظارات المكبرة فى دار الاوبرا عندما يدخل ! ..

وكان النساء يتهافتن عليه فى دهاليز التياترو ، ويكتبن

اليه الرسائل .. وكان يقيم المآدب فى المطاعم ، ويقدم من الوان الطعام ما يزرى بموائد الملوك والامراء .

وظهرت قصته التى رسم فيها المركيزة دى كاسترى ، المرأة التى لا قلب لها . فدهش من ذات نفسه . وبهر من روعة هذا الأسلوب وجرأته وعمقه ! .. ان أحدا لم يعالج الحب قبله هكذا . انه لا يخاف الألفاظ ، ولا الأشياء ، وقد حلل تلك المركيزة ذات القلب المعمى كاللغز ، تلك المرأة التى هو مدين لها بالحزن الذى قبض رجاءه ، ولكنه صقل ذكاءه .. فتساءل : ماذا يكون لو أنه ذهب فقرأ لتلك المرأة كتابه ؟ ! أجل ، أجل .. حتما ! .. لابد للمرأة التى سببت كل هذه الوجيعة ، والتى زعمت أنها اتخذت تابعا لها من رجل عبقرى ، من أن تعرف كيف يتحرر منها وهو يحسن اليها .. لأن الكتاب العظيم هو احسان عظيم ! ..

وهرول الى قصر شارع دوباك ، فوصل والساعة الرابعة . كم من مرة وصل فيها فى نحو هذه الساعة والقلب يذوب صبابة ! .. فلما سأل عما اذا كانت المركيزة تستطيع مقابلته ، تواثبت عليه ألوف الذكريات .. وكاد يحس ضعف الأيام الخالدة ! ..

أذنت له .. فدخل . فلم تصح صيحة الفرح ، ولم تلق بنفسها بين ذراعيه . وهو مع ذلك يذكر رسالتها التى كانت كل جملة زفرة ولوعة .. وها هى ذى الآن معصومة من الألم ، ثابتة الجنان ، تكاد تصبح منها الغطرسة والدلال ! ..

فقدر بطيبة قلبه : «لعلها بكت طويلا! أولعلها قد جففت من عينيها الدموع ! ايه أيتها المرأة ! .. أيتها المرأة الرهيبة ، المجهولة أبدا ! .. من ذا الرجل الذى لا يكون ، أمامها ، شقيا ؟ .. » ..

ولكن لا ! .. انه ، هو ، لن يكون بعـــد كذلك .. لا يريد ..

وأفضى اليها بلهجة الجندى الذى سيغامر فى معــركة بالسبب الذى جاء من أجله .. وانه يريد أن يقرأ لها : هذه .. هذه الأوراق .. كتابه الاخير .

فتبتسم وتقبل . تلك الابتسامة التى ليست وراءها ابتسامة . سيقرأ عليها قصته ، أى قصتها ، وينتصر عليها ، ويخزيها ..

فتستمع ، بينا تهز مروحتها ، وتشير براسها الى انه قد أحسن معالجة الموضوع .. انها ترى فيه نفسها ، وتسمع نفسها ، وتعرف نفسها .. فتبتسم أيضا .. وكان يقرأ بحدة ، حتى اشتد تأثره .. وسألها :

ـ أليس هذا جميلا ؟..

فتقول بصوت نحيف :

ـ نعم .. ومكتوب جيدا جدا .. وانى لآسفة حقــا اذ ضربت موعدا لبضعة أصدقاء .. فهاهو ذا مونسنيير ، الذى يتلقى اعترافى .. وكذلك طبيبى .. والمركيزة دى لابوردونيه ، قد وصلوا معا ! ..

فيقف بلزاك . ويلم أوراقه بعجلة ، ويخفيها ، وقــد احتقن وجهه غضبا ، وتلهب غيظا .. ويبحث عن باب فى الأرض أو فى السقف ! .. وبوده لو ألقى بنفسه فى النار !..أو بذبح هؤلاء الناس جميعا ! .. ثم .. لا يلبث قلبه الكريم أن يخفق فى صدره ، مشيرا عليه بأن العفو من شيم الكرام .. وان قراءه سينتقمون له ، بحكمهم الصارم على هذه المرأة ...

فيودع وينصرف . ويجرى الى شارع دنفير ، حيث صاحبته مدام دى برنى طريحة الفراش ، وقد دخــل الليل ، فيجدها فى الساعة التى تشتد فيها آلام المرضى ..

فيحاول أن يرد الحرارة الى جسمها الفاتر ، وقلبهـــا العاثر ، بيديه الساحرتين .. ولـــكنها تقفه ، وتفتصب الابتسام .. « انها لا تريد أن يرى ألمها .. وكان ألمهـ، لا حد له ، وكانت تعرف أنه قضى أسبوعين فى جنيف . ونبأها قلبها بما جرى خلالهما .. ولكنها أخفت عنه غيرتها . فان عقلها يبرر عملها ، أما قلبها ...

وحاول هو من جانبه أن يخفى ألمه لرؤيتها ذاهبة . فلم يعد ثمة شك فى انها هالكة . يا للحبيبة المسكينة !.. لقد قام أمام عينيه بيت ضـاحية فيلباريزيس ، عندما دخلت الصالون ، مع بنتيها ، فى ١١ يونيه ١٨٢١ .. واحس بفؤاده يتمزق .. وصعدت زفرة الى حلقه . ولكنه نظر اليها ، وطمأنها بأنها خير مما كانت .. وأنهـــــا لا تلبث أن تسترد مزاج الحياة .. ووعدها بالعود لزيارتها بعد أيام ..

وخرج .. وكأنه يسير والى جانبه الحب والموت .. فتثلج جسده . وفطن فجأة الى أنه يحمل شيئا . وكان هذا الشيء مخطوطا يريد تجليده لعزيزته ايف ، مخطوطا يعجبها ، ويجلده فى قطعة القماش من الجوخ الرمادى ، من الثوب الذى أحبـه عليها .. وانتصبت أمام ناظريه الكونتس دى هانسكا تمشى مشيتها الأخاذة ، التى لا تكاد تمس الأرض ! ..

بنسيون ميرابو !.. يا للأيام المجنونة !.. ويا للذكريات السكرى ! ..

« ايف ! .. ياحوائى المعبودة ! .. » ..

ونطق بهذه الكلمات بصوت مرتفع .. لم يلتفت الى من يدفعهم من حوله من المـارة .. فقـد كان مخبـولا حبا ! ..

الجزء الثالث :

النضال مع الموت

— ١ —

ارأيت الى المسافر فى الجبل صعدا، يبلغ القمة، فيشعر بفرح قوى قصير .. فها هو ذا فى غاية جهده . لقد بلغ الهدف ، ولـــكن بلفت الروح التراقى .. وفى الطبيعة المجردة يستنشق هواء من النقاوة بحيث يجعله يترنح .. ولا تحول هذه النشوة دون شعوره برعد البرد .. فيرى أن مصيره ليس معلقا بالبقاء فى هذا المقام الشامخ .. فينزل ثانيا ..

وهذه هى صورة الحياة . فسنوات الوحى والفيض قصيرة . وبعد ما يناضل الرجل الناجح فى سبيل العيش طويلا ، ويبلغ ذروة الخصب الوفير ، لا يبقى هكذا الا يوما ، ثم يعود فيهبط ، ثم يهبط .. ومنذئذ ، لابد له من النضال حتى لا يموت ...

ولم يستطع بلزاك أن يملك ناصية القدر الا عامين او ثلاثة .. وفى خلال هـــذه الأعوام لم يحس الحاجة الى المال ، ولا بآلام الحب ، ولا بمشاق العمل ومتاعب الجهاد .. ونسى فى غيبوبة الهوى ديونه .. ومن شجن الهيام بامرأة جافية وضع كتابا عنيفا .. فهل كان الحكم عليه قاسيا ؟! .. اذن فهو يهرع نحو حب آخر ، يسوقه الى ديون أخرى .. وان كان يبتدع فيه قصة جديدة ! ..

لقد كان يحارب على طول الجبهة ، وكان يعـــاند كل

شيء حتى القدر ، وكان يحيا حياتين أو ثلاثا ، ويجـــد بفضل قهوة البن الى عدم النوم سبيلا ، ويملأ هدوء الليالى بعمل مضن كالعبيد .. ولم تظفر عبقريته وتزدهر الا بما أوتيه من صحة وقوة ، أشبه بالثيران ، لا بنى الانسان ..

ولكن حدث فجأة ، فى هذا الجسد القوى ، أن اختل التوازن . ففى نوفمبر ١٨٣٤ أصيب بشىء كاحتقان خفيف فى المخ . على أنه شفى منه سريعا ، ولم يلق اليه بعد بالا . وكان ذلك انذارا بما يهدد الهناء .

وكانت سنة ١٨٣٥ من أمر السنين . أما سنة ١٨٣٦ فكانت بلاء . فقد صارت الكتابة ضربا من الأشغال الشاقة . لم يعد لديه سبب الى الراحة . فكم من العمر أمامه ؟ انه يخشى ان يجىء الموت فيقطع عليه عمله . ولكيما يتم هذا العمل سريعا مات قبل الأوان .

وكانت أمه ، مثل كثيرات من النساء عندما تتقدم بهن السن ، لا ترى مطلقا وجها للتفاؤل ، وترى وجوها عدة للتشاؤم ، فهى تراكم : العقبات ، والمشاغل ، والمشاكل .. وكان أمامها يذوب يأسا . فاذا كان ما أزل حتى سنة ١٨٣٥ مدينا ب ١٥٠,٠٠٠ فرنك (ستة آلاف جنيه) فهذه غلطة القدر وحده ! .. وكان يقدر أن يكسب من الناشرين عشر آلاف فرنك فى السنة ، مدى ثلاث سنوات ، يسدد منها ستة آلاف ، أرباح ديونه ، ويعيش بالباقى ! .. ولكن اين يجد الوقت المـــادى لذلك ؟ وهو يسعى لدى المرابين الذين يتقاضونه عشرين فى المئة نقدا ، ويتقاضونه خمسين فى المئة من وقته الغالى ! .. ما أصعب الانتاج الأدبى ، وما أشد استحالته ، على دماغ معذب على هذه الصورة ! زد على ذلك ما اشتراه من عربات ، بفكرة توفير الوقت ، الوقت الذى هو لديه أثمن من كل شيء !

.. واذا كان بحاجة الى النور فى الليل ، فذلك لكى يظل ساهرا ، واذا كان بحاجة الى القهوة والنار ، فذلك لكى يعمل فى دفء ، ويحاول أن يدفع ! ..

وتخيل نفسه ، لحظة ، يعيش ، ويتنفس ، فى جو مقاطعة تور الهادئة الجميلة ، والى جانبه عزيزته «ايف» ، التى ستغادر بولونيا لتشاركه هناءه .. آه ! .. هناك ، لن يكون بعد بحاجة الى المرابين ! .. هناك ، لا يتكلف العيش شيئا .. فيطعم الخضر التى يزرعها ! .. هناك ، يسخر المرء من الناشرين ، ومن المجلات ، ومن الجماهير ، ومن الصالونات ، ومن الحرس الوطنى ، جميعا ! ..

وكانت ادارة « الحرس الوطنى » (١) قد أصبحت من أشد أعدائه نكاية به ، واضطهادا له ! .. فلم يكن يروعه شىء ، ويملأه بالغضب والاشمئزاز ، مثل اضطراره يوما الى الوقوف موقف الحارس ! .. ففي ابريل ١٨٣٢ سلم ، واشترى لنفسه سيفا وجبخانة ، لا أكثر ولا أقل ! .. فلم يلبث قط دعوة وجهت اليه . ومرت شهور ، وشهور ، وهو يهرب من السلطات . فتلقى الانذارات ، ثم اعلانا بحكمين صادرين ضده . يقضى كل منهما عليه بالحبس يومين . واخطأوا القبض عليه مرتين ، ثم أمسكوا به الثالثة .. فكانت مأساة من مآسى حياته . فأودعوه فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٧ ابريل ١٨٣٦ المنزل المجاور لسوق الخضر المسمى « دار اللوبيا » L'Hotel des Haricots نسبة الى صحن اللوبيا الرئيسى الذى يقدمونه لكل قادم أسوة بالثكنات ، وأشبه مايكون بطبق العدس الذى يقدم فى مصر . فتراكمت عليه السآمة

---

(١) هى خدمة الرامية لفترات محدودة ، واعمال معينة ، فرضت لظروف قومية استثنائية . خلال السنوات : ١٨٣٠ ــ ١٨٤٨ و١٨٧٠ ــ ١٨٧١ .

والسخط . وكان البرد تقشعر منه الذئاب . وهرول اليه ناشر كتبه الشاب « فردت » .. ولما أغلقت عليهما « الزنزانة » ، هاج بلزاك هيجة الوحش الضارى ، حتى لكأنه سيهم بالتهام فردت ، أو تهشيم رأسه فى الجدار ، أيلقى هؤلاء الأشرار بأونوريه دى بلزاك فى هذه الزنزانة الكريهة ، ليموت فيها من البرد ؟.. أتريد حكومة الملك لويس فيليب أن يقضى فيها نحبه ؟ .. أليست هـــذه مؤامرة وضيعة ؟ . ولكن لا ! .. انه لن يموت من ذلك ، بل يرفع الرأس ، ويقـــادم ، ويبصق باحتقار على : هذا البلاط ، وهذا الحكم ، وهذه « البورجوازية » التى تسندهما ، وهؤلاء البقـــالين جميعا ، المبهورين بذهابهم فى موكب لعرض بطونهم أمام بلاط التويلرى ! .. وانهم وربى ليزعمون أنفسهم جنـــودا ، هؤلاء « الحراس الوطنيون » ! .. ويتصورون أنفسهم على غرار نابليون ! .. وهؤلاء هم نوع المواطنين الذين يعنى بهم جلالته ! .. أما الـــكتاب ! .. فاذا قام الدوق دورليان وزوجته باقامة سهرات أدبية لهم ، فان الملك لا يلبث أن يشعرهما بأنها سهرات فى غير موضعها ! .. أذن فالتجارة والصناعة فوق كل شىء ! .. واذن فهو الجهـــل المطلق بما هو أهم وأعظم ، أى : بالفـــكر!.. أكون بلزاك طريح « دار اللوبيا » ؟! .. ان هذا المشهد ، فى القرن التاسع عشر ، يدعو الى الاستشاطة ، والبكاء غضبا وسخطا ! .. هل قام الشعب بثورته من أجل هذا ؟! .. أيفرح الحمقى بأن يكتب على أزرار ملابسهم العســـــكرية ، ملابس الحرس الوطنى : « نظام وحرية » ، كأن أحدهما ليس مضادا للآخر ؟ .. فما هى هذه الحرية التى تمكن أى سوقى من أن يطرح فى غياهب السجن كاتبا كبيرا ؟ .. وتجعله يخسر : عشرة آلاف فرنك .. أنه سيطالب بهـــا

فيما بعد ! . . بل انه سيخسر (بعد احصاء !) ٠٠ر١٤٥
فرنك ! . .

ثم خانته شجاعته فجأة ، فرثى لسوء طالعه الذى أدى به الى هذا . . ثم طفق : يسعل ، ويهدد ، ويتوعد ، بأن له مجلة chronique de Paris يفضح فيها من يضطهدونه ، ويتحدى من ينتقدونه . . وأنحى على هؤلاء وهؤلاء باللائمة :

ـ أما الصحفيون ، فى هذا كله ، فهم لا يفرقون . . يرون وفرة انتاجى ، فيقولون اننى أكثر القصصين خصبا ، وحسب ! . . فياعزيزى فردت ، ان هناك امرأة حدثتك عنها من قبل ، امرأة مثقفة ، وهى لى صديقة شائقة ، مدام كارو ، قالت لى يوما : « ان المحترفين من أهل الأدب لا يمكن أن يفهموك . . فأنت تضفى من روحك ونفسك على كتاباتك أكثر كثيرا مما يدركون ! » . . وهذا حق . واضف اليه الغيرة والحسد ، فهم يروننى أحلق فى السموات ، بينا هم يتخبطون فى الأوحال ! . . أسفا على أن الوقت يضيع فى هذه الحروب الدنيئة ، الظاهرة والخفية . فعندما أفكر فى اننى سأبلغ ، بعد خمسةعشر يوما ، السابعة والثلاثين من العمر ، أرانى قد انتهيت ، فلم أعد شابا . شعر أبيض ، وبطن أكرش !

فقال فردت :

ـ حسبك ، حسبك ! . . أرى هذا التعلل منك دليل الجوع . . فهل اذهب فآتى لك من المقصف ما ألقى ؟ . .

ـ ما فى مقصف هذا السجن تتقزز منه نفسى تقززها بهذا العهد . . فاذهب يا عزيزى فردت الى مطعم «فيفور» واطلب لى وجبة ملك ! . .

ـ ماذا تقصد بوجبة ملـ . . .

ـ وجبة سمع بها ويدهش لها لوبس فيليب ، الذى

يعلم الناس طرا أنه ليس ملكا ! ..

وجاءت الوجبة الفاخرة بعد ساعتين . وأحضر فردت معه خدم بلزاك ، فقاموا على خدمته ، أثناء تناوله الطعام، فى قاعة الأكل ، أمام أعين المعتقلين الآخرين المبهوتين .. ولما انتهى عاد الى غرفته . وكان فردت قد حصل على اذن بايقاد النار فيها للاصطلاء . فاسترد بلزاك بعض الثقة بالنفس .. وحملوا اليه « من قارئة معجبة علمت باعتقاله المشين » : طاقة زهر ، وفطائر محشوة بالطيور ومربى المشمش .. فتنهد قائلا :

ـ لا شك فى وجود نساء ظريفات . ولا مراء فى أننى عملت من أجلهن الكثير ! .. ولو أن لنا يا عزيزى فردت ثلاثة آلاف قارئة متحمسة فقط ، مضمونات لكل كتاب ، لكان فى وسعنا الثقة من شىء ...

فسأله فردت بلهجة :

ـ من أى شىء ؟ ..

ـ من الاثراء ! .. أنت وانا ! ..

ـ من لا شىء ؟! ..

ـ لا تكن ضيق الأفق ! ..

وطفق يستعرض فى زنزانته هذه الاحلام الجديدة.. واذا بحارس يدخل ، ويعلنه بحكم آخر عليه بالسجن ستة أيام ، حتى ٤ مايو !.. فألقى بالحارس خارجا ، غاضبا ، محنقا ، قانطا ... وسقط اعياء على الحصير قائلا لصاحبه :

ـ أنت ترى اننى رجل انتهى ! ..

وكان هذا الناشر الوفى معه ايضـــا يوم خروجه فى ٤ مايو . فقال له بلزاك :

وكثيرا ما الفت الأنظار . وهم ينتقمون منى ، لشـــدة

ـ هذه التجربة هى درس لى . فانى كثير الـكلام .

طيبتى وصراحتى . وقد فهمت . وهـذا كله سيتغير . وسأعمل الآن فى الظل ، من أجل نفسى .. ولن يسمعنى بعد انسان . فم مطبق . صمت ووحدة ! ..

وكان لابد له ، لتحقيق ذلك ، أولا ، من الا يكون مثقل الذراعين بمسألتين ، أو ثلاث مسائل خطيرة ، هى حديث كل الناس ، أو لا تلبث أن تكون حديثهم . وجاءت مجلته chronique de Paris التى اشتراها منذ ستة أشهر ، فزادت الطين بلة ، ينمنى لو صفى حسابها ، ولايستطيع أن يفعل . وكان من كبار المساهمين فيهـا : الترزى بويسون ، الذى كان مدينا له أيضا بتفصيل ثياب قيمتها اربعة آلاف فرنك ! .. وكان بويسون ، بدل أن يتمرمر ويتذمر ، يقرأ المجلة من الغلاف الى الغلاف (وكانت فى اثنتين وثلاثين صفحة ، تظهر كل ثلاثة أيام) ، ويقول لبلزاك وهو يقيس له البذل الجديدة :

ـ انى لا أفهم كيف أنك ، وهذه كفايتك العجيبة ، لا تكسب الملايين العديدة .. فان أحدا لم يؤثر فى بقلمه مثلك ! ..

ولم تكن مجلته التى تلتهم النقود ، بدلا من أن تدر عليه مالا ، هى شغله الوحيد الشاغل . فقد عاد فالقى نفسه فى مركز حرج مروع ، كما كان فى ١٨٣٩ ! .. وكان عليه أن يدفع ٤٠٫٠٠٠ فرنك قبل آخر السنة ! ... كان يردد ذلك لكل من يصغى اليه ، من خادمه الخاص ، الى أعيان حى سان جرمان،تاركا ، في الوقت نفسه ، الصحف والمجلات الكاريكاتورية تفيض بذكر أسطورة تتردد عن : أنه غنى جـدا ، لأن ذلك كان ، فى صميمه ، يملقه ويرضيه ! .. ولكنه ما كان ليعطيه شيئا ! .. وها هى ذى ناشرة كتبه ، « مدام بيشيه » الأرمل ، قد تزوجت من رجل يدعى « جاكيا » ، فحملها هذا الزوج الجديد

على مطالبة بلزاك بخمسين فرنكا يوميا ، تعويضا عن تأخير المخطوطات ! .. على أن أمله الأكبر كان متعلقـــا بنشر فردت قصته : « الزنبقة » . بالله ! .. انه لم يكد يخرج من «ثكنه اللوبيا» ، حتى رأى نفسه مضطرا لرفع الدعوى على مدير « مجلة باريس » ، وهى قضية استنزفت دمه، لشدة ما وضع فيها من روحه ، وشدة ما لقى فيها من خيبة أمل .. لشدة ما كان رجل احساس ، وقلة ما كان رجل أعمال . فان « بولوز » ، مدير تلك المجلة ، كان قد اعطى النصف الأول من قصة « الزنبقة » الى جريدة من جرائد سان بطرسبرج . فزعم بلزاك بادئا انه حالم . ثم اقام الدعوى أمام الحقيقة الواقعة ، واستنجد بزملائه من أهل الأدب ، لأنه يدافع عن مصلحة عامة لهم جميعا .. فماذا وجد ؟ .. لقد رآهم جميعا فى صف بولوز ضده ، ليكفل لهم بولوز نشر مقالاتهم فى مجلته ! .. فعانى قلب بلزاك الســاذج من ذلك ما عانى . وكسب القضية ، ولكنه خسر أحلامه ! .. ولم يخفف نجـــاح الكتاب من مرارته ، مع انه بيع منه فى الثانى من شهر يونية ١٨٠٠ نسخة فى ساعتين اثنين ! .. ومرض من ذلك ، فسافر الى مسقط رأسه ، حيث اشتدت عليه العلة .. ثم شفى ، وعاد الى باريس ، حيث كان قد اتخذ: من عام ، مسكنا جديدا ، بشارع « باتاى » ، أثثه وزخرف صالونه بالحرير والذهب ، مضاعفا بذلك ديونه (أنا الغريق فما خوفى من البلل !) .. وكان له باب غير منظور، الى سلم خفى ، كالقصور القديمة . وكان من هذا السلم يصعد الى « سندره » اتخـــذها مكتبا . ومنها يرى : « الشان دى مارس » ، والمدرسة الحربية ، وجرينل ، وتلال ميـــدون . وبذلك يشرف على جانب من باريس وضواحيها . وكان يقـــول أحيانا وهو واهن العزم ،

وأحيانا وهو يتحدى : « كم من قراء بلزاك فى البيوت التى أراها ، وفى التى أتخيلها وراء هذه ! .. لا شك فى أنهم فى كل مكان ! .. » .. وسيثبت الزمن أن قراءة سيكونون فى كل زمان أيضا .. وأنه سيترجم على ضفاف النيل ، ويقرأ شباب الشرق ، المتحمس لكل ما هو جميل، هذه الحياة الموفورة العجيبة .

وما كان بلزاك ، بكل هذا الجهاد ، مع الديون المتراكمة عليـــه ، الا ليشقى .. أو لم تر كيف تقبل من الكونت والكونتس دى فيكونتى الذهاب الى تورينو ، من أعمال ايطاليا ، ليكون وكيلا عنهما فى قضية تتصل بالدفاع عن مصالحهما ؟! أيترك هكذا شهرا كاملا ، منضدة عمله ، ويسافر هادئا الى الخـــارج ، فى خدمة أحد السادة ، لا يكاد يكسب الا قوته ، ويرى فى ذلك عملا محمودا ؟! ويغيب عن باريس من ٢٥ يونية الى ٢٢ اغسطس .. ويعود فيجـد فى بيته بريدا ضخما ينتظـــره .. وينظـر الى الفلافات ، فيرى غلافا منها رابه أمره ، ففتحه ، وضرب المنضـدة بقبضته ، حتى كاد يكسر يده ! .. فهو نذير له بحكم آخر عليه ، لأنه لم يقم بدورته فى الحـــــرس الوطنى ! .. وكان ثمـة خطاب آخر ، عرف فيه خط الكسندر دى برنى ، نجل صاحبته الحبيبة لور دى برنى . فقضه ، فاذا به :

(لابولونيير فى ٢٧ يولية ١٨٣٦

هذه رسالة حداد . يامزيزى اونوريه ..)

فكف قلب بلزاك عن الخفقان . وبحث بعينين جاحظتين ، من هول الصـــــدمة ، فى خلال الصفحة ، عن الـكلمة المحتومة . فوقعتا عليها . لقد ماتت ! .. ياللسماء ! .. لقد سقط فى كرسيه كما لو كان قد صعق صعقا . ماتت !

هي ؟ .. لور ! .. لور ! .. وناداها بصوت متحشرج مختنق ، وقبل أن يقيس مدى مصابه فيها ، رآها بعين خياله على فراش الموت ، ثم مسجاة في قبرها ..

ـ أواه .. ياحبيبتي !..

لقد سقط قناع من الحـــــزن على عينيه ، فأمسك بالخطاب ، مرتعش اليدين ، لا يكاد يفك خطه :

(... بعد عشره أيام في الام عصبية حادة للغاية . فضت أمي نحبها في الساعة التاسعة من هذا الصباح ... لقد انتهت حياة هذه الام الطيبة . وقد هدأت الآن ، واستراحت في جدثها . وقد رتبت قبل مرضها الاخير رسائلها . وجعلتها في ثلاث لفائف .. واحدى هذه اللفائف تحتوى على جميع مراسلاتك معها منذ عرفتك . وهذه اللفائف المربوطة المختومة باحكام . لدى منها أمر قاطع باحرافها ، بمجرد موتها .. فبعد ساعة من كتابة خطابي هذا ، سأشعل فيها النار ...)

وكان بلزاك ، وهو يقرأ ، يئن ويتوجع . فقد كان في عربة المسافرين ، ليقضي مهمة الكونت الايطـــالي ، بينما حبيبته تقضي نحبها .. فلم تره .. ولم تسمعه .. ولم يقف الى جانبها ! .. وهو ، وقد سمع اليوم بموتها ، لا يستطيع أن يهرع ليجثوا أمام رفاتهـا .. فعليه أن يذهب ليقدم حسابا عن مهمة في ايطاليا .. فيقول : « انني لا أستطيع حتى قضاء الواجب المقدس ، من وداع التي كانت كل شيء لي ! .. انني عبد رقيق ! .. انني أتعس الناس ! » ..

انه لم يرها فعلا الا بعين الخيال ، وهي تمد ذراعيها الى ولدها ، تسلم روحها ، في لوعة الحنان الأخيرة ، زاعمة أنها يغشي عليها بين ذراعي أونوريه ! ..

يا للسماء !.. انه لم يرها منذ عام !.. عام !.. هذا فظيع !.. ولن يجد لنفسه عزاء .. بعد كل ما تراكم عليها من مصائب : افتراقها عن زوجها ، وموت احدى بناتها ، وجنون بنت أخرى !.. على انه ، من

جانبه ، قضاه عاما مضطربا منحوسا !.. انظر ماناله من مجلته ، ومن قضية ناشرة كتبه « بيشيه » ، ومن قضية قصته « الزنبقة » ، ومن كل تلك الشناعات التى جعلته كمن حقت عليه اللعنة فكان من الهالكين .

انه اليوم يتذكر نصحها اياه بألا يكون كثير الطيبة ، والا يكون مفرطا فى الثقة بالناس .. وها هو ذا يرى صدق نصحها . ان الافراط فى الثقة معناه ان يكون معتوها فى عالم محشود بالقرصان .. وها هو ذا يجد نفسه ، مرة أخرى ، فى شارع دى باتاى ، يعيش فى غرفة سطح ، كما كان منذ خمسة عشر عاما سواء بسواء !.. فياللسنين التى غمرته بطوفانها دون جدوى، أحيانا تحرقه بنارها ، وأحيانا تجمده بثلجها . وآه ! لولا ما تخللها من بعض العطف الانثوى ، وبعض الحنان!

فحاول ، بالكتابة الى صديقاته ، المجهولات والمعلومات ، أن ينخفف من حزنه ، وأن يتشدد من ضعفه ، وان يطرى ذلك الملك الذى فقده ، فيلطف بالمديح والثناء عليها ، من الندم على قضائه عاما دون زيارتها . فكتب الى ثلاث نساء .. الاولى تدعى لويز، وهذا كل ما يعرفه عنها . وهو لم يرها قط . ولكنه كان يتبادل واياها الرسائل التى بدأت بصيحات النجوى والاعجاب ، ثم تحولت الى نداءات التمنى ورسم الرضاب !.. وكانت تلك المرأة ، ببقائها خافية عليه ، مجهولة منه ، ذات تأثير شعرى فيه لايقاوم .. فهو يروى لها ، أول ما يروى ، حديث بثه وألمه :

(ان المرأه التى فقدتها ، كانت لى : أكثر من أم ، وأعز من صديقة ... انها ملك هبط على ، ليرحمنى من هول ما ألقى فى هذه الارض المستعرة بالويلات .. وقد أيدتنى : بالقول ، وبالفعل ، وبالتفانى ، فى أحلك الليالى ، وأشد الايام أنواء وزوابع .. واذا كنت أعيش ، فبفضلها ، فقد كانت لى كل شىء ! ...)

وكان فى بريده خطاب من زولماكارو تدعوه ، كالعادة، الى ان يغادر هذا القرن الممقوت ، باريس ، ويذهب اليها ، فى الريف ، ليستجم ويستريح .

آه لو كان يستطيع !.. لقد هرع بالفكر نحو الحياة الجميلة المحيطة بتلك المرأة البسيطة ، الطيبة ، الكريمة ، التى لم تكن له يوما الا : صديقه ، وفية ، نقية .. وكانت تعرف مدام دى برنى من حديثه عنها، وتتمنى لو عرفتها بشخصها ، فراح يبثها مصابه العظيم ..

واخيرا .. كيف لم يكتب خطابا طويلا الى عزيزته « ايف دى هانسكا » ؟ ولكنه لم يكن ليستطيع مع هذه التى كانت خليلته ، ان يبدى ذات الصدق المطلق، يتحراه مع الاخريات ، اللواتى لم يكن الا صديقات !.. ان الكونتس دى هانسكا امرأة ذات أهواء .. فبالرغم من رسائله المشتعلة حبا اليها ، تراه غير وفى لها .. وهى تصغى الى ما يدور حوله من وشايات الحساد.. حتى لقد اضطر مرة الى الاقتراض من ناشره فردت ، وخف الى لقائها فى فينا ، ليخفف من سورتها وغضبتها. فتصالحا . وما كانت لتقاوم قط حديثه . كان : بصوته ، ونظرته ، وحميته ، وفورته . يؤثر فيها،كما كان يؤثر بكتابته .. ولم يستطع بلزاك ، يوم علم بوفاة لور دى برنى ، الا ان يقارن : بين ايف ، وبين تلك التى ذهبت لغير عودة .. تلك التى كانت رءوفة رحيمة به، كريمة معه ، حيية منه .. وقد ماتت ، على مايلوح ، من عذابها الادبى ، دون أن تبوح له ..

آه لتالك المخلوقة العزيزة ، العلية النفس .. أبت الا ان تتنزل عن الحب ، عندما رات انها قد وهنت ، وصارت عجوزا !.. لشد ماكانت تعرف كيف تحب ،

فلا تفكر الا فيمن تحته ، حتى أنها قالت له ، عند عودته من جنيف ، ولقائه ايف : « أحس انك قدعرفت الآن امرأتك الحقيقية ، وأرى هذا خيرا » ..

أى قلب كبير ، هذا القلب الكسير ؟ ! ..

وعندئذ كتب الى الكونتس خطابا مؤثرا بما فيه من عزة وانفة :

(ماتت مدام دى برنى . ولا أقول لك أكثر من ذلك . فان حزنى ليس حزن يوم .. وانما سيمتد ما على بقى لى عند الدهر من عمر .. لقد كانت صادقة . لم ترد الا الخير والكمال لى .. وأنت عندى وارثتها .. فان لك كل صفاتها النبيلة ..)

وشعر بدوار رأسه ، وضيق صدره . كان بحاجة الى الهواء . فخرج . وصعد حتى ساحة الايتوال . وكانوا قد أزاحوا الستار عن « قوس النصر » غداة سفره الى ايطاليا . فوقف يتأمل : ذلك النصب الفخم ، الذى شيد تكريما للبطولة ، وتمجيدا للجيوش ..

المجد !..

لقد تساءل بلزاك ، فى هيجته ولوعته ، عما اذا لم يكن المجد ، كالحب ، سريع العطب .. وعما اذا كان يستحق التهالك عليه ، والتفانى فيه !..

- ٢ -

ان نبوط الهمة فى مثل هذا الرجل ، لايمكن ان يدوم الا اذا ازدادت حالته الصحية سوءا .. هـذا فى حين انها تحسنت . وهو يعزو ذلك الى الاستنشفاء بالفاكهة! فقد ورث عن أبيه الاندفاع المباغت نحو بعض النظم الغذائية . أما وقد التهم أرطالا ، بل اطنانا ، من : الكرز ، والقراصيا ، والخوخ والـكمثرى ، فقد احس بصفاء ذهنه ، ونشـاط جسمه ، واستعداده من جديد للنضال الجبار! فجعل ينظم مؤلفاته فى سلاسل باسم : دراسات اخلاقيـــة ، ودراسات فلسفية ، ودراسات تحليلية . واستأنف مشروعاته عندما كان فى سن العشرين . وبذلك احس بسعادة فائقة . انه يريد : المجد والمال ، معا . وكانت زولماكارو ، المتواضعة ، تحسب انه يمكن الحصول على هذا دون ذلك . وهذا خطأ !.. فلابد من ان يكون المرء اولا غنيا ! قال : « انني اخسر ٣٠٫٠٠٠ فرنك (١٢٠٠ جنيــه) فى السنة ، لأنني لست غنيـــا . فاذا أصبحت غنيا فرضت ارادتى فرضا !.. اذا اصبحت غنيا لا اعرض عملى ، بل يطلب منى ، ولا أكون سائلا ، بل اكون مسئولا .. وليس «اوجين سو» شيئا مذكورا فى عداد المؤلفين ، ولـكنه غنى ، ولذلك يقف ببــــابه الناشرون أفواجا . فالمال هو السيادة . اذن فلا بد

لبلزاك من ان يسود باريس ، ويبهر العقول ، ويضرب على اوتار القلوب ، فيجيئوا يضربون على بابه !..

واعتزل فى « سيفر » ، من ضواحى باريس ، هربا من أحكام الحرس الوطنى !.. وفكر فى : شراء أرض، وبناء بيته ، حتى يسكن الجو المختار الذى يطيب لحياته ، وينسجم واعماله ، فيتوج ذلك جهده ، ويكون حافزا على الدأب ، أى عاملا على الفنى.. لأن المال هو السلطان ، هؤلاء هم العامة . وهؤلاء هم الخاصة ، أتوى على ألسنتهم ، من الصبح حتى المساء ، كلمة سواها ؟ ! اذن فسيعمل كسواه ، وسيكسب مالا، ويثرى ثراء !.. وسيتضاعف فى خلال عشرة أعوام ثمن بيته ، بل سيكون ثلاثة أمثاله !.. وزاره فيكتورهجو فى ذلك البيت ، الاقرب الى الكوخ ، والذى أطلق عليه Jardies: .. ولم تكن أشجاره تزيد طولا عن ثمانين سنتيمترا !.. ولكنه بيته ، فهو اذن بيت كبير!.. وعد زيارة هيجو له بمثابة : الشعر يزور القصص !.. وصار ذلك الكوخ فى سجل التاريخ !..

ولكن بعد سنة واحدة ، لم يعد فى اللغة الفرنسية عبارة يمكن ان نعبر بها عن اشمئزازه من هذا البيت وكرهه له !.. فقد توالت عليه منه : الكروب ، والمصائب لا تحل فرادى . فحوائط الحديقة والحوائط الجديدة، قد انهارت !. انقاض كلفته ثمانية آلاف فرنك !..

وتمكن منه الحرس الوطنى هذه المرة ، فألقى به فى سجن سيفر ، لاثنتين وسبعين ساعة ، بحجة امتناعه عن الاشراف على جنى العنب !.. وهذا كثير!. أيقف ليبيع للناس على قارعة الطريق ؟ !.. أليس اذن المجال ذا سعة لراسمى الكاريكاتير؟ !.. أو لم يكن محقا اذن، يوم أشرف مع صحب له من سطح بيته ذات مساء ،

وبصق على باريس ؟ !..

ثم زاد اقتناعه في عام ۱۸۳۹ ، بضرورة ان يكون له : مركز وطني ، الى جانب صناعة الادب ، مما يجعله ملحوظا من الرأى العام .. وانتهز لذلك أول فرصة لاحت لوهمه . وهى قضية اجرام . فقد حدث ان مسجلا للعقود ، يدعى « بيتل » Peytel ، قد زج به فى السجن بتهمة قتله زوجته . ولكن التحقيق لم يسفر عن بينات ضده . فأطلق سراحه . وكادت تحفظ الدعوى. غير ان الرجل افضى، فى سهرة ، عند أصحاب، بأشياء فظيعة ، ذاعت ، فأحدثت دهشة ودويا . فاستؤنف التحقيق معه ، وقبض عليه ثانية . واذا ببلزاك ، البعيد كل البعد عن هذا كله ، يسخط ، ويستنكر !.. فما شأن بلزاك ؟ ! ذلك انه كان قد عرف عرضا مسجل العقود « بيتل » فى ادارة احدى الصحف ، فحكم بأنه غير اهل لاقتراف جريمة شنعاء. ودرس القضية بتعمق ، أو على الاقل خيل اليه ذلك.. ثم أعلن على رءوس الاشهاد ، براءة المسجل، وخطب ، وكتب ، وحاول ان يحرك الصحف .. ثم سافر آخر الأمر الى بلدة بللى Belley ، حيث وقعت الجريمة ، غير حاسب لمقاومة القضاء حسابا ، ولم يكد يصل ، حتى قرع باب قاضى التحقيق ، والساعة التاسعة مساء . ففتحت له خادم وقالت :

ـ ان سيدى القاضى قد دخل حجرة نومه ..

فصاح بلزاك :

ـ حسنا !.. وأين اذن هذه الحجرة ؟.. ان الامر يتعلق بحياة انسان .. فلا يمكن رفض مقابلتى !..

ثم اقتحم البيت ، وكان القاضى فى « الروب دى شامبر » يملأ ساعته .. فقال بلزاك :

ـ ياسيدى القاضى ، اعتذر اليك عن دخولى بيتك كما لو كنت قاتلا !. ولكن ليس مظهرى كمخبرى .. وكذلك « بيتل » على نحوى ليس بالقاتل !.

وراح بلزاك يترافع ، ويترافع ، ويدافع ، دون ان يسترد انفاسه ، متهما الاتهام ، بشدة وقوة ، حتى ان ستائر الخدر رفعت قليلا ، وبدت منها امرأة فى قميص النوم ، جالسة على السرير .. قالت :

ـ انت تكذب ياسيدى !..

فغص بلزاك ، وصاح :

ـ ماذا تفعل هذه المرأة هنا ؟..

فاحمر وجه القاضى ، وقال محتدا :

ـ انها تفعل ياسيدى ما على المرأة الشريفة ان تفعله ، فى هذه الساعة من الليل .. انها فى فراش زوجها !..

يا لبلزاك العاثر الجد ، الفاقد الحذر ، المحروم حسن التصرف !.. ان دروس مدام دى برنى ، دروس الكونتس دى هانسكا ، لم تنفع فى تهذيب طبعه الحامى ، والخفض من تهوره واندفاعه ..

ان النـــاس فى فرنسا يخافون السيول المنهمرة ، ويحبون الجداول الهادئة .. فنال منه القضاء . وتنكر له الرأى العام . وكانت قصصه تقرأها النخبة المختارة من النساء ، فجاءت هذه القضية التى يتهم فيها امرأة بالزنا ، فحزبت ضده نصف قارئاته . وتهكم النـــاس عليه بالاغانى ، وهجوه بالقصائد . وقضت العدالة بقطع رقبة بيتل . وعاد بلزاك الى بللى ، ووقف فى الصف الاول من الجماهير ، وراء الجنود ، ليراه يصعد الى المقصلة . وعاد الى باريس مريضا ، محنقا ، تجيش بالسخط نفسه .. وبدت له بلاده مضيعة ، لانها ابت الاصغاء الى عبقر !.. وقد وصفوه بأنه خيالى ،

يعيش فى بيداء الاوهام . فاستشاط غيظا !.. أليست المخيله هبة أوتيها من عند الله، ليرى ما لايراه العميان؟ ومضى يحلم فى ان يسود الجماهير ، ويحملها على الاعجاب به على رغمها ..

وكشف له فكتورهيجو مرة المزايا المادية التى يحصل عليها مؤلف القصص التمثيلية . وكان منذ عشرين سنة يحلم بالمجد المسرحى . وجاء هيجو ببلاغته فزاده أقتناعا ، واثار فيه أمنية مستكنة . وكان هيجو حريصا على النفع المادي ، فقد كانت روحه نهبا مقسما بين الشعر والمادة . كان نصفه شاعرا ، ونصفه صرافا ! فعدد المبالغ التي يمكن ان تحصلها رواية تمثيلية فى باريس ، ثم فى الاقاليم . وقال :

— ان كوميديا تنجح ، ولو نصف نجاح ، تدر على مؤلفها بقدر ما تدره قصتان ناجحتان .. أما الرواية التمثيلية الناجحة فانها تعد ثروة . ثم اعادة التمثيل! ثم الجوائز !.. ثم التذاكر !..

فرأى بلزاك ركاما من الذهب !.. ولم يكد هيجو ينصرف ، حتى قرر ان يعود فيؤلف للمسرح . كلا ، بالطبع ، فما كان ليعكف على تراجيديا تتطلب منه شغل سنتين ، بل ان له من الروح اللاذعة اللاسعة ما يجعله يكتب ، فى شهرين ، وربما فى أسبوعين ، كوميديا تدر عليه مالا ، أى تمنحه الراحة سنتين .. وقابل ، وهو فى هذه الهيجة ، الشاعر الالمانى هنرى هينى فى البولفار، فاشركه الرأى ، وقال :

— أستطيع فى سنة ان اكسب مئتى الف فرنك !..

فسخر منه هينى قائلا :

— هذه مجازفة !..

فاستنكر بلزاك سخريته ، وسأل :

ــ أية مجازفة ؟.. اننى لا أجازف بشىء ..
ــ انت تغير سجنك . فحذار ! كل المحكوم عليهم باشغال القلم الشاقة يهلكون اذا فعلوا !.. فابق اذن في سجنك القصصي !..

ففكر بلزاك فى نفسه ، وهو يفارقه : « لشد ما يثبط هؤلاء اليهود الهمم بتهكمهم الشنيع !.. وهذا الرجل ليس موهوبا من الحياة . انه لايحب الحياة . انه على النقيض من مؤلف مسرحى !.. »

هذا ، فى حين عد نفسه قد خلق للمسرح ! واذا لم يكن قد عالج ذلك بعد ، فلأنه كان متعجلا القصص ، وكانت القصة قبله لا وجود لها ، فى حين كان للمسرح ابطاله . ومديرو المسارح لايتمنون شيئا مثل كوميديا ، او درامة ، عليها توقيع بازاك . لقد أصاب هيجو ، واخطأ هينى !..

وعلى ذلك قصد مدىرى المسارح ، الذين أدخلوا على قلبه السرور بمعسول الكلام .. قال لهم : « اريد أن اكرس نفسي لكم . أريد ان نثرى جميعا !.. ولكن لابد من ان اعمل فى هدوء وسلام . فلا مندوحة اذن عن كبح جماح الدائنين ، الذين يرهقوننى ، ويعطلون عملى .. لا مندوحة عن تقديم خمسة عشر أو عشرين الف فرنك لى سلفا » .

فقبلوا المبدأ عن طيبة خاطر ، قائلين : « ابدأ على اى حال بالعمل ، فلا نلبث ان نوقع العقد الذى يحقق رغباتك !.. » ..

وكانت تدور برأسه مواضيع قصتين أوثلاث قصص تمثيلية ..

وها هى ذى باريس عنده تتطور، وتنار بالغاز الذى جعلها : « مدينة النور » !.. وهى عنده الآن عاصمة

العواصم . وجمهورها فى مقدمة جماهير العالم . وهذه هى اللحظة التى يستحوذ فيها على هذا الجمهور!.. فهو، على ذلك لا يلبث ان يحصل المجد ، ويحصل المال ، مما قد يمكنه ، يوما ما ، من ان يكتب الى حبيبته البولونية الكونتس دى هانسكا : ياعزيزتى ايف .. انى لم أعد فقيرا !.. وليس على من الديون دانق. فاذا استدعت السماء يوما قرينك ، فلن تكون هناك عقبة دون زواجنا ، الذى سيصبح حلفا ساميا بين عقل أوربا ونبلها !..

واندفع يعمل بكل قواه . ورسم للقصة هيكلا . وكتب حوارا . ولكنه ، لسوء طالعه ، كان مأخوذا بدوار السرعة . كان يرى نفسه محوطا بجو المسرح : الخشبة المضيئة ، والجدران الملونة ، والستار يرفع ، والقاعة غاصة بالرءوس المتنبهة ، والعيون المحدقة .. كان مأخوذا بالحاجة الى الكلام ، والى العمل ، والى ان يصفقوا له سريعا ، لأى شىء، كائنا ما كان !.. فبدلا من ان يتم عمله فى الشهرين اللذين قدرهما له ، من قبل ، أنجزه فى أسبوعين ، وكان أحيانا تكفيه بومار ليضع على الورق ثلاثة فصول !.. هو ، الذى ضحك مرة من امرأة سألته : « أيلزم من الوقت لكتابة قصة ، أطول مما يلزم لمطالعتها ؟ » .. كان يكتب قصته التمثيلية فى مقدار الوقت اللازم لتلاوتها ! .. وكان متعجلا اخراجها ، الى حد انه هرع الى أصدقائه، القريبين والبعيدين ، الذين يحبون هذا النوع ، والذين يحتقرونه ، يتلو عليهم آيته ، ويمثلها تمثيلا ، يتقمص شخصية خمسة عشر نفرا بلسانه !.. وكان متلهفا على رؤية أثر هذه الادوار فى عيون السامعين .. وكان يقطع القول على أخلص الاصدقاء بقوله : « اعرف ،

اعرف ، ملحوظتك منهومة .. لكن انظر القصة فى مجموعها ، فهى مدهشة !.. »

وفى يوم من عام ١٨٣٩ دعا فى بيته المهشم اصدقاءه الكتاب : تيوفيل جوتييه ، وجوزلان ، ولاسايى ، ولوران جان ، الى الفداء ، ثم سماع الكوميديا التى أتمها .. وقد سماها Les Mercadets .. وعند اللون الثالثمن الطعام قال جوتييه ، وكان على ود وثيق ببلزاك ، ويحمل له كل الحنان والاعجاب :

ـ أتراني حالما ؟ !.. يخيل الى اننى آكل البصل فى كل شيء !.. اننى أكاد أصبح بصلة !..

فضحك بلزاك قائلا :

ـ أيها الطفل !.. اننى أردت هذا .. فانى حريص على ان يكون حكمكم صادقا !.. وقد دلتنى التجربة على انه مثل البصل عنصر منبه للذهن !..

ثم راح يقرأ .. وكانت القصة تدور حول البطل « ماركادبه » ، الشبيه ببلزاك ، الغارق فى الدين حتى أذنيه ، يابى التجار أن يوردوا له بضائعهم .. فيقول البطل لخادمه : « كيف يمكن ان يكون هؤلاء تجارا وهم لايتاجرون ، وموردين وهم لايوردون ؟ ! » .. ثم : « اى عار فى الاستدانة ؟.. اى رجل لايموت ، وهو مازال عاجزا عن الوفاء بدين أبيه ؟ ! » .. وكان بلزاك يقرأ ، ويمثل ، فى الوقت نفسه ، هرب البطل من دائنيه ، وحيله المتعددة فى التخفى والفرار منهم ، وهم يلاحقونه ويضطهدونه ..

وبينا كان بلزاك فى نشوة التمثيل هذه ، اذا به يسمع من الخارج دق الجرس . وعندئذ شحب وجهه ، وقفز الى احدى النوافذ ، مهيبا بأصدقائه المدعوين :

ـ بربكم ساعدونى يا اصحابى !.. ساعدونى سريعا

على اغلاق النوافذ !.. انهم دائنى !..

ثم تركهم ، وجرى الى المطبخ ، وأمر بعدم ادخال أحد ، مهما يكن السبب ، وعاد الى ضيوفه ، وتمدد على ديوان ، متصنعا الموت ، هامسا بصوت كأنه خارج من أعماق قبر :

— أتوسل اليكم .. لا حركة ، ولا نامة !.. اذ لو سمعوا شيئا لكنت من الهالكين !..

فطن أصحابه بادىء ذى بدء انه يستأنف تمثيل القصة .. فترددوا .. ولكن اللهجة تغيرت.. ورأوه متأثرا الىحد اضطربوا معه هم أنفسهم، ولبوا توصياته الغريبة . ثم امتد الموقف ، واستمر الحال على هذا المنوال ، حتى أصبح مضحكا .. كقصته .. فصدرت منهم ضحكات مكتمة .. فتمتم بلزاك : « يا أصحابى .. أتريدون مماتى !.. » .. وعندئذ سمعوا جدالا عنيفا عند عتبة البيت .. وكان المتجادلون كثيرين .. وكان الخادم يؤكد لهم بشدة وحزم : « انكم يا سادة ترون النوافذ مغلقة .. فسيدى غائب فى سفر !.». فتعالت أصواتهم بالسخرية والاستنكار ، تتشبه بالحيوانات ، منها : نباح كلب ، ومواء قطة ، ونعيق غراب .. وكان ذلك كله كأنه جزء متمم لرواية بلزاك التمثيلية !

وكان بلزاك متيبسا متصلبا فى رقدة الموت ، منقطع الإنفاس ، كما لو كان قد جرد من الحس والشعور، وفى الظلام كانت عيناه تلمعان وتتوسلان !.. ودامت هذه المأساة المهزلة خمس عشرة دقيقة . وأخيرا ، أغلق باب البيت ، وهمهم بلزاك ، ودمدم ، بصوت صادر من احشائه :

— لقد عجزت ، وشاخ عمرى عشر سنوات !..

وهرع الى المطبخ .. وما زال صحبه فى الظلام ، فطفقوا يدخنون .. فعاد بلزاك فوصفهم بأنهم قتلة !. فقداجتمع عليه أصحابه من الداخل يدخنون ويخنقونه، وفى الخارج دائنوه يمسكون بتلابيبه !.. وكانوا فعلا من شر الدائنين وأخطرهم : أحدهم تاجر نبيذ ، والثانى تاجر عاديات (أنتيكات) ، والثالث مقاول بناء !.. وأخيرا قال جوتييه :

ـ والآن ، هل آن لنا ان نرى الضوء ونشم الهواء؟!

فأجاب بلزاك بزهو وخيلاء :

ـ ولكنى أسألكم : ما الذى يحول بينكم وبين فتح النوافذ على مصاريعها ؟ ! يا للغباء !..

ها هو ذا قد استرد لونه ، وقوته ، وصوته . ولم يمهلهم حتى بدأ تلاوة الفصل الثانى .. فعاد الدائنون فى القصة ، يهددون ، ويتوعدون : ينعقون ، وينبحون، ويموءون ، كأنهم : غربان ، وكلاب ، وقطط .. فظن المدعوون انهم يسمعون فعلا دائنى بلزاك الحقيقيين !.. لقد اقتبس بلزاك طرق دائنيه فى مطالبته بديونهم ، وسخريتهم منه ، وزرايتهم به ، وتهكمهم عليه بأصوات الحيوانات .. وكانوا يتكلمون من كل جانب ، أى ان بلزاك كان كالشيطان : يقفز ، ويلتفت ، ويداعب ، ويركض ، ويهجم .. فخيل الى سامعيه فعلا ان الدائنين يقتحمون البيت : من الباب ، ومن النافذة ، ومن المدخنة ، ومن كل شق !.. اهى حقيقة واقعة ، أم هى كوميديا تمثيلية ؟.. هل يضحكون ؟.. هل يخافون، ويجزعون ؟ !.. ولكن بلزاك كان واقفا يدير هذا كله ، بلسانه العجيب ، واشارته ، وحركته .. فياله من جبار فى تمثيله ، وفى تقليده ، وفى صوته ، وتشبيهه.. وهو يتحدى دائنيه ، مشبكا ذراعيه، قائلا لهم بازدراء :

« آه !.. أتزعمون اذن ان فى بيتى كليشيهات الاوراق المالية التى يصدرها بنك فرنسا ؟ ! »

فيصفق له أصدقاؤه .. ويتبادلون نظرات الاعجاب بفنه الرفيع : تأليفا ، وتمثيلا .. فيدفعه الفرح بهذا التقدير الى الاسراع بالوصول لختام القصة .

وهنا نرى شخصية غير منتظرة ، تصل من الهند ، حاملة أكياسا من المال ، لتنقذ الموقف ، وتصفى الجو.. نرى نقودا ، ثم نقودا ، ثم نقودا !.. نقودا حقيقية ، وليست زيفا ، وليست وهما !.. فيمد يديه ، ويقرض بعض الناس عشرة آلاف فرنك .. ويصيح ضاحكا : « وافرحتاه !.. لقد صرت دائنا ، بعدما كنت مدينا !.. » ..

وبهذه الكلمة ننتهى الرواية التمثيلية .. فينهض جوتييه ، ويأخذ بلزاك بين ذراعيه مهنئا ..

أسفا !.. فلم يكن هذا كله الا نجاحا بيتيا ، لايصل الى خشبة المسرح . فلن يعرف فى المسرح الا الفشل. فقد تشاجر مع المديرين والممثلين والمخرجين.. وأقسم الا يغير مما كتب سطرا .. ومن « بروفا » الى أخرى اضطر الى أن يكتب من جديد فصلا كاملا فى ليلة واحدة !.. وكانوا يلقونه فى تلك الفترة من حياته ، فى شوارع باريس ، شاحبا ، هزيلا ، بلا ربطة عنق ، يجر قدميه من التعب .. وكانت روايته التمثيلية Vautrin أشهر ما أخرج . فحضر تمثيلها ولى عهد الملك لويس فيليب ، فى اللوج الاول ، فرأى تعريضا فى التمثيل بأبيه الملك ، فخرج فجأة .. فكانت ضجة ، وفضيحة .. وفى اليوم التالى منع تمثيل الرواية .

وكانت ضربة قاصمة لبلزاك .. بيد انه ما عتم أن أفاق منها ، وصفا ذهنه ، وحمى قلبه .. ولقى صديقه

جوزلان ، فأخذ يفسر له كيف انه سيعوض العشرين الف فرنك التى كان سيكسبها من روايته ، بأن يزرع حول بيته كروما وأعنابا ، يستخرج منها النبيذ، ويقيم معملا للألبان !..

وكان وقف روايته يوم ١٥ مارس عام ١٨٤٠ ، وبدأ مشروع معمل الالبان ، يثيره يوم ٢١ مارس ، أول الربيع !.. ثم نبذه يوم ٢٢ .. وفى الثالث والعشرين راح يحلم بالصحافة ، الصحافة التى يلعنها ويعبدها!. يعبدها ليكتب فيها ، وينشر ، ويحارب ، ويتغلب ، ويسود .. هو يريد أن يكون حرا ، وانما هم يقاومونه فيها ، ويقصون أجنحته !.. المال اذن !.. ان المال هو المدير الحقيقى لجميع الصحف ، ولا يجوز التنكر لهذه القوة الجبارة . ومع ما فيه بلزاك من ضيق ، وشدة ، واحتداد .. فانه تمنى لو كانت له جريدة . أو ليس يملك من القوة ، واللذع ، والتهكم ، أضعاف أولئك الكتاب « الهلافيت » المسيطرين على الجماهير؟ ان مجلته السابقة « لاكرونيك دى بارى » قد كلفته غاليا . فهل يكون ذلك سببا فى ان يخاف ، ويجبن ، ولا يحاول مرة أخرى ، فى شكل آخر ، بوسائل اخرى؟ انه فى هذه المرة سيؤسس مجلة شهرية ، تكون كالكتاب، فى حجم الجيب . وسيعمل كل شىء : من اللذع السياسى ، والتهكم الاجتماعى ، الى نقد الكتب والمسرح .. وسيفضح طغام الكتاب ، أمثال «اوجين سو » ، ويحطم أصنامهم !.. وينصر آخرين ، أمثال « ستندال » . ويقيم لهم التماثيل !.. وعلى ذلك تمكن ، آخر الامر ، من اصدار المجلة الباريسية Reulle Parisienne فظهرت ثلاثة أشهر ، وكلفته ، بما حملته من ديون ، جهد خمس سنين أخرى ! !

وانسحب مشتركو الشهر الاول فى الشهر الثانى ،
وبعد عددين اثنين ، ألب باريس عليه ، فصار لها غريما ، وأغلقت بقية المجلات أبوابها فى وجهه ، وأحس رجال الادب بالقلق من لذعاته ..
ودس له رجال السياسة ، خشية المستقبل .. فيجب ان يحيق به الخراب ! ذلك لانه كان جبارا . قويا قوة لا تجارى ولا تبارى .. وكان عبقريا .. وكان قلمه ساحرا يخلب الالباب ..
فلم يزد على أن عاد صاغرا الى العمل الذى خلق له . فالانسانية هى هى فى كل مكان : فريسة للصغائر . فليستديرها اذن ، ويعمل عمله وحيدا منفردا .. فهذا العمل هو هويته ، وهو خليلته حقا .. لم يضن عليه ، عليها ، بشىء !.. وكان مرة يتحدث مع المركيز دى بلوى وهو عائد من ايطاليا ، فأشار هذا الى «دانتى» مؤلف الكوميديا الالهية ، ولوح بأن بلزاك يرسم الكوميديا البشرية .. ومنذئذ وبلزاك هائم بهذا الوصف ، فتوج به عمله : المهزلة البشرية !..
وانقطع من جديد ، يداب ويتفانى فى اتمام سلسلة هذه الكوميديا الانسانية ، مقدرا لها جهاد خمسة عشر عاما .. فأنذره طبيبه وصديقه «الدكتورناكار» ، الذى شحب وجهه اذ سمع دقات قلب بلزاك .. فان القهوة التى كان يشربها بالابريق ، لابالفنجان ، قد عملت عملها السيىء ، ونالت من القلب ما نالت ، بحيث لم تعد خفقانه تدق بحرارة الشباب . وانما صارت منذرة بالفناء .. وكان يجمع قلبه حطبا ، ويشعله ، ليخرج آياته البينات ، ولكن كل عود من الحطب كان يخلف له الرماد ، فتراكم قلبه رمادا ..
وكان يخرج بعد شغل ست عشرة ، أو عشرين ساعة ،

كما لو كان بركانا ، فيجتاز شوارع باريس ، وهو يركض ، مرتديا أى شيء ، بلا هندام ، و لانظام ، أشعث ، أغبر !.. فأين هذا من الطاووس عاشق المركيزه دى كاستري ، يختال فخورا في الارض مرحا ؟!

وابتهل اليه الدكتور ناكار ان يخفف من أعباء جهده . فصار يحاجه بأنه أحسن منه فى أى وقت مضى ؟ !.. وكان كاذبا . فهو لم يبح لطبيبه بالسبب الحقيقى لثقته بنفسه .. فقد علم بوفاة الكونت دى هانسكا !.. وهكذا كانت هناك العناية الالهية له ظهيرا !.. فمن ذا الذى يصدق انه لم ير عزيزته « ايف » منذ ست سنوات ؟ ! فقد تراكمت عليه فى تلك السنين أعباء أنقضت ظهره .. وكان وحيدا ، أشد ما يكون وحدة ووحشة ، لا يجد ما يقوله ، للكونتس دى هانسكا ، الا فشلا على فشل ، وويلا على ويل ، فتراخت رسائله .. ولا سيما انه أحس حذرها ، وتحفظها ، واعتزازها بمكانتها ، كزوجة ونبيلة ، وأدامت نقده ، تفرقه بأسئلتها التحليلية ، مما يدل على نقص فى ايمانها بالحب ، بينما كان لايحتاج لشيء حاجته الى : الحنان ، والعطف ، وتأييد أفكاره ، وندعيم أفعاله ..

وهاهى ذى تعلن اليه فى رسالة ، فى شهر مارس عام ١٨٤١ ، انها قد صارت أرملة !.. فلم يخطر له الا انه الآن يستطيع البناء بها !.. وكان دائما يريد الزواج منها . فسيتزوجها اذن !.. فما دام ملكا للفكر ، فليجد رفيقة من أعلى الطبقات العريقة !.. فكتب الى « ايف » رسالة عزاء ، هى صيحة هناء !.

وهو على عمله بعجلة ، ولهفة ، يقول لنفسه : « أسرع . ولا تضيع وقتا .. فالحياة قصيرة . وعملك

طويل..» . فجرت ريشته على القرطاس كما كان يجرى قلبه .. وكان لايرى أمامه سوى ايف دى هانسكا .. ماأعظم الصراع عندما تكون هناك امرأة تنظر.. وتنتظر؟! انه يعمل ، حتى يتهالك : تعبا ، وضنى ، وألما .. بيد ان فكرة المجد والحب تصلب من جديد عوده . وهو لايبحث بالمجد عن مديح الرجال ، بل عن رضا واعجاب تلك المرأة : الحساسة ، المفكرة ، الملهمة !.. واذا كانت كتاباته قد اصطبغت بهذا اللون الساحر الأخاذ . فما ذلك الا لأنه كان يكتب لها ، ويروى لها ، ويتحدث فى الحب معها !.. ان الحب هو دين من أديان هذا الزمان .. هو معجزة الحياة الخفية ، وهو لدى بعض الموعودين : عقيدة وايمان ..

كيف تتردد ايف فى ان تصبح بزواجه فرنسية .. انه اذن لن يتردد فى ان يتخذ جنسها ، ويصبح روسيا، ويتمم عمله هناك عندها !..

وكانت مازالت تتردد . كانت لها عمة تدعى روزالى، تكره بلزاك ، وتراه مخلوقا شاذا ، وترى ان « الزواج به لايشرف» !.. وتتبعت هذه العمة كل أخبار بلزاك فى الصحف والمجلات الكاريكاتيرية ، وجمعت لايف دى هانسكا أسماء عشيقاته : الكونتس فيكونتى ، مدام دى فاليت ، مدام مريوتى ، وغيرهن ، وغيرهن !.. وحقيقة كان بلزاك على علاقات طائشة مع هؤلاء جميعا..ولكنها كانت ترفيهات سطحية ، يروح بها عن نفسه ، على حد قوله : « بين ميدانى المعركة » ! كان يعبث . كان يرفه عن الجسد ، دون ان ينال الروح رذاذ !.. وما أقل النسوة القديرات على ادراك هذه الشخصية المزدوجة فى الرجل !.. النساء عادة لايفرقن بين هذا وذاك !.. فرأى بلزاك ان الكذب أولى .. فكتب الى ايف :

وكان ذلك حقا وصدقا . وكانت عمة ايف تحذرها وتنذرها : « حافظى على سمعتك ، ولا تتهورى بزواج رجل غير كفء .. فمن الحماقة أن تقترن امرأة نبيلة برجل من رجال القلم .. »

ومع دفاع ايف عن بلزاك ، كانت فى صميمها تشعر بمرارة الارستقراطية ، لرؤيتها الرجل الذى تحبه يكسب عيشه من وضع الكتب !.. وكانت ترى خيرا من ذلك : ان يستدين ! فعندها ان الاستدانة والدين من مظاهر السادة !.. ولكن ذلك السيد المدين محكوم عليه بالعزوبة !.. فمهالك الضيق المالى التى يتخبط فيها بلزاك تخيفها وتروعها .. وعبثا قال وكرر قوله : « اننى سرى مثر ، أقوى من روتشيلد !.. » .. فهى تعرف ان ليس وراءه من طوالع السعد ما يشارفها منه غير المشاغل ، والمشاكل : المنتظرة ، وغير المنتظرة !.. فليس الزواج بمثله مما يحميها من المهالك .. فلم تفاتحه بذلك صراحة ، وانما جعلته يدركه من بين السطور . فأحس انه لن يقنعها . ولم يبق له الا أن يملكها من جديد ، فيغلبها .. كيف ؟.. بتآليفه ؟.. انها لم تعد تكفى !.. فليقصد اذن الى بولونيا ، ويخطفها ، ويتزوجها !..

وعلى هذا ، راح مرة أخرى فريسة التفانى ، وبدأت تدب فيه حمى الوحى الاعظم ، التى لن تهمد ولن تخمد فيه ، حتى تنطفىء فيه الحياة نفسها . وكان ذلك جهادا لنحو عشر سنوات ، أهاب فيها بكل مايملك من قوى روحية خفية ، لتظهر وتلبيه . وكان يشبه عقله : بحصان جموح ، يعصى أسابيع بطولها ، ويأبى أن يسير .. وكذلك وجد بلزاك فى صميم نفسه : عناصر

الفضائل ، وعناصر الرذائل ، جميعاً .

ولكى يصل الى السلام المطلق ، اتخذ مسكنا فى حى « باسى » الهادىء . فقد كان بحاجة الى أقصى قسط من السكون ، ولكنه وجد ، طوال النهار ، ضجيج خمس عائلات عمال ، تقطن تحته ، وتجعل البيت برج بابل ، فلا يسوده الهدوء الا ليلا ، عندما ينام الاطفال. ومن هناك أخرج كتبه عن : « الفلاحين » ، و « الآباء الفقراء » ، « عز وذل بنات الهوى » ، وغيرها .. وكان مسكنه ، ومعمله ، قد صار له جحيما تتلظى نيرانها كالسعير. فما من كاتب ، فى كل الاجيال ، بذل مابذل ، فى مثل ذلك الوقت القصير ، من روحه ومن جسده . ولم تعرف نفس ، كائنة ما كانت ، ما عرفت نفسه من حروق ..

وكانت تلك تضحيته العليا ، ان يحترق بالشعلة التى سوف يسلمها للانسانية لتستضىء بها .. وسيموت منها ، ولكنه سيكون عظيما ، بعدما أدى عمله : لله ، وللناس .. وكان عام ١٨٤٤ بالنسبة له عام آلام لايوصف .. فتكاثفت عليه أمراض : الكبد ، والقلب ، والرأس ، والرئتين .. وتحركت ، تأكل منه ، وتقضم، وتلقى على مخه ستائر من الغيام ، فلا يجد فيها الكلمات التى ينشدها .. وعندئذ جزع .. واستمع الى توسلات طبيبه الدكتور ناكار ، فاعتكف ، ونام نوما عميقا .. ولما استيقظ منه ، ولم يكن طبيبه الى جانبه ، هرول الى منضدته ، يلازمها ثمانى عشرة ساعة ، مرغما الجسم على ملاحقة العقل ، كالجندى فى الطابور .

وبعد ثمانى سنوات فى حرمان من رؤية حبيبته ايف دى هانسكا ، تلك الموعودة بأن تصير زوجته ، لقيها فى سان بطرسبرج ، حيث كانت تقضى جانبا من السنة ،

منذ موت زوجها .. وهناك عاشا الاسابيع ، بل الشهور الثلاثة ، فى : حب ، وشعر ، وعبادة .. تم اضطر الى السفر الى باريس ، صحراء الرجال ، بينا عادت هي الى بولونيا ، صحراء الفلال.. ولم يلتقيا الا بعد ثمانية عشر شهرا فى درسدن ، فى يناير عام ١٨٤٥ ، حيث كانت مع بنتها وخطيب هذه البنت ، الكونت مفيزتش ، فجعل بلزاك حياة الخطيبين السابين مرحا جنونيا .. فقد أوتى ، فيما أوتى ، نبوغ التصابى ، والارتداد الى الطفولة الحاوة ، بلا جهد ولا تكلف ..

ثم سافروا جميعا الى ايطاليا .. وكان بوده لو قضى الشتاء فيها ، لولا ان « الكوميديا الانسانية » كانت تناديه ، وكانت طبعة كبرى ستصدر منها .. فسافر باكياً كالطفل .. ولكنه هرب من جديد ، فى ربيع عام ١٨٤٦ ، الى المدينة الخالدة .. تم عاد الى بيت حى « باسى » صيفا ، يعمل الساعات الطوال ، من الليل والنهار ، ويشرب ، بغير مبالاة ، أباريق القهوة ، التى نهاه عنها الطبيب ، وحرمها تحريما مطلقا!.. « ماأعجب ان أحاول العمل هنا صيفا !.. ان فوقى سقفا من الزنك ، وتحتى غسالا بشعل ، طول يومه ، نار قطار!. هذا هو مسكنى ومقامى !.. وهذا حقا رمز حياتى !.. فقد أتممت أعظم عمل فى عصرى ، فى ظروف تحمل بقية البشر على البكاء منها .. ولكن .. ألىس هذا ، فى الواقع ونفس الامر ، هو المعجزة .. ألىس هذا هو الفوز العظم ؟ ! »

وحملت اليه الخادم رسالة ، عرف من غلافها الانيق ، وخطها العزيز ، وطالعها الفريب ، انها من حبيبته ايف .. فأخذها بيد مرتعشة ، ورفعها الى شفتيه ، ولثمها من أعماق نفسه ، مغرورق العينين بالدمع ..

- ٣ -

كان بهم بالرد على الكونتس دى هانسكا ، بعد ظهر اليوم نفسه ، عندما أعلنه خادمه بحضور والدته .. فصاح بفرح :

ـ فلتدخل !.. فلتتفضل ، قبل ان أذوب وأتلاشى! آه يا أمى ، انى أعيش فى فرن !.. انظرى ، انىأتصبب على أوراقى عرقا !..

فتنهدت مدام بلزاك ، التى كانت شقية بكلشىء :

ـ أفلن تكون اذن قط سعيداً ؟ !.. متى أراك هادئا رضيا ، لا تسخط على شىء ، ولا تكفر بكل انسان !

ـ عما قريب ، يا أماه العزيزة !.. بمجرد زواجى من الكونتس دى هانسكا !..

ـ ازواج آخر ليس الا وهما ؟ !..

ـ وهم ؟ ! ولماذا يكون وهما ؟ ! ..

ـ مثل كل مشروعاتك .. ياولدى المسكين ! ..

ـ مثل كل مشروعاتى ؟ سبحان الله ؟ !.. أيكون عملى ، أتكون كتبى ، ليست الا مشروعا ووهما ؟ !.. الم احقق بعد شيئا ؟ ! ..

ـ فى اية ظروف ؟ !

ـ اعترف بأنها ظروف سيئة .. سيئة جدا .. ولكنها ستتحسن ، وتطيب ، اذا ساهمت فيها أسرتى

ـ أسرتك ؟ ! انهـا تلقى الضربة بعـد الضربة من نزواتك وبدواتك !.. واذا كانت حياتى ضيقة بائسة شقية ..

فسقط بلزاك فى مقعده ، ممسكا براسه بين يديه ، قائلا بحزن لاحد له :

ـ أليس اذن شيئا مطلقا ، يا أماه ، ان تكونى أم الرجل الذى ينهض من الرغام ، ويصـبح علمـا من الاعلام ؟ !

فهزت أمه كتفيها .. فرأى استخفافا .. فتابع كلامه بحدة :

ـ هذا ، ويا للآسف ، لاشىء !.. اذ لا كرامة لنبى فى وطنه !.. ومادمت انت من ورائى ، وأختى، وزوج أختى ، تهرفون جميعا بما لاتعرفون .. فاننى أعلنكم بأنه لبس لديكم ما تقولونه بشأن هـذه المرأة ، التى ستكون امراتى ، شئتم ، أم كرهتم !.. وانى لا أسأل عائلتى العزيزة ، عائلتى المقدسة ، الا شيئا واحـدا ، هو : السلام !.. فاذا كانت أمى لا تسـكن قصرا ، فلست أسكن أيضا العلالى والقصور.. انى اقطن بيت عمالٍ فقراء مساكين ، فوق غسـالين !.. غير ان لى مذهبا ، ومثلا اعلى ، بينا أسرتى محرومة من كل مثال. وورائى عملٌ يعمل ، وأسرتى لم تدرك بعد هذا العمل. وهو يسمى : « الـكوميديا الانسانية » .. وهو يتقدم بيد أن قواى تنحط وتتأخر . فلابد لى من الاسراع . وأنا بحاجة الى بيت ، الى حياة داخلية . وستكون لى، بفضل امراة مدهشة .. وسأسافر الى بولونيا ، التى تجهلونها كما تجهلون سواها ، وتضحكن منهـا كما تضحكون من غيرها ، لأنكم تحسبون الدنيا محصورة فى باريس ، وان الله خلق الخليقة ليسمع حكمكم عليها!

ـ ستندم على كلامك هذا وأفعالك ، عندما أكون ميتة ! ..

قالت ذلك ، فى حوش البيت ، وهى منصرفـة .. فسمعها ، وحياها ، وعاد الى غرفته ، يكاد يختنق : « ميتة ! ؟ هى ؟.. هى تعلم جيدا انها سوف تدفننى بيديها ! »

وجفف جبينه ، وامسك بالقلم ، يسـتأنف كتـابة الخطاب الى حبيبته :

(••• تعلمين أننى لم بكن لى فط أم • فما ان جئت الي هذه الدنيا ، حنى بعثوا بى الى ببت مرطى ، حبى الرابعة ، ومن الرابعة الي السادسه وصعونى فى مدرسه نصف داخلية • وفى السادسة والنصف أرسلونى الى قندوم • حبب مكثت حنى الرابعة عسرة • لم أر أمي في خلال ذلك الا مرتين •• آه يا حواثي العزيزة ، انك اذا فورنت بى تكونين فد عست مع أهلك فوق الورد والزهر ! •• يا حسبنى ، فليضم كل منا صاحبه اليه •• لا بتخلى عنى • انك نحلين عندى محل : الأم ، والصـديقة ، والشغيفة • أنت حليلتى ، وستكونين حليلتى ! ••)

وقبل أن يسافر الى بولونيا ، رأى أن يوفر لحبيبته مسكنا لائقا ، هى التى تسـكن قصرا فيه من الخدم والحشم عشرون نفرا !.. ولم تروعه فكرة شراء بيت. فقد كانت له ثقة لا حد لها ، شأن النفوس الـكريمة . وبعد طول البحث والعناء ، وجد ، فى شارع لافورتينيه (يا للاسم الجميل : المحظوظة !) على عشرين مترا من فوبورج سانت اونوريه ، فيللا كانت جزءا من قصر المالى الشهير بوجون . وقد راقه فيها خاصة ان حوائطها مكسوة بالخشب ، بحيث يكاد الخشب نفسه يـكون أثاثا لا يحتاج ليكمل الا الى أقل الاثاث ، فهو يوفر فى نظره أربعين ألفا من الفرنكات !.. وكانت تلك أقوال الخيال !.. وبدأت عذابات الواقع !..

ولـكن البيوت ليست بالحيطان ، وانما بالسكان!. فمتى تأتى ايف لتسكنه ؟ !.. لقد أتت فعلا قبـل أن

يحقق ذلك بوهمه ، فوصلت باريس فى أوائل ١٨٤٧ ..
يالله !. لقد تحقق أعز أحلامه !.. فبعد فيينا . وسان بطرسبرج ، وروما .. ها هو ذا حى باسى سيتخذ مكانه بين المدن المقدسة !.. فلما ظهرت على عتبة الباب ، وهى آية من آيات الحسن ، تعبد لها ، وقدم صلوات الحب !. وسبح بحمد كل ما فيها ، من فرعها الى قدمها ..

فتركته يفعل ، ثم نظرت بامعان الى هذا المسكن الضيق الحقير .. ودون أن تقارن مقارنة لا محل لها ، قالت ضاحكة ، من وراء نظارة يدها :

ـ يا للحياة التى تحيونها فى باريس!.. انكم تسكنون أقفاص ذباب !..

فجاراها بلزاك فى ضحكها ، وقال :

ـ ان الناس يتزاحمون على باريس ، ليغترفوا من معينها النورانى !..

لقد كانت الكونتس دى هانسكا تحس بالنشوة حين تسمعه متكلما ، مثلها فى ذلك مثل : مدام دى برنى ، ومدام زولماكارو ، ومدام ركاميه ، ومدام دى برانتس ومن اليهن ، ممن عرفنه من النساء ..

وجاء ، وهو يقبلها ، حديث الغيرة .. فسألته :

ـ أما زلت تلقى الكونتس دى كاسترى ؟

فتنهد قائلا :

ـ المسكينة !.. لقد حالت جد دميمة !.. فدعينا من هذه الشئون الحزينة .. واعلمى ان « الكوميديا الانسانية » تتقدم بخطا جبارة . فلا تكاد تتم ، حتى نغزو بها سوق الادب الاوربى كله !.. وسأكسب ثلاثمئة ألف فرنك سنويا ، نوفر منها نصفها . فانظرى كم يكون لدينا بعد عشر سنين !.. اونوريه دى بلزاك رأسمالى!

ياله من موضوع تتناوله الصحف والمجلات !..

كذلك كانت مخيلته تصبغ الحياة بالذهب . وكان يصنع من رغبات قلبه : حقائق تبهر القلوب وتأخذ بالابصار !..

وكان قد استأجر لها شقة بقرب الايتوال ، يؤدى بابها الى حديقة ، يخف اليها كل صباح ، وهو يزداد كل يوم فتوة وشبابا .. وكانت الكونتس دى هانسكا امرأة مثقفة ، متعطشة دائما للمعرفة . ففتنت بباريس ، حيث يجرى فى كل خطوة منها جانب من التاريخ ، تحت اشكال شتى ، من الحجارة الجميلة ، الى الشوارع والميادين التى شهدت : شخصيات بارزة ، وساعات مشهودة ، ومواقف حاسمة . وكانت ترى زيارة باريس فى صحبة بلزاك ، بمثابة الاصغاء الى شعر الماضى الذى تعرف أصالته .. وكان سماعها اياه يتحدث ، يبعث فيها حرارة كالنبيذ المعتق .. فشربت ، ونهلت ، وتدفأت وآمنت .. وكان يكشف لها ، فى كل ركن من أركان باريس ، آية طريفة تبهرها ، ويكشف لنفسه آية يسجلها للأحقاب ..

وغادرت الكونتس دى هانسكا باريس ، على غير وعد منه بالزواج .. لم ينل منها فى صدد هذا الوعد الا ابتسامة الجوكوندا ، الشبيهة عندنا ، فى سرها ولغزها ، بابتسامة أبى الهول !..

ومضى الصيف .. وكانت رسائلها تفيض أنوثة ، ولا ترتبط بشىء .. فقرر الرجل الى بولونيا !.. وسافر فعلا . فقطع ثمانمئة فرسخ فى ثمانية أيام . ودخل أرض بولونيا ، ببيوتها الخشبية ، وفلاحيها المرتدين جلود الخراف ! وكان قصرها مفاجأة أخرى . لقد أراد أن يتخيله منذ خمسة عشر عاما ، ولكن عبثا !..

اين الخبر من الخبر ! ؟ كان قصرا أسود أبيض ، لاعهد له بمثله فى فرنسا .. قصرا يونانيا وبولونيا فى وقت معا ، غنيا ، فخما ، منيفا .. فبهت من وجاهتـه ، وتفجر قلبه حبا .. « يا للعظمة ! » .. وكان كل ما فيه يدل على غاية الذوق المصفى ، والثراء الطائل.. حتى الوصيف الذى حمل اليه القهوة باللبن فى الصباح، كان يدعى : توماش .. توماش جويرنانشوك !.. فرأى ان اسمه بربرى ، ولكن مظهره يدل على ذروة الحضارة

ها هو ذا قد نزل أهلا وسهلا . هاهو ذا ، بعد طول السفر ، قد حصل ، آخر المطاف ، على الثروة ، عن طريق العبقرية !.. ما أعظم كرمك يا الهى !.. تعوض وتخلف ، على أسباب شتى !.. أن قارئة بولونية قد جعلته يكسب منها وحدها كل ما سـلبه اياه ناشرو بلجيكا ، الذين طبعوا كتبه دون اذنه !. وهى ، فضلا عن غناها الفاحش ، تمنحه حبها ، حبهـا الاسمى ، وذكاءها الاعلى !..

وكان لاينفك يبدى الوانا من الحنان والمحبة الابوبة لكريمتها « أنا » ، التى تزوجت الآن .. وكان ، اذا ما تنزهوا ، لايفتأ بطرى : بولونيا ، وأهلها ، وخيراتها ، وزراعتها ، وعاداتها ..

ولما كان عقله سياسيا أيضا ، فقـد كان يكفيه أن يشاهد حقلا واسعا من القمح ليحسب ويضرب هكذا : « ان روسيا وانجلترا هما القوتان الوحيـــدتان الحقيقيتان .. انجلترا تصطنع ، وروسيا تنفع وتنتفع، لانها تملك المواد الاولية العظمى (1) .. »

---

(1) تأمل هذا الحكم العظيم ، من كاتب قصصى ، ينظر الى ماحوله كشاعر عاشق ، منذ نحو قرن من الزمان ، قبل ان تجتمع ، فى محالفة ، بالدم والروح ، هاتان القوتان ! .. « ص »

ونعم غراما ، وطاب مقاما .. ولم يكن ينعجل العودة الى باريس ، لولا ان جاءه بريد ينبئه بضرورة العودة على جناح السرعة ، والا سلبه ناشروه ونهبوه ، وجعلوه صفر اليدين !.. فالامر بتعلق بمستقبل « الكوميديا الانسانية » ! مجهود عشرين سنة يتلاشى !.. فانتزع نفسه انتزاعا من كل ما يحب ، واستأنف السفر بالقطر والعربات ، على الا بغيب اكثر من شهر ، أوشهرين !

ووصـــل باريس فى آخر فبراير عام ١٨٤٨ ، فى ابان الثورة .. فلم تدهشـه ، لانه كان يتوقعها من أمد طويل .. فاستقبلها كارها ، ساخطا .. ومع ذلك فقد دخل مع الشعب ، فى ٢٤ فبراير ، الى قصر التويلرى .. ورآه أحد أصدقائه ، فهمس فى أذنه :

ــ كيف ؟ انت هنا ؟ !.. انت ، المدافع عن التقاليد الملـكية ؟ !..

وكان بلزاك شديد الشحوب . فأجاب همسا أيضا :

ــ اننى جئت فى طلب قطعة من عمـــل (قطيفة) العرش !..

ولما عاد ، بعد ستة أشهر ، الى بولونيا ، كانت هذه القطعة فعلا أول ما أخرجه من حقائبه .. وقدمها هدية الى « ايف » !..

وكان ضيق الصدر بالسياسة ، ولم يكن دون ذلك ضيقا بذات أعماله . فان اصلاحات بيته بشـــــارع لافورتونيه لم تتقدم ، فاستقر عزمه على انزال والدته فيه ، لتشرف على ذلك بدقتها وتحرزها . أتراها تصلح لتنظر وتأمر ؟ !..

ولم يعد لديه من الشجاعة ما يحمـله على العيش وحيدا ، بعد مقامه السعيد فى قصر دى هانسـكا .. وكانت همته من الثبوط والهبوط بحيث سقط مريضا

لأول لفحة برد .. وكان مرضه شديداً ، فتداعى له كل ما فيه .. فالرئتان مهددتان .. وكان فى حيـــاته الجسدية كما فى حياته المعنوية ، انما هو قلبه الذى يقود البقيـــة ، وكان هو القلب الشجى أول منكوب مكروب .. فتارة يسعل ، وتارة يختنق.. وحينا يحس ضعفا عاما ، وحينا يزعم نفسه مسموما !.. وكان يقول لمن حوله :

ـــ آه يا أصدقائى ، ماذا يكون حالى ، لو لم تكونوا لى !..

فاستدعوا طبيبين مشهورين ، الدكتورين «كنوث» ، الاب والابن . وكان الاب طالما رأى موتا مفاجئا كما رأى شفاء خفيا ، بحيث لم يعــد يعرف : بم يؤمن ، وبم يكفر.. فقال باحتمال انقاذ بلزاك . أما الابن فكان شابا ، لايمارى فى نظرياته ، فقال للكونتس دى هانسكا : « لا أمل ياسيدتى فى شفائه ! » .. وكان بلزاك المسكين أشد ثقة بدواء الابن منه بدواء الاب !.. وقد أخذ ، بناء على مشورته ، الليمون الخالص : سبع ليمونات ، أو ثمانى ، فى اليوم ، كانت تسبب له غثيانا شنيعا . بحيث وصف له الأب مسحوقا.. ثم تخليا عنه كلاهما ، لقسمته ونصيبه .. (وهل يصلح العطار ما أفســده الدهر ؟..)

وكان يجلس فى مقعد كبير ، أمام المصطلى المتأجج نارا ، وهو ينتفض من الحمى ، بينا يتساقط الثلج ، والجليد ، حول البيت.. وعيناه اللامعتان تسرحان من النافذة ، وتطلعانه على منظر ناصع البياض ، الى جانب النار الشديدة الاحمرار .. ففكر ، على رغمه ، فى : تقهقر نابليون من روسيا ، وحريق موسكو .. أو ليس هو أيضا نابليون آخر ؟ ! فلعل المصير نفسه ينتظره ،

وقد جاء ، كالقائد العظيم ، ليغنى فى فيافى روسيا ..

ويفتح الباب ، ونظهر ايف !.. فتتبدد أحلامه الكئيبه ، ويرسم معها مشاريع المستقبل ، فتبتسم بحزن ، وتعيد ذكرى الماضى !..

وقضى الشتاء فى صعود وهبوط . وكانوا يعنون به عناية ليست من المألوف على هذه الارض . فكتب بذلك الى أمه ، التى كتبت بدورها لتشكر « سيدتها الكونتس » .. وما برح يلح على ايف فى الزواج ، ويلحف ، حتى رضيت أخيرا ان تسأل القيصر الاذن فى الاقتران منه ، طبقا للقانون الروسى. ولم يكن يشك فى حصولها على ذلك .. أكان «بلزاك» عبثا ؟ ! ورفض القيصر!.. فلم يبق للكونتس ، لتحقيق رجائه ، الا ان تتخلى عن ثروتها لبنتها .. ووقع هو فى هوة من اليأس والقنوط !.. أو لم يكن اذن المجد شيئا .. وهو الذى أفنى فى سبيل المجد حياته !..

وفى يونيه تضاعفت أوجاع القلب ، واشتدت به العلة . أيكون قد انتهى أمره ، والارض تناديه ؟ ! أهى مسألة ايام ، أو ساعات ؟.. انه كان كشجرة ، انقضت عليها صاعقة فأحرقتها ، ودمرتها تدميرا !.. وكان يقول لمرضته العزيزة :

— ان رأسي يزن أثقل من قبة كنيسة القديس بطرس !..

واستدعت ايف الطبيبين من جديد .. وسألتهما ، بلهفة واضطراب ، فجاء ردهما هذه المرة : اجماعا على تعذر شفائه .. فبدأت تحس ، وتدرك ، ما فى زواجها به من الخير والرحمة .. وكان يتوسل اليها فى ذلك ، فتعده من فصل الى فصل .. فقبل يديها بحرارة

وهوس .. وما زال يتضرع لها . وما زالت هى تنتحل حججا ومعاذير ..

ومضى الصيف .. انه يحبها .. وهو بقربهـا .. فلماذا لايصبر ؟..

كان ذلك فى أوائل فبراير ١٨٥٠ .. واقبل الربيـع مسرعا .. فهل يكون ربيعه الأخير ؟.. ان قلبالكونتس دى هانسكا قد تزعزع ولم يعد الامر شفقة ، بل صار حبا ، كما كان حالها واباه فى جنيف يوما ما .. وجلسا ليلة يتشاكيان ، وهى أشد ما تكون اشفاقا عليه مما به .. وكان مابه هو الحب !. أحبها ، واحب الحياة. وكانت الساعة تتقدم بهما ، ولا يدريان كم تكون !

ويطلب قهوة ســاخنة ، ثم مرقا مغليا .. فتوقظ « توماش جوبر ناتنسوك » ، فيحمل اليه ما طلب ، فكان بلزاك يجرع السائل وهويغلى بحيث لاتكادالاصابع تتحمل لمس الفنجان .. ويخرج توماش مبهوتا،ويأوى الى فراش ، يتساقط تعبا .. ويتساءل : « ماذا يمكن ان يقولا حتى الساعة الرابعة صباحا !. »

وكان يقول لها ، ، كما كان يفعل منذ سبعة عشرعاما فى رسائله ، كل ما كان ، وكل ما يريد ، وكل مايحب .. فهذا الرجل ، فى كتبه ، وفى نفسه ، لم يكن حياة واحدة . انه كان كل الحيوات ، فى كل العصور..كان فذا فى شخصه ، وفى فكره ، وفى حبــه . كان ملهما بروح قدسى ، ينيره ، فيشرق ، ويبعث الهناء .. وهو يتفانى ، وينطفىء ، ويفنى ..

وحدث ، بعد ثلاثة أسابيع من ذلك ، ان ظلا ليـلة معا حتى مطلع الفجر.. وقد أشعلا النار فى المصطلى سبع مرات . واصغت اليه الساعات الطوال ، دون ان تقول كلمة ، اللهم الا ان شكرته بعينيها الممتلئتين

حبا ، عندما قال لها بصوته الرخيم :

ـ فلنصعد ياصديقتى لنستريح . فما كان أعظمك الليلة !. ان الروح فيك يفوق الجسد جمالا، على جماله!

فنهضت ، وتناولت يديه وقبلتهما بكل نفسها ، وقالت له بتلك اللهجة العزيمة :

ـ أتريد أن نتزوج فى الشهر القادم ؟..

فاضطرب وتمتم :

ـ ايف !.. ايفاى !..

فاستندت الى ذراعه ، وقالت له بذات الصراحة والجلاء :

ـ تعال الى حجرتى .. لتنام معى ..

وفى اليوم التالى أعلنت بنتها وزوج بنتها بعزمها ، وكانا يحبان بلزاك كأب لهما . فبلغ من تأثرهما ان لم ينبسا بكلمة . ثم انتحت بابنتها جانبا ، وقالت لها :

ـ انت تعلمين أن عدولى عن الاقتران به يعد جريمة ، فلتبد ما تألم . وهو مقضى عليه ، وا أسفاه ! .. وتجلى عبقريته المؤاتى ، على الصورة التى تشهدينها فى هذه الايام ، دليل على انه لم يعد من هذا العالم . ولكن اذا كان عقله يرى الآخرة ، فان قلبه يعانى فى الدنيا .. وواجبى ان أخفف عنه ، والطف أيامه الاخيرة على هذه الارض ..

وفى تلك الاثناء ، كتب بلزاك ، بقلم يتعثر سعادة ، الى كل الذين يحبونه ، أو يمكن ان يفروا به .. فكتب الى أمه يوصيها : باعداد البيت ، وتنسيق الحديقة ، وملء الحجرات بالزهور فى اليوم الذى سيحدده لحضوره مع عروسه !. وزف الى أخته البشرى : بأنه يتزوج من أرقى طبقة نبيلة فى أوربا .. وكتب الى زولماكارو يعلن اليها : انه ، هو الذى لم يزدهر ربيعه،

ولم يسعد شبابه ، قد آن له ان يطمئن ، ويستريح خريف الحياة .. وان امرأته تعرفها ، كما لو كانت قد رأتها رأى العين :

(.. فاني قد رسمت صورتك بتأثرات قلبي .. فعديها صديقة حميمة لك . وقد كلفتني أن أقول لك : ان لك دائما فى باريس عرفتك عندنا .. كيف أستطيع أن أرد اليك كنوز الموده ، وكريم المثوى ؟)

وكتب الى الدكتور ناكار :

ان نسب روحتي يتصل مباشره بأمبراطور روسيا .. وكذلك سينم الرواج الذى ما كان أكثر حساده ! ..)

لقد كان سعيدا : فى حبه ، وفى غروره وزهوه ، وفى ادراكه للمنافع ، وفى ضعفه لالقاب النبل ومراتب الشرف ، وفى ميله للعظمة والجاه ، وفى عزمه ان يكون غنيا .. لقد كان سعيدا على طول الخط !..

ولكنه أصيب ثانية بالبرد ، مما كاد يؤخر هذا الهناء الذي لاحد له . وكاد يهلك من شده السعال . وأخيرا ، فى ١٥ مارس ١٨٥٠ ، بعد ثمانى عشرة سنة فى الانتظار ، وفى الهيام ، وفى الحساب ، تزوج من « ايف » ، حوائه الشائقة ، الفاتنة ، فى دير من أديرة الكرملين ، مشهور بصورة معجزة للعذراء .. وكان يوما فظيعا ، ومشرقا .. مشرقا لانه كان ينظر الى زوجته بعينى الانجذاب ، فقد كانت عنده جوهرة بولونيا .. وفظيعا بالنسبة لانحطاط بدنه .. برد صقيع ، ووحل رطب .. وكانت مقاطعة أوكرانيا — التى كانت فى هذه السنين الاخيرة (من ١٩٤١ الى ١٩٤٤) ساحة للحرب العظمى بين الروس والالمان — كانت اوكرانيا هذه ، فى يوم زواج بلزاك ، مغرقة بصيب من مطر متواصل .. وكانت الطرق اللينة تموج تحت العربات .. وصعد بلزاك مركبة مقفلة ، وكاد يتعذر

عليه النزول منها . وكان « توماش » يسنده ، مع «المدام» ، لدى كل ارتجاج . وكان يختنق ، ويشكو. ورأسه على كتف « ايف » :

ــ ياحوائى !.. سأموت قبل ان اعطيك أسمى!..

ووصل. وهدأ. ودخل الكنيسة على ذراع الوصيف « توماش » ، الذى ظل بعينه مخلصا طوال فترة القداس .. وخرجوا ، وقاب بلزاك يذوب من كل شىء حنانا .. وتذكر كلمة زولماكارو : « اذا أصبت بالجنون، كما تقول ، فانى سألازمك وأحرسك !.» .. ورواها لزوجته بصوت متهدج ، وأضاف :

ــ اننى مجنون .. من الهنــاء .. فلازمينى ، واحرسينى !..

وكان الفصل لسوء الحظ قاسيا قارسا ، وكان هو جد متألم ، بحيث لم يستطع السفر فى الحال الى فرنسا ، كما كان يرجو .. ورثى لنفسه :

ــ لشد ما كنت أريد ان أرى الربيع فى باريس . فالمدينة كلها تبتسم فيه ابتسامتها الزكية ، التى لا تشاركها فيها مدينة فى العالم !..

ومضى ابريل كله ، دون ان يستطيع الحلم برحلة طويلة كهذه . ثم راف به القدر فى أوائل مايو، وتحسن تنفسه ، فقال : « فلنسرع بالسفر ! » .. وظل خلال ثمانية أيام يلقى عذاب الشهداء ، ولكنه كان وطيد الامل بأن هواء باريس ، أو جو فرنسا ، يشفيه من كافة أوجاعه التى ضاعفها برد بولونيا ، وأحس عند الحدود الفرنسية بأنه أحسن حالا .. وكانت مدام دى بلزاك (الكونتس دى هانسكا) حزينة .. فسألها صبرا ، فسوف تجازى الجزاء الاوفى !.. وأخيرا بلغا باريس، بعد ظهر يوم جميل ، وكأن الهواء لايحمل الا انباء طيبة

فى عالم سلام .. ثم دخلوا شارع « لافورتونيه » ، فى نحو الساعة السابعة ، مع شعاع الشمس الاخير على السطوح .. وكانت أمه قد آثرت العودة الى بيتها ، تاركة البيت معدا ، بحراسة خادمه الوفى « فرانسوا » .. فقال بلزاك وهو ينزل من المركبة :

ــ انى أحب هذا الشارع ، فهو هادىء ، يريح الفكر .. وبابنا قوى متين .. أليس كذلك ؟..

فقالت مدام دى بلزاك ، وقد لاحظت ان النورمضيء فى داخل البيت :

ــ لقد بادر الخادم الامين !.. ولاريب فى ان الحساء الآن على المائدة .. فلنسرع بدق الجرس !..

ودقا الجرس : خمس مرات ، عشر مرات . ولكن لم يتحرك شيء .. على ان المصابيح مضيئة ، فلا نزاع فى ان بعض الناس فى البيت !.. وسألا جارة لم تكن تدري شيئا .. وناديا .. فلم تفتح نافذة ما .. وانتظرا .. وبدأ الليل يرخى سدوله . ولما ضاقا ذرعا بعثا بالحوذى فى طلب حداد . فجاء وفتح الباب . وظلت مدام دى بلزاك ملازمة الصمت . بينما كانت أعصابه متوترة الى حد لايطاق . فاندفع الى الغرف المضيئة . وهى تتبعه . فوجدا فرانسوا جالسا ، شاحبا ، ينظر اليهما بعينين جاحظتين ، و لاينطق الا لغوا لامعنى له .. لقد أصيب بالجنون .

وعندئذ نزلت مدام دى بلزاك ، فأمرت الحوذى بحمل الحقائب . وفى خلال ذلك كان بلزاك فى الدور الارضى ممسكا قلبه بيديه ، متطيرا ، يتمتم ، كما لو كان مغشيا عليه من الموت :

ــ يا للفأل المروع !.. اننى لن اخرج من هذا البيت حيا !..

— ٤ —

نحن فى العشرين من شهر مايو ١٨٥٠ .. أمام بلزاك ثلاثة أشهر حتى يموت !.. فما هى ثلاثة أشهر من العمر بغير أمل أو رجاء ؟.. كان يرى هاوية تحت قدميه .. وكان يتألم .. ولم يكن ألمه قاصرا على اختفائه ، وهو يكاد يكون شابا ، بكل ما يحمل من أمانى ، وكل ما لديه من مشروعات ، وكل ما بين جنبيه من حب.. بل كان يبكى كلما انفرد بنفسه ، لانه حطم حبـــــاة الكونتس دى هانسكا البولونية ، ليفطيها الترمل عوضا عن ذلك فى بيت خاو فى باريس ..

وليت هذا البيت كان ، على الاقل ، يعجبها !.. ولقد سألها فى ذلك مئة مرة ، فلم يحصل منها الا على أجوبة مبهمة ، كتلك التى يعلل بها الاطفال المرضى .. ولا يكاد يسترد أنفاسه ، حتى يطلب اليها أن يعتمـــد على ذراعها لينزلا لرؤية اللوحات الفنية والبسط !.. ويقول لها :

ـ انت هنا فى الاطار اللائق بك.. فقد ولدت للعيش بين روائع الفكر الفرنسي !..

ثم يسود سكوت ، تقطعه بقولها مثلا :

ـ لا تنس انها الآن ساعة تناولك الدواء !..

ولم يكن يرى فى تملصها من الرد على هذا النحو الا

لونا من الحنان ، فقد قدن ما أعطنــه اياه ، فى عامين اثنين ، بأكثر من ستين ألف فرنك (٣٤٠٠ جنيه) ! انفقها فى مختلف الاعمال !.. وكان يرزح بعرفان الجميل فيكرر لها :

ــ لقد كنت انت حياتى !.. انت تعلمين انه منــذ خمس عشرة سنة وكتبى كلها قد كتبت لك ، وبقربك .. وانت لم تغادرى قط مكتبى .. وكانت صــورتك دائما حاضرة !.. واذا كانت ثمة هذه الحرارة كلها فى مؤلفاتى ، فذلك لانى لم أقلب صفحة الا نظرت اليك قائلا : « ايف !.. انى أحبك !.. » .. وعلى ذلك ، فان قصصى ملك لك .. ولست ألقى الــكلام خبــط عشواء . فانك تجدينها فى مكتبتى مجلدة باسمك . وقد صححت فيها أشياء جوهرية ، سوف ترعينها ياحبيبتى اذا أعادوا طبعها . ولــكم كنت أود لو أعدت قراءتها معك ، حتى تبدى فيها رأيك ، ولــكن الله يأبى .. على ان لى الثقة فى فطنتك ، فقومى عنى بهــذا ، اذا ما اختفيت من الدنيا .. فليس فى الدنيا غيرك فهمنى فى عملى !..

وكانت عندما تسمعه يتكلم هكذا ، بصوته الابح من المرض ، تنسى ، هى التى صارت مدام دى بلزاك ، والتى كانت الــكونتس دى هانسكا ، تنسى : مرارة أيامها ، ووحشة لياليها ، وتهتز بفرح الــكبرياء الذى يعوض عليها تضحيتها ..

وجاء الدكتور ناكار بمجرد رجوعه ، لزيارة بلزاك ، فوقف عاجزا أمام ما شاهده فيه من ضيق التنفس ، وتقطع الــكلام ، وغشاوة البصر .. فتوسل اليه بلزاك ان يعوده كثيرا ، فعاده ، بحكم الصداقة . فكان بلزاك يقول له كل مرة :

ـ آه يادكتور !.. انى أنتظرك بفارغ الصبر.. انى اتألم أكثر مما لو كنت من الهالكين !..

وكان يوما يشكو القلب ، ويوما الكلى ، ويوما البطن .. فقال الدكتور تاكار لمدام دى بلزاك ، وهو يخرج آسفا :

ـ انه ياسيدتى عمل كعشرة رجال !.. ومنذخمسة عشر عاما ، رأيته فى شارع كاسينى ، فزعمته قد قضى نحبه ، وكنت يومئذ لا أستطيع له شيئا .. ولكن .. هل تريدين الآن رأى زملائى ؟..

ودعا ثلاثة أطباء للاستشارة : فوكييه ، ورو ، ولويس . ولم يكن أحد منهم قد بهرته « الكوميديا الانسانية » ! .. لم يكن منهم من سحرته العبقرية ! .. فكشفوا على بلزاك كأى مريض مدنف ، على فراش الموت .. وأمروا بكاسات هواء ، ووضع دود لامتصاص الدماء ، وملينات ، وما اليها .. بلا اكتراث .. وكان الله بالسر عليما !.. وبعد زيارتهم اشتد الاضطراب فى بصره .. وراح خلال مسائين ، فى بحران ، خرج منه مرعوبا يبحث عن ذات نفسه .. ولم يعد يستطيع أن يقرأ او يكتب . ومر عليه أسبوع صحو ، فى يوليه . قال أثناءه لأمه . وقد حملت اليه فاكهة وزهرا :

ـ انى أحبك ، وأعجب بك ، يا أماه !.. فأنت تعيشين بثلاثة صلديات !.. والذنب فى هذا ، وا أسفاه ذنبى .. ومع ذلك تجدين سبيلا للترفيه عنى هكذا.. أتوجد اذن ساعة تجاور فيها الامهات الرفيق الاعلى؟!.

فطفقت أمه تنتحب :

لقد ظلمتنى طويلا يا اونوريه ..

ـ ولقد قسوت على يا أماه .. ولكن دعينا من هذا .. فأنت تحبين زوجتى .. وتستحقين على ذلك

كل حنانى .. وسأعرف كيف أوفر لك شيخوخة هادئة الجناب ..

وجاء فى هذا الاسبوع أيضا فكتور هيجو لزيارته . وروى له من حوادث الثورة حكاية : هرب الملك لويس فيليب فى عربة حصان ، كانت تركب فيها سيدات ، فأنزلهن ، وركب مكانهن !.. فرثى له بلزاك :

ـ مسكين !.. الرجل المسكين !..

وأراد هيجو ، وهو ينصرف ، أن يشجع بلزاك ، ويطمئنه ، فرد عليه هذا بقوله :

ـ أجل .. انى أحسن حالا .. وقد يمكن ان اشفى .. فالساحر المشهور « بلنازار » قد تنبأ لى ، من قبل، بهذا المرض الشنيع فى سن الخمسين .. وقال اننى سأنجو منه !.. فاذا كان ذلك حقا ، وعادت الى قواى، فسأستخدمها كلها فى النضال ضد الديمقراطية !.. فانى لا أدرى كيف أن رجلا ملكا يتنزل عن لقبه كعضو فى بلاط فرنسا ، وهو أجمل لقب بعد لقب الملك ! ؟ .

فرد عليه هيجو بصوت عميق :

ـ هناك ما هو أجمل من الملك ، وهو الامة . وقد قام نزاع طويل فى ضميرى .. وقد كنت عضوا فى مجلس البلاط الاعلى ، مختارا من الملك .. فآثرت ان أكون نائبا ، مختاراً من الشعب ..

ونهض لينصرف ، فقال بلزاك :

ـ ياعزيزى هيجو ، انى أعجب بالديمقراطية عندما تتكلم بلسانك !.. ولكنها عندما تتحرك بأذرع الشعب اخاف وأجزع !.. فالشعوب تجهل ما هو نبيل .. وأنا ، قد أموت غدا ، ولكنى أكون قد حققت حلمى

ونظر الى زوجته ، مواصلا الكلام :

ـ وتزوجت ، وحالفت ، سليلة ملوك ..

وعند هذه الكلمات سرح بصر فكتور هيجو بين الزوجين متأملا .. ثم انحنى ، واستأذن .. فأشار بلزاك الى زوجته أن تفرجه على اللوحات !.. وصحبت مدام دى بلزاك الشاعر الكبير .. فقال لها :

ـ أهناك أمل فى انقاذه ؟

فتنهدت قائلة :

ـ لست أدرى .. وهو اليوم أحسن حالا.. وقد رايت من اشراقه لمحات .. ولكنه طفل كبير.. فاغفر له بعض ملاحظاته .. فهو متعلق بأهداب أشياء اسمها: النبالات ، والسلالات ..

فتأمل هيجو ، مليا ، هذه السيدة السلافية العظيمة ، التى طالما تحدثت عنها الصحف ، بالحق وبالباطل .. ورأى مظهر سيادتها المطمئنة ، وعينيهـا العميقتى النظرات ، وجبينها الوضاء .. فقبل يدها بانحناء .. وانسحب ..

فعادت الى بلزاك ، فاذا به يقارن بين : هيجو ولامارتين .. ويقول ان الاخير ، ولو انه ديمقراطى ، فهو يحب النبالة .. فقاطعته :

ـ ياعزيزى المسكين !. بالله لا تعد الى هذا .. فانت تؤلمنى !.. افلا تدرك اذن أبدا ان النبلاء حقا لايتحدثون قط عن نبالتهم ؟ !.. أفلا تدع الأدعاء بأننا نتصل بالنسب الى القياصرة ..

ـ ادعاء ؟.. ان الوثائق تحت يدى !.

ـ ولو كانت .. فليس لنا ان نذكر ذلك !..

وان بلزاك أنينا ، وقد أصيب باختناق :

ـ رباه !.. رباه !. اقضى على .. اننى لم اعد استطيع نطقا .. انى سأموت .. اقضى على بالا اظهر بمظهرى الصريح ، الطبيعى ، الامين ؟..

وامسك لحظات ، يعانى ، ثم قال :

ـ هاتى مروحتك !.. ردى الى أنفاسى المقطوعة.. ياصديقة !.. أهكذا نزول ونختفى ، عندما تبدأ الحياة تطيب ؟..

والحت عليه العلة . ولم يرده الدواء الا عناء . وكان جسده المضنى لايكف عن تعذيبه .. وانتفخت يداه وقدماه .. وأخيراً ، كان يتحرك ثلاث خطوات فى حجرته فاصطدمت ساقه بقبضة نحاسية فى الاثاث .. فتكون جرح لم يندمل قط . وصار مؤلما ، لايطاق . وكأن فيه ناراً تتاجج ، وتشبعت منه الحمى الى بقية الجسم..

وفى صباح ١٨ اغسطس ، دخلت مدام دى بلزاك الى غرفته ، وسألته ، سألت الممرضة التى تساعدها ليلا، عما اذا كان قد نام قليلا . .فأشار بنظرة شاردة أن : « لات حين منام !.. » ..

واستجمع قواه ، وقال بصوت متقطع :

ـ انى حريص .. على أن أدفن فى مقبرة « بيرلاشيز»

فتثلجت ايف ، وهمت بالرد .. فربت على يديها ، محاولا الابتسام :

ـ انى أرى مارآه نابليون .. من أن من يتعشق المجد ، ليس له غير باريس مثوى ، ومقام أخير ..

وبعد ذلك خفض جفنيه ، ولم يعد يرد الا باشارات مبهمة على أسئلتها :

ـ أتريد أن تشرب ؟.. أانت تتألم ؟.. قل كلمة ياصديق قلبى ، كلمة واحدة ، تطمئننى !..

ولم يتحرك الا لدخول الطبيب .. وفجأة ، كما لو كانت عيناه قد شهدتا القبر ، نظر اليه ، وقال :

ـ هل تظن ياصديقى ان أمامى بضعة أسابيع ؟..

فطلب الدكتور ناكار ، بلطف ، أن يجس نبضه .. فألح عليه بلزاك :

ـ بربك ترفق بى وأجبنى : هل أمامى ثلاثة أسابيع؟

ـ ان نبضك أحسن !

ـ أربعة أسابيع ؟.. لا ؟.. اذن خمسة عشر يوما؟!

ـ بالله دعك من هذا ، واسترح !..

فسأله :

ـ ثمانية أيام ؟..

فلم يجب الدكتور ناكار . وعندئذ اعتدل بلزاك فى جلسته ، وصاح :

ـ ثمانية أيام مع الحمى !.. يكفينى هذا الزمن لأضع فيه كتابا !..

ثم انكفأ على اذنيه .. وبدأ الاحتضار ، ولم يخاطب بعد أحدا من عالم الاحياء .. دخل فى اللحظة العلوية، التى يحاكم فيها المخلوق حياته ويحاسبها قبل ان يغادرها . فرآها كلها : ثلاثون سنة فى جهاد وكفاح للوصول . أربع أو خمس سنوات مالكا لأمره ونفسه .. ثم هو الموت يعلن القدوم .. وليست بقية الزمن الا : نضالا مميتا ، وصراعا قاتلا ، تتخبط خلاله عظمة الروح فى مذلة الجسد .

وعندئذ ، بدأ ، فى عقله الباطن ، حوار مشهود ، بين : بلزاك الذى أدرك مصيره واستسلم ، وبلزاك الذى لشدة تعلقه بالحياة قد أعطاها كل ما أعطاها .. فهو يرحل ، على الرغم من المجهود الهائل الذى بذله ولم يتمه .. أحدهما يقنط من ذلك ويحزن .. والآخر يعزيه قائلا :

« ـ وماذا يهمك !..

والاول يقول :

« – ومع ذلك فقد بذلت كل قواى .. وعشت مئات الليالى المشـــوبة ، وكنت فوق كل ما يلوح فى امكان البشر !.

والآخر يجيبه :

« – ولـكن ما هذا كله ، اذا قيس بمملـكة الشمس الهادئة ، التى تسطع كل يوم على البحار والقفـار ، وتحيى الـكروم والحقول ؟.. ان ابن آدم ليس الا مثالة ، الا مسسخا !..

فيقول الاو لمندهشا :

– أمع كل هذا الجهاد ، لم أؤد الا قليلا ؟!..

فيرد عليه صاحبه :

« – كل شىء على الارض قليل !.. من انت ؟.. ماانت ؟.. وما ميكيل انجلو؟. وشكسبير؟.وبيتهوفن؟! انكم جميعا قرعتم ، عبثا ، الجدار الذى بفرق البشر عن الحقيقة العليـا .. فهـل أسمعتم الحجارة تحت قبضات أيديكم الدامية ؟ !..

فيجيبه بحدة :

« – ان عملى ما كان ليكون قليلا ، لو اننى استطعت ان أكتب « صور الحياة العسكرية » ، اذ كان يمكن ان يكون هذا هو التاريخ الاوربى ، الذى يسيطر عليه ذلك الرجل القزم ، نابليون بونابرت !.. ولـكننى لم أتمكن .. ولهذا سيظل عملى أعرج ..

فيسخر منه صاحبه :

« – ان عملك ، حتى لو كنت قد أتممته ب « صور الحياة العسكرية » ، كان سيظل أعرج فى عيون كل الذين لا استعداد فيهم لتقدير الاشياء العظيمة .. وما أكثرهم !..

فيسأله غاضبا :

« ــ اذن فلن يكون عملى شيئا ؟ !..
فيجيبه :
« ــ انه ضياء فى ظلام .. ولـكنه لن يطرد الظلمات التى بعضها فوق بعض .. »
ونادى بلزاك أبطاله .. واستنجد بأبنائه ، الذين ابدعهم ، وخلقهم ، وسواهم ، من سويداء قلبه ، فى صفحات كتبه :
ــ الى يا أولادى !.. الى ، أنتم جميعا ، يا من صنعتهم من لحمى ودمى .. وخلقتهم من صميم حياتى!
وراح يناديهم بأسمائهم !.. ثم توقف عند اسم اشهر طبيب فى قصصه .. وسمعته الممرضة وزوجته وهو يجذب ملاءة الفرش ، ويدعوه لاهثا :
ــ بيانشون !.. دكتور بيانشون !.. ادعوه الى !. فهو الذى سينقذنى !.
ولكن الصوت الآخر الداخلى رد عليه :
ــ وممن ينقذك ؟ !..
بلزاك ، الحنون ، الحساس ، المرح ، عاشق الحياة لم يعد يرد ، شعره مشعث ، وعيناه مغمضتان ، وفمه مفتوح ، وروحه تصعد الى بارئها ..
والتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٥٠ ..
الامبراطوريات تنهار . والفراعنة يرقدون فى سبات، ويتحولون الى موميات مقمطة ، يقضون أجيالا وأجيالا فى الظلام ، بعد سنوات قليلة سريعة فى النور ، والاسكندر الاكبر يقضى نحبه فى سن الثلاثين . وديموستين ، الخطيب الاشهر ، ينتحر .. وسقراط يشرب السم الزعاف .. وقيصر بطعن بخنجر .. وموليير ينفث دما ..
مقابر !.. ثم مقابر !.. فى كل مكان مقابر !.. و..

رب لحد قد صـــــار لحدا مرارا
ضـاحك من تزاحم الاضـــداد !..
ودفين على بقـــــــايا دفين
من قـــــديم الازمان والآباد !..

وكل شيء ، كل ما كان عظيما ، أعظم ما يكون . يخضع ، على رغمه ، ويخفض جناحه ، وينكسر .. ويضطر الى الاستسلام ، والعدول عن النضال ، ويسلم النفس الاخير ..

زد على هذا القضاء المحتوم : ان بلزاك قد مات على يديه ذات أولاده ، الذين خلقهم بقلمه ، ثم ألقى بهم ليعمروا المقابر !..

ورآهم ، وهو فى النزع ، واحدا بعد واحد ، رجالا ونساء .. يتتابعون على الاجداث صاغرين .. وسمع صوت خطوات .. فالتفت .. فاذا بجنازة تمر.. عرف فى المشيعين أسرة حبيبته لور دي برنى ، يتبعون نعشا .. كان نعشها .. فقد ماتت كذلك ، تلك التى كانت له : أما ، وصديقة ، وحبيبة ، وملـكا حارسا ..

هى أيضا !.. وعلى ذلك ارتضى الموت ، وسلم بأنه حق . وتمدد ، من تلقاء نفسه ، على سريره ، ليرتاح الى الابد .. وتحول جفناه نحو روحه.. ورأت أمه ، وهى منحنية على فراشه ، نجمتيهما تنطفئـــان .. فصرخت ، وأجهشت فى البكاء ..

وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف مساء . وقد ظل يحتضر اثنتى عشرة ساعة .. واعتكفت مدام دى بلزاك ، الـكونتس البولونية ، فى غرفتها ، بعد ما هلكت حزنا ، ولوعة ، وتعبا .. فلم يرها تنصرف . وجاء قسيس فصلى ، ولم يسمع صـلاته . ثم جاء فكتور هيجو يحمل اليه وداع الشعر ، فلم يحس يده تضغط

على يده .. ثم كانت أمه ترى ، وتشهق بين عبراتها :
ـ أواه !.. يا ولدى !..

شيع اونوريه دى بلزاك فى جنازة تافهة !.. كتلك التى يؤديها المجتمع لموتاه ، جميعا ، بلا تمييـــز !.. وبلغت كنيسة سان فيليب دى رول ، فى الساعة الحادية عشرة ، من صباح الاربعاء ٢١ اغسطس .. وكان النساء مزدحمات من حولها فى السوق .. فوقفن لحظــة ، ينظرن ببساطة ، ويحيين باحترام .. ولا يعرفن ، فى كثرتهن ، مقدار ما أحبهن هــذا المسجى فى تابوت من خشب !.

وكان الجو ثقيلا ، كئيبا .. وبدأ رذاذ مطر يتساقط .. ووصلوا مقبرة بيرلاشيز فى ساعة متأخرة . وكان جمهور هائل ينتظر الرفات .. وكان المتران المربعان من الارض ، اللذان اختارتهما أرملته فى العشية ، يقعان على قمة الربوة .. فعانت الخيل ، وجهدت ، فى الوصول الى حفرته .. وكاد هيجو ، وهو ممســك بطرف من بسـاط الرحمة ، ينحصر بين العجلة وقبر من القبور.. وحدث هرج ومرج ، وتعالى الصيـــاح .. ثم أنزل التابوت فى الحفرة ، ووقفت الجماهير دقيقة ، جامدة، خاشعة .. وكان هناك أربعة رجال ، فى ثياب عمال ، أخذوه بالحبال ، وتركوه يهبط ..

فارتجف الـكاتب الرقيق ، « باربيه دورفيلى» ، الذى كان يعجب ببلزاك ، ولزم الصمت أثناء جنازته ، وقال لنفسه : « ان بلزاك هو نابليون بونابرت الادب ، ولـكنه لم ينزل عن عرشه ، ولم يهزم فى موقعة ووترلو! ثم اغمض عينيه ، ورأى ، بدلا من جســد يسقط فى حفرة ، روحا يصعد الى عنان السماء .. فآمن بأن المجد يسمو فوق كل حقــد ، وفوق كل حسد ، وفوق كل

عناء ، وفوق كل شقاء ..
وبعد أن بارك أحد القسس الضريح ، تكلم فكتور هيجو .. وكان الهواء الذى يعصف ، وحفيف الشجر الذى يهتز ، ووقع الفؤوس التى تحفر ، تلتهم الكثير من كلماته قبل ان تصل الى الآذان .. وأخيرا التفت الشاعر الكبير نحو باريس ، واستودعها الكاتب الخالد
وكان يوما عبوسا قمطريرا . فلما آن أوان الشفق، تفتحت أبواب السموات ، وبزغت الشمس ، وصبغت بذهبها البهيج رءوس الاشجار .. وخرجت الطيور التى كانت مستكنة فى أعشاشها ، فصدحت ..
واتخذت مقبره بيرلاشيز مظهر حديقة للموتى .. وقد استودعتها فرنسا ، الساعة ، رفات مجد من أعظم أمجادها ..
وكان صاحب هذا الرفات ، من ثلاثين سنة ، يجوس وما زال فتيا ، بين أجداث نزلائها ، أمثال : موليير ، ولافونتين ..
فى هذا المساء ، ٢١ أغسطس ١٨٥٠ ، الله وحده يعلم كم من النساء يسهرن ، وهن يطالعن روائع وانوريه دى بلزاك ، ويهنأن !.. بيد انه كانت هناك ، فى اقليم بعيد ، امرأة ، صديقة ، وفية ، هى « زولماكارو » ، لم تعد قراءة ما قرأته ، بل عادت فاستعرضت ، بكبد حرى ، وفؤاد يتمزق ، تلك الرواية التى عاشتها واياه ، فى صداقة نقية خالصة ، على هامش « الكوميديا الانسانية » ..
أيها العظيم بلزاك !. أيها العزيز بلزاك !. أيها القلب البطل ، الذى لم يعد يخفق !.. أيها الصديق الذى لا مثيل له .. الراقد الآن ، منفردا ، فى الارض الباردة! ان كل هؤلاء اللواتى ، فى ليلة الحداد عليك ، يرنين

لانفسهن ، ولك ، قد خضعن مع ذلك لما أصابهن من تعب وكلال ، هو أقوى من الحزن .. وبعد ساعة أو اكثر أو أقل ، نمن جميعا ، كما نامت أختـه ، وكما نامت زوجه ، وكما نامت أمه .. أما « زولماكارو » فقد بقيت ، وحدها ، من دون الدنيا كلها ، ساهرة ، مع النجوم الساطعة فى سمائها ، الخافقة من عليائها ، المشرقة فى تواضع مترق على مقبرة بيرلاشيز .. فلم تأو الى فراشها . بل صعدت الى الغرفة التى كان بلزاك قد سكنها ، فى جناح من بيتها الصغير ، فوق ماكان يحبه من خزين الحبوب والدقيق ، هذه الاشياء النبيلة !.

فحملت شمعة ، ووضعتها على المنضدة التى كان يجلس اليها ، وتركت النافذة مفتوحة على الحديقة ، لتشم هواء الليل القادم من بعيد .. ربما من باريس .. من يدرى ؟.. وجلست أمام الشمعة ، التى يرتعش لهبها ، على نحوها . وقد تاهت عيناها ، وشرد منهما البصر ، وضمت يديها .. وتعانق ذراعاها على صدرها ، وبدأت تعيد بقداسة ، فى ذاكرتها ، وكأنها تسبح ، ذكرى هذا الرجل المجيد ، ذى القلب الذى لايفنى ، ولا عداد له ..

وظلت هكذا تتبعه ، وتصحبه ، فى فكرها ، وتؤنسه ، سواد ليلته الاولى ، الموحشة فى المقبرة ..

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

كان « بلزاك » يريد أن يكون : نابليون الادب ، ذلك لأنه نشأ فى أوائل القرن الماضى حيث كان نابليون فى ذلك الحين هو بطل الابطال فى أوروبا بل فى العالم كله · وكذلك كان بلزاك يريد أن يكون أديب الادباء فى أوروبا وفى العالم · كان موهبة رائعة ، وكان غزير الانتاج، غزير العاطفة · يعتبر واحد من اكبر عشرة عباقرة أنجبهم الادب العالمى فى كل عصوره منذ ظهر الانسان على الارض حتى اليوم ، كما قال عنه سومرست موم ، وبلزاك لم يكن روائيا عظيما وحسب ، بل كان انسانا مليئا بالعواطف والاندفاعات ، وكانت حياته قصة مثيرة من المغامرات ومن النجاح الضخم والفشل الضخم ··

وهذا الروائى العظيم ، والانسان المتدفق بالحياة والانفعال ، هو موضوع هذا الكتاب الرائع الذى تقدمه سلسلة « كتاب الهلال » اليوم ، والذى كتبه الصحفى الكبير أحمد الصاوى محمد معتمدا على بعض المصادر الاوروبية الاساسية التى تحدثت عن حياة ب
··· وهو كتاب لا غنى عنه للقراء ، وخاصة من ال
ففى هذا الكتاب كثير من المتعة الفنية والفكرية وفى
والمعرفة ··· كل ذلك فى أسلوب بسيط جذاب ير
سحرى من الادب الرائع الجميل ···

١٢ قرشا